بسم الله الرحمن الرحيم



تأليف

محمد بن سعيد الأندلسي
لطف الله به

النسخة المنقحة المعتمدة

همسات

إلى أهل الغربة والبلاء والصفوة النجباء ... إلى من قيدهم الحديد وسورهم جُداران المذلة والعبيد ... إلى من اشتدت عليه وطئتُ الكفار وطالت عليه السنين والأعمار وانصرف عنه القريب والبعيد ... من عرف الحق تحت المطارق والحديد ... صبراً فأنتم الأمل في رفع الراية من جديد، فلم يبقى بعدكم رجال على الحق تقارع أهل الشرك والتنديد.

إلى الشعوب والأقوام: ندعوكم إلى صحيح الإسلام، ونبرأ إلى الله عزَّ وجلَّ منكم ومما تعبدون من دون الله، كَفَّرْنَاكُم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده خاضعين له بالطاعة والعبادة، منقادين له بالحكم والاتّباع، ونقول لكم كما قال أبونا إبراهيم لسلفكم: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

إلى علماء السلاطين: من باع دينه بدنيا غيره، إلى من عاش بعلمه واقتات بدينه ... أيها الطواغيت السَّفلَة لو كان في كنانتي عشرة أسهم لنثرتها عليكم.

إلى جماعات القتال: من شابت لحيته في الثغور والنزال، يحسب أنه على جادة الطريق قد أصاب المورد الزلال، وهيهات هيهات ... إلى من استكبر على الحق وكابر حتى فَنِيَّ وأَفْنىَ ... إلى من يُصِّر على عبادة الرجال واقتفاء أثر الآباء والأبدال ولو كانوا ضُلاَّلاً جُهَّال

لما جَاءَ اللهُ بالإسلامِ كانَ الرجلُ إذا أسلَمَ في قَبيلتهِ وحَيِه غَريباً فيهم، مُستخفياً بإسلامِهِ قد جَفاهُ الأهلُ والعَشيرة ورموه عن قَوسٍ واحدة، فهو بينهم يتجرعُ غُصَصَ الجَفاءِ والأَذى ... ولقد عادَ الإسلامُ غَريباً كما بدأَ أولَ مَرة لكثرةِ الأهواءِ المُضلِلَة والمَذاهِبِ المُختلفة والأَديَانِ والنِحل الوَضيعة، حتى صار أهلُ الحقِ في الناسِ غُرباء لقلتهم بين الغُثاء مُتدثرين بِحُلَلِ العناء قَابضين على جَمرِ البَلاء ... اللهم اربِط على قُلوبهم وآنس وحشتهم وأحسن خاتمتهم.

عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قِيلَ: وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: " النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ»

...إلى من كبر عليهم ما دعوناهم إليه ...عودوا إلى الحق فإنه الفضيلة... أوبوا إلى الإسلام وارفعوا بحقٍ رايةَ خيرِ الأنام، تُفتح لكم الأرضُ وتبوؤ بالفوز في ساحات القتال، ولا يصدنكم الكبر ولا الأصنام ولا الشيوخ ولا الرجال.

إلى الحيارى: من لسان حاله يقول والله ما أدر على ما أنا عليه !!، إلى من أكثروا التنقل والتلون ... إلى من تاهوا في الشكوك والضلالة يتقلبون في صفحات الجهالة والغواية، توبوا إلى الله واستمسكوا بحبله المتين والزموا سنة نبيه الأمين وغرز أصحابه الميامين.

وإني لأخذ بأيدي هؤلاء إلى الهداية والرشاد وأسال الله أن يشرح صدورهم للحق المبين وهو الهادي ذي القوة المتين.

وكُنتُ وصَحبي في ظلامٍ مِنَ الدُجَى   نَسِيرُ عَلى غيرِ الطَرِيقِ ولا نَدْرِ
وكُنا حَيارَى فِي القِفَارِ ولَم يَكُنْ   دَلِيلٌ لَنا نَرجُو الخَلاَص مِن القَفْرِ
ظَمَاءٌ إلى هَدْيٍ يَبلُ غَلِيْلَنا   وَقَد قَطَعَ الأَعنَاقَ مِنَا لَظَى الهَجْرِ
فمَا هُوَ إلا أَنْ تَبدَّى لِنَاظِري   سَنَا بَرقٍ يَبْدو كَنُورٍ مِنَ الفَجْرِ
فَيَمَمْتُ وَجهِي نَحوَه مُتَجَرِداً   مِنَ الأَهوَاءِ وَالأدواءِ التِي تَسْرِ
فَخَالَجنِي نُورُ الهُدى بِضيَائهِ   يَجلي الظَلامَ البَهِيمَ كالبَدْرِ
فَرأيتُ حَقاً سَاطِعاً أنوارُه   يُحْيِّ مَواتاً للقُلُوبِ مِن الكُفْرِ
حَقاً ثَقيلاً حَمْلُهُ فِي زَمانِنَا   إلا إِمَاماً قُدوَةً للنَاسِ في الخَيْرِ
يُقيمُ صَرْحاً لِمِلَةٍ دُرِسَتْ   زَمَاناً طَويلاً في جَاهِليةِ العَصرِ
صَبْراً عَلى مَا تَنُوءُ الجِبَالُ بِه   يَرجُو الثَوابَ مِنَ اللهِ والأَجْرِ
فَقُلْتُ أيُها الصَحْبُ الكِرامُ أَلا   إلى الإِسلامِ أُوبُوا إلى أَولِ الأَمْرِ
فَإنِي رَائِدٌ مُشْفِقٌ نَاصِحٌ لكُمْ   أَجِيبُوا دَاعِيَّ اللهِ قَبلَ ضَمةِ القَبْرِ

تمهيد

الحمدُ للهِ الذي أضَاءَ قُلوبَ المسلمين بنور الإيمان، وأحيَاهُم بعد مَوَاتٍ وأنبتهم بين غُثاء آخر الزمان، وهدَاهم لما اختُلِف فيهِ مِن الحقِ بإذنه وأزاغَ عنهُ أولياءَ الشيطان، وتولاهم برحمته وأسبغ عليهم نعمته وأحلَ عليهم السكينَة والرضوان، فكانوا هم السعداء حقاً برغم القيد والغدر ودائرة الزمان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أولياء الرحمن الذين سادوا بكتاب الله وهدي رسوله ﷺ الديار والبلدان، وكانوا نبراساً لطالب الهُدَى أئمة الأنام لكل زمانٍ ومَكان، ثُم تطاول العهد بعد العلو والظهور بالبيان والسنان، فصار أهل الأرض بين تائهٍ وحيران وعبد للطاغوت ومُنقادٍ للشيطان، فالأرض قد غشاها ظُلْمَة الجَهل والشرك والإعراض والكُفران، قد استولى عليها أئمة الكفر وعساكر الفساد، وطواغيت علمٍ زَينوا الباطل بِبَهرج القول وزُخْرُفِه[1] ليَنالوا به رِضا السُلطان، فوُكِلوا إلى ظُلُمات أراءِهم ودَسائِس أفكارهم فكانوا كالكلب الظمآن، سُوقهم نافقة وأُصولهم في أهل الشرك رَاسِخة ودِينُهم له يُدان، وسوقُ الحقِ كَاسِدةٌ لا تُقام، وقولهم بين الأنَامِ قد علاه الرُكَام وصَوتُهم لهُ أنين قد أحَاط به عَالِي الجُدران.

أما بعد فإنه زمن الفتن ومن أعظمها تقليب الأمور، فَقلَبُوهَا ظَهرًا لِبَطن فصِرنا إلى ما قاله الفضيل بن عياض: «كَيْفَ بِكَ إِذَا بَقِيتَ إِلَى زَمَانٍ شَاهَدْتَ فِيهِ نَاسًا لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَلَا بَيْنَ الْأَمِينِ وَالْخَائِنِ، وَلَا بَيْنَ الْجَاهِلِ وَالْعَالِمِ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا»[2]، ايه والله فقد صرنا إلى هذا الزمان، وعاد الناس إلى عبادة الطاغوت

---

[1] قال مُجَاهِدٍ ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾: «تَزْيِين الْبَاطِل بالألسنة» رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٧٧٣

[2] الإبانة الكبرى ١/ ١٨٨

والأوثـان، فعَـنْ سَـعِيدِ بْـنِ جُبَيْرٍ قَـالَ: قَـالَ لِي رَاهِـبٌ: «يَـا سَـعِيدُ فِي الْفِتْنَـةِ يَتَبَـيَّنُ لَـكَ مَـنْ يَعْبُـدُ اللَّـهَ مِمَّـنْ يَعْبُـدُ الطَّـاغُوتَ»[١]، إنهـا فتنـة الشـرك باللـه والعُـدول عـن شـرعه ودينـه القـويم إلى أوضـاعِ وقِـيَم الجاهليـة وعقائـد وتصـورات الوثنيـة، أبصَـرَها أُولِـي البصـائر والهدايـة وعَمِـيَ عليهـا أهـل الضـلالة والغوايـة ومثـل الفـريقين كمـا قـال تعـالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود:٢٤].

إنَّ مـا تَنازعـه النـاس في هـذا الزمـان لهـو حقيقـةُ الإسـلام الـذي أدركـه خُصُّـومُ الرِسَـالةِ المحمديـة والملـة الحنيفيـة مـن أهـل كتـاب معانـدين وجـاهليين وثنيـين، علمـوا أن محمـداً ﷺ بُعـث بـالأمر بعبـادة اللـه وحـده لا شـريك لـه والنهي عـن عبـادة مـا سـواه، وإفـراد اللـه بالطاعـة والحكـم والتلقـي عـن اللـه الواحـد القهـار، والبـراءة مـن سـائر الأديـان والأقـوام، وتكفيـر مـن لـم يـأت بهـذا الأصـل العظيم، وقـد ابتُلينـا في هـذا الزمـان بقـومٍ تحلَّـوا بـزي العلمـاء فَثقُـل علـيهم حَمـل الـدين كـاملاً لعظـم الفجـوة بينـه وبـين الجاهليـة، فغيـروا حَـدَّهُ واشـتروا بآيـات اللـه ثمنـاً قلـيلا ... فصـار علمـاء هـذه الأمـة شـرارها حـالهم أشـد مـن حـال الأحبـار والرهبـان الـذين ذمهـم اللـه في كتابـه في مواضـع كقولـه: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعـراف:١٦٩]، قـال السُّـدِّيِّ فِـي قَوْلِـهِ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: «هُـمْ مِـنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ وَأَشْـبَاهُهُمْ مِـنْ هَـذِهِ الْأُمَّـةِ الْمُرْجِئَـةُ»[٢]، وهـمُ الـذين خـافهم رسـول اللـه ﷺ على هـذه الأمـة كمـا في حـديث ثَوْبَـانَ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللـهِ ﷺ: «إِنَّمَـا أَخَـافُ عَلَـى أُمَّتِي الْأَئِمَّـةَ الْمُضِـلِّينَ»[٣]وهـم الـذين أفسـدوا الدين كما قال ابن المبارك:

[١] الابانة الكبرى برقم ٧٦٩

[٢] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ٨٤٩٢

[٣] رواه أحمد برقم ٢٢٣٩٣

وَهَـل أفْسَـدَ الـدِّينَ إِلَّا المُلـوكُ وَأحبـــارُ سُــــوءٍ وَرُهْبَانُهَـــا؟

إنَّ مـن عـرف التوحيـد الـذي جـاء بـه موكـب النـور مـن الأنبيـاء والمرسـلين، واسـتَّيقَن قلبُـه بمـا مَـنَّ اللـه عليـه مـن نـور الهدايـة، ثُـم نظـر بعـين البصـيرة مـن علـو الإسـلام إلى ظلمـات الجاهليـة في هـذا الزمـان، مـن خلائـق وأوضـاع ومـدائن وأقــوام وشــعوب وحضــارات وملــل وديانــات، لأصــابه مــن عظــيم الدهشـــة التي تَخْطِـف بـالقلوب والأبصـار، وألَـمَّ بـه مـن شَـديد الوحشـة بـين هـؤلاء الأقـوام في تلـك الـديار، ونابَـهُ مـن جفـوة الغربـة مـا يـزوي بـه بعيـداً عـن المشـركين يبغـي العُزلَـة والفِـرار ... إنَّ قلـب الموحـد ليَحَـار ويَعظُـم عليـه مـا أصـابه هـؤلاء الأقـوام مـن التغيـير والتبـديل والحـور بعـد الكـور، فقـد اسـتدار بهـم الزمـان إلى جاهليـة جهـلاء ونكبـةٍ جَمعـاء، ثـم ينظـر المسـلم في نفسـه ومـا امـتن اللـه عليـه مـن الفضـل العظـيم، فيخـاف أن تـزل بـه القـدم بـين هـؤلاء الرعـاع ولا ينفـع يومئـذٍ النـدم، ويتأمـل متـدبراً في كتـاب اللـه فيـزداد بـه اليقـين على مفارقـة قومـه للـدين، وأنهـم على مـا كـان عليـه الأقـوام المكـذبين الـذين قَـصَّ اللـهُ قصصـهم في كتابـه المبـين فيقـول: الحمـد للـه رب العـالمين علـى نعمـة التوحيـد ومفارقـة أهـل الشرك والتنديد.

وفي هـذه الكتـاب أسـتعين باللـه العلـي العظـيم على بيـان حقيقـة الإسـلام الـذي بُعِـثَ بـه الأنبيـاء إلى الخليقـة أجمعـين ... الحقيقـةُ الغائبـة بـين الأنـام الـذين يحسـبون أنهـم مـن المهتـدين، وإقامـة الـدلائل ونصـب الحجـج والبـراهين على أركانـه بـين التأصـيل والتنزيـل، وبيـان مفارقـة الأقـوام لصـحيح ديـن الإسـلام بوقـوعهم في شـرك العبـادة والطاعـة وشـرك الحاكميـة والاتِّبـاع، ودخـولهم في ديـنٍ وضـعي جديـد، وبيـان كفـرهم في عمـوم الـديار وسـائر الأمصـار في هـذا الزمـان، وأنـه لا يصـح الإسـلام اليـوم إلا بـالخروج مـن هـذه الجاهليـة العصـرية ومفاصـلة أهلهـا بـالبراءة منهم وتكفيرهم، والـرد على أحفـاد الجهـم وبَلْعَـام وبيـان مـا هـم عليـه مـن التلبيـس والأوهـام ... أسـأل اللـه التوفيـق والسـداد وأسـتمد منـه العـون والرشـاد ... **﴿ اللهـم لـك أسـلمت وبـك آمنـت وعليـك توكلـت وإليـك أنبـت وبـك**

خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»[1].



[1] رواه مسلم برقم ٦٧ من حديث عبد الله بن عباس.

الباب الأول

بين أوضاع الجاهلية ودين الإسلام

الفصل الأول

الحكمة من إرسال الرسل

إن الله فطر الخلق على التوحيد وأخذ على ذلك الميثاق: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وجعل الإشهاد عليهم حجة في الإشراك به تعالى، وسمى الله هذا الميثاق إيماناً كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٦]، قال أبيّ بن كعب: «هو الإيمان الذي كان قبل الاختلاف في زمان آدم، حين أخذ منهم عهدهم وميثاقهم، و **أقرُّوا كلهم بالعبودية**، وفطرهُمْ على الإسلام، فكانوا أمة واحدة مسلمين»[١]، وعَنِ السُّدِّيِّ في قَوْلُهُ تعالى: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأعراف:١٠١]، قَالَ «ذَلِكَ يَوْمَ أَخَذَ مِنْهُمُ الْمِيثَاقَ فَآمَنُوا كَرْهًا»[٢].

وجاء في الأخبار أن الشياطين اجتالت بني آدم عن فطرتهم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء١١٩] قال ابن

[١] تفسير الطبري ٧٥/٧

[٢] رواه بن أبي حاتم برقم ٨٧٨٠

عَبَّاس: «خَلْقَ اللَّهِ: **دِينَ اللَّهِ.** وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ فِي أحد قوليه وإبراهيم النَّخَعِيِّ وَالْحَكَمِ وَالْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ وَعَطَاءٍ الخرساني نحو ذلك»[١]، وعن مجاهد في قوله:" ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ ، قال: «**الفطرة دين الله**»[٢]، وقال أبو جعفر:" يقول: ولآمرن النصيبَ المفروض لي من عبادك، بعبادة غيرك من الأوثان والأنداد حتى يَنْسُكوا له، **ويحرِّموا ويحللوا له، ويشرعوا غيرَ الذي شرعته لهم، فيتبعوني ويخالفونك**"[٣].

وما ورد في حديث عِيَاض بْن حِمَارٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[٤]، فسمى النبي ﷺ المفطور عليه ديناً والانحرافُ عنه إلى تحليل الحرام هو الشرك الذي لم ينزل الله به سلطانا، وهذا يدل على أن المنحرفين عن الفطرة ـ الدين ـ يعدلون إلى نُظُم وأوضَاع وقِيَم وشَرائِع ما أنزل الله بها من سُلطان.

ومن رحمة الله تعالى بخلقه إرسال الرُسل بعد انحرافِ الأُمم باتخاذهم الأنداد وعبادتهم الآلهة وتنصيب الأرباب التي تَسُنُّ لهم النُظُم والقوانين ما لم يُنزل الله به من سلطان... يُرسل الرُسُلَ ويُنزِل الكتب لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، كما جاء في الكتاب الحكيم في مواضع: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:٥]، وقال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ

[١] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ٥٩٧٥

[٢] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٠٤٧٢

[٣] تفسير الطبري ٩/٢١٤

[٤] رواه مسلم برقم ٦٣

صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١]، أي لتُخرجَ الأرضَ ــ التي مقتها الله عربها وعجمها إلا بقايا من أهل الكتاب ـ من ظُلمات الحيرة والتيه في تعدد الآلهة والأرباب، وظلمات الوهم والخرافة في وثنية القربات والتصورات، وظلمات الرذيلة والفجور في اختلال القيم وانحلال الأخلاقيات ... إلى نورٍ تُشرق به النفوسُ بعد أُفولِها، وينقشع به ظلام الشرك وضبابُ الخُرافة وغَبش الأوهام، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، أي: يخرجهم من الظُلمات التي غمسهم فيها الطواغيت، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، أي: الذين يزجونهم في حمأة الكفر وظلمة الشرك، والله عزَّ وجلَّ يُخرجهم إلى النور بإرسال الرسل وإنزال الكتب، والصراع قائم بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والعاقبة للمتقين.

أرسلَ اللهُ الرُسُلَ مبشرين ومنذرين بكلمة التوحيد: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [هود:٥٠]، بهذه الكلمة العظيمة والعروة الوثيقة التي هي كفيلة أن تُغيّر حياتهم وتهدم أوضاعهم وتَنسِّف الجاهلية نسفاً، ليحل محلها الإسلام الذي عُقْدَتُه الاستسلام والخضوع والانقياد والاتِّباع لله الواحد القهار، والمتابعة للنبي المُرسَل والطاعةُ له في جميع الأمور والأحوال، إذْ لا يثبتُ قَدَمُ الإسلامِ إلا على قنطرة التسليم المطلق لله تعالى، قال جلَّ وعلا: ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان:٢٢] . . . إنها نقلةٌ رهيبة

تهدم ما كان قبلها من تصورات ومُقدَسات وثوابت وأعراف جاهلية، فيصير التلقي في جميع الأمور والأحوال عن الله وحده من طريق واحد وهو الوحي المنزل على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣].

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ أَعْنِي سَبِيْلَ الحَقِّ وَالإِيْمَانِ

فالمسلم هو الذي أسلم وجهه ـ أي كله ـ لله، وهو الذي يتلقى عن ربه في **الأصول الأربعة:**

1_ العقائد والأخبار 2_والمناسك والشعائر 3_والشرائع و الأحكام 4_ ونظام الملك ومنهج الحياة ... فالخالق لهذا الكون المتصرف فيه المدبر لأمره المالك له هو الذي له الخلق والأمر، وهو الذي يُقرر الاعتقاد والتصور للقلب والعبادة والشعائر للجوارح والنظام والمنهج للحياة، والمسلم هو الذي يتلقى عن ربه في الأصول الأربعة سواءً بسواء، وهذا معنى الكلية في التلقي التي لا يصح الإسلام إلا بها، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة:٢٠٨]، قال ابْنِ عباس:« **السِّلْمُ: الطَّاعَةُ** »، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، نَحْوُ ذَلِكَ»[1]، فمن أشرك في العقائد كالجهمية والأشعرية فهو مُشرك، ومن أشرك في الشعائر كالصوفية والقبورية فهو مُشرك، ومن أشرك في النظام ومنهج الحياة كالديمقراطية والاشتراكية فهو مُشرك سواءً بسواء.

إنَّ تحديد ماهية الإسلام وحقيقة الإيمان ينطلق من التصور الصحيح للواقع الذي أُرسل فيه الرُسل، والبيئة التي دُعِيَ فيها إلى الإسلام أول الأمر، وتحديد القدر الذي دعا الرسل أقوامهم إلى تحقيقه للدخول في الإسلام، والصفة التي جاء بها أتباع الرسل حتى كانوا مسلمين، وكذا تحديد موضع

[1] أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير برقم ١٩٤٦

الخصومة ومحل النزاع بين الرسل وأقوامهم المخالفين لهم في أصل الدعوة، وبهذا النظر يكون التصور الصحيح للإسلام الذي جاء به الأنبياء والمرسلين ... أما دعاة "الإسلام" اليوم فهم يخيطون دينهم على مقاس أقوامهم، فكلما أحدث الأقوام شركاً أو كفراً أو بدعة أحدث لهم الدُعاة مخرجاً ومسلكاً وعُذراً ... فشتان بين السبيلين والطائفتين أتباعُ الرسل وأتباعُ المرقعين.

وقبل أن نحقق ماهية الإسلام التي جاء بها الرسل، لابد من النظر في حال الأقوام الذين بُعث فيهم الرسل، فإنها تُبعَث إلى أقوام مخالفين لها في أصل الدعوة على الأغلب الأعم بعد انحراف الفطرة واستشراف الجاهلية كما سبق الإشارة إليه، مع العلم أنَّ الأصل في بني آدم التوحيد والشرك طارئ عليه، حيث كان أول شركٍ وقع في قوم نوح لما غلو في الصالحين وأشركوا بالله رب العالمين، وسوف نعقد فصلا ـ بحول الله وقوته ـ في توصيف أوضاع الجاهلية كمقدمة ضرورية لتصور حقيقة الإسلام ... وهو من تفسير الشيء بضده إذ لا يتم معرفة حقيقة الشيء إلا بتصور حقيقة ضده، لأن الجاهلية والإسلام ضدان لا يجتمعان ولا يرتفعان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام٥٥]، قال ابن أبي زمنين: ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ "يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ بِالْآيَاتِ الَّتِي بَيَّنَ اللَّهُ فِيهَا سَبِيلَ الْهُدَى مِنْ سَبِيلِ الضَّلَالَةِ"[1].

عرفت الشَّرّ لَا للشر لَكِن لتوقيه **وَمن لَا يعرف الشَّرّ من النَّاس يَقع**

قال حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ: «**جَاءَ الْإِسْلَامُ حِينَ جَاءَ فَجَاءَ أَمْرٌ لَيْسَ كَأَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ**»[2]، وبهذا التصور لحقيقة الشيء وضده تتمايز الأمور وتنكشف حقائق الأشياء، إذ لولا الظلام ما عُرف النور ولولا الشرّ ما استبان الخير، وكل ضدٍّ يكشف عن ضده.

ويجب على كل جميع المكلفين تعلم دين الإسلام بحده الصحيح والعمل به، وخاصةً في هذا الزمان الذي اشتدت فيه الغربة وانحرفت فيه الخليقة

---

[1] تفسير ابن أبي زمنين ٧٢/٢

[2] رواه معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي في الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق) برقم ٢٠٧١١

أجمعـين ـ إلا مـن رحـم اللـه تعـالى ـ قـال اللـه تعـالى:﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد١٩]، وعَـنْ عَاصِـمٍ الْأَحْـوَلِ قَـالَ كَانَ أَبُـو الْعَالِيَـةِ يَقُـولُ لَنَـا: «**تَعَلَّمُـوا الْإِسْلَامَ** فَـإِذَا تَعَلَّمْـتُمُ الْإِسْلَامَ فَتَعَلَّمُـوا الْقُـرْآنَ فَـإِذَا تَعَلَّمْـتُمُ الْقَـرْآنَ فَتَعَلَّمُـوا السُّـنَّةَ فَـإِنَّ سُـنَّةَ نَبِـيِّكُمْ ﷺ صِـرَاطٌ مُسْـتَقِيمٌ وَإِيَّـاكُمْ أَنْ تُحَرِّفُـوا الصِّـرَاطَ يَمِينًـا وَشِـمَالًا وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْأَهْوَاءَ الْمُرْدِيَّةَ الَّتِي تُلْقِي بَيْنَ النَّاسِ الْعَدَاوَةَ»[١].



[١] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٧٩٠

الفصل الثاني

اسم الجاهلية

إنَّ الجاهليةَ من الأسماءِ الشرعية التي تفسيرها موقوف على النص من الكتاب والسنة، وليس موكول إلى الآراء والأهواء، وليست هي فترة من الزمان تفوت بفواته، ولكنها وضعٌ من الأوضاع متى وُجِدَ هذا الوضع سُمِّي بالجاهلية، سواء كان من أول الزمان أو من آخره، أو حين الفترة بانقطاع الرسل أو بتقادم العهد بعد مُضي الرسالات، كما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب٣٣] قال: «**تكون جاهلية أخرى**»[١]، وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ مُلُوكٌ ثُمَّ الْجَبَابِرَةُ ثُمَّ الطَّوَاغِيتُ»[٢].

والجاهلية الأولى أشرف من جاهلية اليوم، فجاهليةُ أمس اتَّبع فيها العرب الآباء والأجداد وجاهلية اليوم اتَّبعوا فيها الأعداء والأنداد، ونحن ابتداء نحدد الوضع الجاهلي الواردِ في الشرعِ وَصْفُه، ومن ثَمَ ننظُر في واقعنا المعاصر ونحقق المناط بحول الله وقوته.

واسم الجاهلية جاء في القرآن في أربعة مواضع تُحَدِدُ المعالم الكبرى لكل جاهلية في كل زمان ومكان، وجاء في السنة في مواضع كثيرة وفروع عديدة لا تخرج على الأصول الأربع الواردة في القرآن وهي:

---

[١] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٧٦٧٢

[٢] مصنف ابن أبي شيبة برقم ٣٠٥٦٥

1ـ جاهليــة العبــادة والشــعائر 2ـ وجاهليــة الحاكميــة والشــرائع 3ـ وجاهليــة الــولاء والبـراء 4ـ وجاهليــة القــيم والأخــلاق، ونحــن بحــول اللــه وقوتــه سَنُفَصِّــل القول على ضوء هذه الأصول فنقول:

المطلب الأول: جاهلية العبادة والشعائر

وهي التي تُقيم للناس آلهة تُصْرَف لها أنواع العبادات والقربات، والأصل في ذلك ما جاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: «كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ **وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ**»[١]، وعند البغوي: «إِنِّي كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَرَى النَّاسَ عَلَى ضَلالَةٍ، وَلا أَرَى الأَدْيَانَ شَيْئًا»[٢]، و في حديث أُمِّ سَلَمَةَ :« ... فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ... » الحديث[٣].

ويدل عليها من كتاب الله ما روي عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾[النجم: ٤٩]، قَالَ: « كَانَ نَاسٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ هَذَا النَّجْمَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الشِّعْرَى»[٤]، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[الفرقان٤٣]، قَالَ:« كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ الْحَجَرَ فَإِذَا رَأَوْا أَحْسَنَ مِنْهُ أَخَذُوهُ وَتَرَكُوا الْأَوَّلَ»[٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ

[١] رواه مسلم برقم ٢٩٤

[٢] رواه البغوي في شرح السنة ٣٢٢/٣

[٣] رواه أحمد برقم ١٧٤٠

[٤] تفسير عبد الرزاق برقم ٣٠٤٤

[٥] رواه الهروي في ذم الهوى برقم ٣٥٧

﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران ١٥٤]، عن قتادة والربيع في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، قالا: «ظنُ أهل الشركِ»[١]، فإن المسيء الظن بربه قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظن به ما يناقض أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهذا موجب للرَّدى والخسران كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت ١٣]، ووجه مناسبة الآية للباب: أن إدخال الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه تنقصٌ بحقِ الربوبية ومُنازعةٌ لله في الألوهية وسوءُ ظنٍ برب العالمين.

وهذا من أبرز معالم الجاهلية المتمثل في اتخاذ الناس آلهة من دون الله تُصرف لها أنواع العبادات كالدعاء والاستغاثة والخوف والتوكل والسجود والذبح وغيرها، واعتقاد أنها تنفع وتضر وتقضي الحوائج وتكشف الكُرَب وأن لها الشفاعة والزلفى عند الله تعالى، وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا تقوم الساعةُ حتى يخرج الناس من الدين أفواجا ويعودوا إلى عبادةِ الأوثان أفواجاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ طَاغِيَةِ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ»[٢]، وعن أبي هريرة ؛ قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر:٢]، فقال رسول الله ﷺ: «ليخرجن منه أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا»[٣].

وهذا أصلٌ من أصول شرك العالم: فاتخاذ القبور والمشاهد والأوثان والمعابد في هذا الزمان في عموم البلدان العربية كالبدوي في مصر والست زينب في سوريا والجيلاني في العراق و عبد الرحمن الثعالبي في الجزائر

[١] رواه الطبري في تفسيره برقم ٨٠٩١

[٢] رواه البخاري برقم ٧١١٦ ومسلم رقم ٢٩٠٦

[٣] رواه الحاكم في "مستدركه"، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه".

والحسينيات في جزيرة العرب وغيرها كثير، لمعالمٌ بارزة وصروحٌ شاهدة على الجاهلية القائمة في الأرض في هذا الزمان، وحال الناس اليوم كما كان عليه العرب في الجاهلية الأولى في كل قريةٍ صنم ولكل قبيلةٍ إله، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ [النجم ٢٠]، فوثنية الجاهلية الأولى هي وثنية اليوم سواءٌ بسواء.

المطلب الثاني: جاهلية الحاكمية والشرائع

وهي التي تُقيم للناس أرباباً يُشَّرِعون لهم النُظُم والقوانين ويَسنُّون لهم الشرائع والأوضاع ويحكمونهم بغير ما أنزل الله، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة٥٠]، عَن السّديّ قَالَ:« **الحكم حكمان: حكم الله وَحكم الْجَاهِلِيَّة** ثمَّ تَلا هَذِه الْآيَة ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾»[١]، وعن أَبُو عُبَيْدَةَ النَّاجِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: «**مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ فَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ**»[٢]، وقال الطبري: "وحُكم الجاهلية يعني: أحكام عبَدة الأوثان من أهل الشرك - إلى أن قال - ثم قال تعالى ذكره موبِّخا لهؤلاء الذين أبو قَبُول حكم رسول الله ﷺ عليهم ولهم من اليهود، ومستجهلا فعلَهم ذلك منهم: ومَنْ هذا الذي هو أحسن حكمًا، أيها اليهود، من الله تعالى ذكره **عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقرُّبربوبيته**؟ يقول تعالى ذكره: أيُّ حكم أحسن من حكم الله، **إن كنتم موقنين أن لكم ربًّا، وكنتم أهل توحيدٍ و إقراربه**؟"[٣]، فتلقي الدين - الذي هو نظام الحكم وشريعته - عن الطواغيت ما لم ينزل الله به سلطاناً، واتباعهم عليه والموافقة لهم في الظاهر، لهو من

[١] الدر المنثور ٣/٩٨
[٢] رواه ابن أبي حاتم برقم ٦٥٠٤
[٣] تفسير الطبري ١٠/٣٩٤

أبرز المعالم الظاهرة للجاهلية المعاصرة، قال الإمام مالك رحمه الله: «كانت مكة دار كفر لأن أحكام الجاهلية ظاهرة يومئذ»[١].

وهذا المعلم متمثلٌ في هذا الزمان في إنشاء الجامعات التي تُدَرِّس القانون وتُخرِّج القُضَاة والمحامين والسياسيين الوضعيين، وتنصيب البرلمانات ومجالس الشعب التي تَسُنُّ القوانين والنُّظم، وإقامة المحاكم الوضعية التي تحكم بما شرعه الطواغيت، وإجراء الانتخابات لتنصيب الحُكّام ونواب الشعب المشرعين، وهذه المعالم في هذا الزمان أكثر بروزاً وشهوداً مما كانت عليه الجاهلية الأولى، ففي جاهلية العصر يَتَجلى بوضوح حاكمية البشر للبشر وعبودية العباد للعبيد، وهذا أصلٌ من أصول شرك العالم، وهو الشرك في الطاعة والحكم.

ولقد كانت الجاهلية الأولى تزعم أن ما تشرعه له أصل في دين الله، كما ذكر الله ذلك في أواخر سورة الأنعام عما كانت تُزاوله العرب من تقاليد وشرائع في شأن الذبائح والنذور والأنعام والثمار والأولاد، إذ أنها كانت تَنسب ذلك إلى الله تعالى افتراء عليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام١٤٤]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:١٤٠]»[٢]، وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام:١٤٥]، قَالَ: «كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَحِلُّونَ شَيْئًا

[١] المدونة الكبرى ٢٣/٣

[٢] رواه البخاري ١٨٤/٤

وَيُحِرِّمُـونَ أَشْـيَاءَ، فَقَـالَ: لَا أَجِـدُ فِيمَـا كُنْـتُمْ تَسْـتَحِلُّونَ إِلَّا هَـذَا " يَقُـولُ: ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[الأنعام: ١٤٥]»[1] .

وما كانوا يجرؤون على التصريح أنها من عند أنفسهم إنما يفترون على الله الكذب فيزعمون أنها شرعُ الله ينسبونها بذلك إلى شريعة إبراهيم وإسماعيل، وكذلك الأحبار والرهبان كانوا يفعلون[2]، قال تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ

---

[1] تفسير عبد الرزاق برقم ٨٦٥، وكما في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا ﴾: قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم:« نزلت إنكارًا على المشركين فيما كانوا يحللون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا ﴾، وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْأَحْوَصِ، يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا قَشِفُ الْهَيْئَةِ، فَقَالَ: " هَلْ لَكَ مَالٌ؟ " قَالَ: قُلْتُ: " نَعَمْ " قَالَ: « مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ " قَالَ: قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْخَيْلِ وَالْغَنَمِ، فَقَالَ: " إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ " ثُمَّ قَالَ: " هَلْ تُنْتِجُ إِبِلُ قَوْمِكَ صِحَاحًا آذَانُهَا، فَتَعْمَدُ إِلَى مُوسَى فَتَقْطَعُ آذَانَهَا، فَتَقُولُ: هَذِهِ بُحُرٌ، وَتَشُقُّهَا، أَوْ تَشُقُّ جُلُودَهَا، وَتَقُولُ: هَذِهِ صُرُمٌ وَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ، وَعَلَى أَهْلِكَ " قَالَ: نَعَمْ قَالَ: " فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ، وَسَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ، وَمُوسَى اللهِ أَحَدُّ - وَرُبَّمَا قَالَ: سَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللهِ أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ » " رواه أحمد برقم ١٥٨٨٨ وله من طرق أخرى عن أبي الأحوص، يقول ابن كثير وهذا حديث جيد قوي الإسناد" تفسير ابن كثير٤/٢٧٦

وقال ابن كثير:" وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم الله لمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا"، قلت ـ ابن كثير ـ ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾، بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم" تفسير ابن كثير٤/٢٧٦

[2] وفي الأثر عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ أَخْبَارِ اللَّهِ، تَعْرِفُونَهُ غَضًّا لَمْ يَشِبْ، **وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَغَيَّرُوهُ**، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ وَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا؟ أَوَ لَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ. لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْهُمْ قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ " رواه ابن أبي حاتم برقم ٨٠٤

ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ [البقرة ٧٩]، **أما في الجاهلية المعاصرة فهو الإلحاد في الحاكمية والتشريع** فهم يسمون نظامهم بالديمقراطية، وهو شعارهم في جميع المراسيم والوثائق والدواوين، ويسمون من يزاول التشريع "بالمشرع" و"السلطة التشريعية" جهاراً نهاراً في إعلامهم وقنواتهم ودساتيرهم ومناهجهم التعليمية، في اغتصاب سافر لسلطان الله عز وجل وإعلان فاضح لربوبية البشر... أفحكم الجاهلية يبغون؟ نعم إنهم يريدون، لأنهم ينتخبون فيُنَصِبُونَ الطاغوت، ويثورون فيُغَيِّرُون طاغوتا بطاغوت، إنهم غير دين الله يبغون، لأنَّ حكم الجاهلية غير دين الله ومن يبتغي حكم الجاهلية فقد ابتغى غير دين الله بمنطوق الآيتين، قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ ﴾ [آل عمران ٨٣]، أي: من ابتغى حكم الجاهلية فهو في غير دين الله، إنما هو في دين من يُحْكَمُ بشريعته ويخضع لسلطانه أي في دين ملوك الأرض، وهذا المعنى تؤكده النصوص القرآنية في كل مناسبات التشريع فما من مرة ورد في كتاب الله تشريعًا إلا أشار إلى المصدر الذي يجعل لهذا التشريع سلطانه في الأرض، أما حين يشير المولى إلى شرائع الجاهلية وعُرفها وتصوراتها وتحليلها وتحريمها، فهو يردفها غالبًا بقوله: ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ ﴾ [الأعراف٧١]، لتجريدها من السلطان ابتداء، وبيان علة بطلانها في كونها لم تصدر من ذلك المصدر الوحيد الصحيح الذي يملك حق الحاكمية والتشريع، فهو يحكم ابتداء ببطلانها كلية بطلانًا أصليًا بما أنها صادرة من جهة لا تملك إصدار الشرائع والأحكام.

المطلب الثالث: جاهلية الولاء والبراء:

وهي التي تُقِيم للناس أسماء وروابط يُعقَدُ عليها الولاء والبراء وتثور فيها الحَميّة وتَتَداعى إليها النُصرَة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح ٢٦]، قال الطبري: ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ لأن الذي فعلوا من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شيء منه مما أذن الله لهم به، ولا أحد من رسله"[١]، وفي السنة عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا، وَقَوْمُ ذَا، وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْأَنْصَارِ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ " ثُمَّ قَالَ: " أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ »[٢] ، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ يَسْتَلِمُ الْأَرْكَانَ بِمِحْجَنٍ فِي يَدِهِ، فَمَا وَجَدَ لَهَا مَنَاخًا فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى نَزَلَ ﷺ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ فَخَرَجَ بِهَا إِلَى بَطْنِ الْمَسِيلِ فَأُنِيخَتْ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَهُمْ عَلَى رَاحِلَةٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، **إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ حَمِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وتعظيمها بِآبَائِهَا** فَالنَّاسُ رَجُلانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَي اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ ثُمَّ قَالَ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[٣] وفي السنة نصوص كثيرة من هذا الباب.

---

[١] تفسير الطبري٢٢/٢٥٣

[٢] رواه أحمد برقم ١٤٦٣٢

[٣] رواه ابن أبي حاتم في التفسير برقم ١٨٦٢٢ ابن كثير ٧/ ٣٦٦- والدر المنثور ٧/ ٥٧٨.

وقد كانت الجاهلية القديمة غارقةٌ في وحل القومية والقبلية، ومن نظر في أشعارهم وحروبهم وأيامهم علم سعة الحفرة التي استنقذهم الإسلام منها كما قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٣] قال ابن إسحاق: « كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة، حتى قام الإسلام وهم على ذلك، فكانت حربهم بينهم وهم أخوان لأب وأم، فلم يسمع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم، ثم إن الله عز وجل أطفأ ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسوله محمد ﷺ »[1].

وفي الجاهلية المعاصرة أقام الطواغيت للناس آلهة متعددة منها الوطنية والقومية والبعثية والشعوبية واللغة وأندية كرة القدم وغيرها، وهي لا تعدوا أن تكون أصنام غير مجسدة يُقَاتَلُ دونها ويُوالَى فيها ويُعادَى عليها، وما هي إلا أسماء وعلائق ما أنزل الله بها من سلطان كما قال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [يوسف ٤٠]، وغير ذلك من الشعارات العلمانية التي تمحض فيها الولاء للوطن وقُطِعَ الولاء فيها عن الله تعالى ودينه، ومنها قولهم: الدين لله والوطن للجميع، ومنها: الله، الملك، الوطن، ومنها شعارهم: القتال في سبيل الوطن وغيرها كثير من الشعارات الجاهلية في هذه المماليك العلمانية.

المطلب الرابع: جاهلية القيم والأخلاق

وهي التي تُقيم للناس عادات وأعراف وتقاليد وقِيَم على ميزان اللذة والهوى، فالفضيلة عندهم ما وافق اللذة، والرذيلة هي ما خالف اللذة وحالهم كما قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان

[1] تفسير الطبري ٧/٧٨

٤٣]، والأصل في هذه الجاهلية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب ٣٣]، وقد ذكر الله تعالى التبرج كمثال لهذه الجاهلية باعتباره بريد الزنا والفاحشة، قال قتادة: « كانت لهن مشية وتكسر وتغنج، يعني بذلك: الجاهلية الأولى، فنهاهن الله عن ذلك»، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: «وَالتَّبَرُّجُ: أَنَّهَا تُلْقِي الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا، وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا، وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ» [١] [٢].

ومن نظر في تبرج الجاهلية الأولى مما رُوي في ذلك من الآثار يرى أنها جد مُحتَشِمَة قياساً بالجاهلية المعاصرة، ولا تنظر إلى عارضات الأزياء في الفنادق والقنوات، ولكن انظُر إلى العارضات في الشوارع والمنتديات فاللحم العاري المتناثر هنا وهناك يثير اشمئزاز أصحاب الفطر السليمة، وليس للجاهلية الأولى خصوصية في هذا الباب بل مظاهر العُري ودَواعي الفساد بلغت ذروتها

---

[١] تفسير بن كثير ٦/ ٤١٠

[٢] وعن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ: يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ. وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ البَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ «فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْمَ»رواه البخاري برقم ٥١٢٧ (أنحاء) أنواع. (وليته) من في ولايته. (فيصدقها) يجعل لها مهرا معينا. (طمثها) حيضها. (فاستبضعي منه) اطلبي منه المباضعة وهي المجامعة مشتقة من البضع وهو الفرج. (يمسها) يجامعها. (نجابة الولد): أي ليكون نفيسا في نوعه وكانوا يطلبون ذلك من أشرافهم ورؤسائهم وأكابرهم جهلا منهم وضلالا. (الرهط) ما دون العشرة من الرجال. (يصيبها) يجامعها. (البغايا) جمع بغي وهي الزانية. (رايات) جمع راية وهي شيء يرفع ليلفت النظر. (علما) علامة. (القافة) جمع قائف وهو الذي ينظر في الملامح ويلحق الولد بمن يرى أنه والده. (فالتاط به) فالتحق به والتصق. (هدم) أبطل]

في هـذا العصـر وحسـبك بالشاشـات والأنترنـت تـرى عظـيم الفتنـة التي لا عاصـم لها إلا من عصمه الله من عباده المخلصين.

وبعـد هـذا الطـرح المختصـر لأصـول الجاهليـة نصـل إلى تصـور حقيقـة الوضـع الجـاهلي والتركيبـة التي يقـوم عليهـا، وبـين التأصيل والتنزيل على واقـع المجتمعـات اليـوم لا يبقـى للمنصـف أدنـى ريـب أو تـردد أن هـذه المجتمعـات يتحقق فيها اسم الجاهلية ووصفها الوارد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



الفَصْلُ الثَّالِثُ

بين مجتمعات الجاهلية ودعوة الإسلام

إنها أوضاع الجاهلية: أوثانٌ ومشاهد وقبورٌ ومعابد تُقصَدُ بالعبادة والتعظيم ويُصرَفُ لها ما اختص الله به من صنوف العبادات كالدعاء والذبح والنذر وغيرها ويُعتقد فيها النفع والضر والزلفى والشفاعة ... والمشركون لهم أعياد ومواسم وقُربان وشعائر ظاهرين في الأرض من غير نكير ولا نذير ولا براءة ولا تكفير ... إنه المجتمع الجاهلي، فالإسلام يهدم جميع الآلهة الباطلة من القلوب والوجود كما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: ﴿دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا، فَجَعَلَ يَطْعَنُ بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: ﴿ وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81] و ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: 49]﴾[1] ... نعم فالباطل زهوقٌ بكيانه ومظاهره في المجتمع الإسلامي وقائم بكيانه ومشاهده وعقائده في المجتمع الجاهلي، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الأنفال٣٩]، عن مجاهد: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة"، قال: **"يَسَاف" و"نائلة"، صنمان كانا يُعبدان»**[2].

إنها أوضاع الجاهلية: فلما يكون في الأرض بعض الخلق أربابٌ يزاولون حق الربوبية من الحاكمية والتشريع، والآخرون عبيد منقادون لهؤلاء الأرباب،

---

[1] رواه النسائي في الكبرى برقم ١١٢٣٣

[2] رواه الطبري برقم ١٦٠٨٥

والأمر قائم على أحقية المداولة في الربوبية والعبودية بين أفراد المجتمع ... يكون بذلك مجتمعاً جاهلياً، إذ المسلمون قائمون بأمر الله منقادون لحكمه يتحاكمون لشرعه في جميع الأمور والأحوال قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور ٥١].

إنها أوضاع الجاهلية: ولما يكون في الأرض أسماءٌ وعلائق وروابطٌ وسوابق يقوم عليها الولاء ويُعقد فيها البراء، كالقوم أو اللون أو العرق أو العشيرة أو الوطن وغيرها، فإن المجتمع يصير إلى أشياعٍ وأحزابٍ جاهلية كما قال تعالى في توصيف ما صار إليه أهل الكتاب: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون ٥٣]، فالمجتمع حينما يجتمع على هذه الأواصر والروابط فهو مجتمع جاهلي، إذْ المجتمع الإسلامي يقوم على الولاء لله ورسوله ﷺ والمؤمنين والبراءة من المشركين والكافرين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة ٥٦].

إنها أوضاع الجاهلية: ولما يكون في الأرض قِيَم ومَوازين وعادات وتقاليد مستمدة من أهواء الذين لا يعلمون، تَحْرِفُ البشرية إلى البهيمية وتنتكس بها الفطر السوية فحينئذٍ يكون المجتمع جاهلياً ... فالمجتمع الإسلامي يتلقى القِيم والموازين من عند الله تعالى وتُضبَطُ فيه العادات والتقاليد على ضوء شرع الله.

هذه هي الجاهلية التي جاء الإسلام لهدم أوضاعها وأرسل اللهُ الرسل لإخراج الناس من ظلماتها وجورها إلى نور التوحيد وعدل الإسلام، كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم ملك الفرس:« لقد ابتعثنا الله لإخراج الناس من

عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخر»[١].

المطلب الأول: حقيقة دعوة الإسلام للمجتمعات الجاهلية

لقد جاء الإسلام لإقامة المجتمع على الاستسلام لله في جميع الأمور والأحوال والتلقي عن الله في الأصول الأربعة، **فالإسلام يدعوا هذه المجتمعات** إلى توحيد الألوهية بإفراد الله تعالى بالعبادة والشعائر وخلع الأنداد والآلهة الباطلة والبراءة منها ومن عابديها قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة ١١]، قال مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ: «فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَمْ تَقْتُلْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ»[٢].

والإسلام يدعوا هذه المجتمعات: إلى توحيد الربوبية بإفراد الله بالحكم والتشريع وإقامة دين الله في الأرض بسيادة الشريعة الربانية فيها، وهي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها العبيد من ربقة العبودية للعبيد إلى العبودية لرب العبيد.

ولا يخرج الجاهلي من دينه الوضعي إلا باعتقاد أن الحكم حقٌ لله وحده كما أن العبادة هي حقٌ لله وحده، ويُفرد الله بالتلقي والاتباع في الشرائع والأوضاع، والتحاكم إلى شرعه حال الخصومة والنزاع، ويخلع جميع الطواغيت والآلهة والأرباب والأنداد، ويتبرأ منها ومن عابديها كالمتابعين لنظامها والمتحاكمين لشرعها والخاضعين المنقادين لسلطانها واعتقاد أنهم على دين باطل.

[١] البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٤٦)

[٢] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره ٩٢٧٣

والإسلام يدعوا هذه المجتمعات: إلى التجمع على رابطة الدين والعقيدة والولاء لله ولرسوله والمؤمنين والبراءة من المشركين قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة ٤]، **قال الطبري**: "فقوله: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، يقول: حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت: **أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد**"[١].

ولا يخرج الجاهلي من دينه الوضعي إلا بتحقيق الأسوة الحسنة وهي الاقتداء بإبراهيم والأنبياء معه عليهم السلام كما قال ابن زيد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ **قال: الذين معه الأنبياء**"[٢]، وذلك بالبراءة من قومه والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم وخلع الروابط الجاهلية كالوطنية والقومية والبعثية والعشائرية والكفر بها، وقطع الولاء والمودة لمن حاد الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة ٢٢].

والإسلام يدعوا هذه المجتمعات: إلى استمداد القيم والموازين من الشرع لا من الهوى، فالمسلمون إذا خَلَصَت نُفوسهم لله وذلت واستسلمت

---

[١] تفسير الطبري ٣١٧/٢٣

[٢] تفسير الطبري ٣١٧/٢٣

لـه بالتوحيـد وأفردتـه بالإتّبـاع والتلقـي والانقيـاد، أصـبحوا لا يجـدون في نفوسـهم خِيَـرَة إلا مـا يختـاره اللـه لهـم، وحينئـذٍ يرتفعـون عـن رذائـل الجاهليـة ويـأتمرون بـأوامر اللـه لمـا يخـاطبهم بنـداء الإيمـان، فيُطَـاع اللـه في أمـره ونهيـه لتَحَقُّـقِ كمـال الاستسـلام والحـب للـه تعـالى في القلـوب ... ويخـرج الجـاهلي مـن دينـه الوضـعي لمـا يحقـق توحيـد المتابعـة للـه تعـالى في شـرعه ودينـه ويخلـع ربقـة الأهـواء الرديئـة واتبـاع القـيم والمـوازين الوضـيعة، قـال تعـالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية١٨].

هـذه هـي الـدعوة التي جـاء بهـا الرسـل والرسـالة التي حملهـا الأنبيـاء إلى الجاهليـة وأقوامهـا لإخـراجهم مـن الظلمـات إلى النـور، وبهـا يُفـرق المسـلم بـين الأقـوام والمجتمعـات والـديار عنـد النظـر في أوضـاعها ومعالمهـا ليتبـين لـه حالهـا، فيكـون على بينـة مـن أمـر دينـه ويتعبـد ربـه على هدايـة وبصـيرة مـن حـال قومـه، كمـا قـال الفتيـة الـذين آمنـوا بـربهم وزادهـم اللـه هدايـة: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ [الكهف ١٦].

وبعـد هـذا القـدر مـن التأصـيل نجـد أنفسـنا أمـام حتميـة الجـواب على السـؤال الـذي يفـرض نفسـه على ذهـن القـارئ: مـا هـو حـد الإسـلام الـذي جـاء بـه الرسـل لإخـراج النـاس مـن الجاهليـة إلى الإسـلام؟ ومـا هـو القـدر الـذي يحققـه الجـاهلي في هـذه المجتمعـات ليخـرج مـن هـذه الأديـان الوضـعية ويقطـع ربقـة الجاهليـة ويفـرد اللـه بالطاعـة والحاكميـة ويحقـق ديـن الإسـلام ويستضـيء بنـور التوحيد والإيمان؟

الإسـلام: الاستسـلام للـه بالتوحيـد والانقيـاد لـه بالطاعـة والاتبـاع والبراءة من الشرك والأقوام المشركة.

وهـذا الحـد يقـوم على ثلاثـة أركـان مـن لـم يـأت بهـا جميعـاً لا يسـمى مسـلماً، كمـا أنهـا إذا لـم تقـم في الأرض بمجموعهـا لا يسـمى القـوم بالمسـلمين، وإذا ارتفـع

الإسلام حلت الجاهلية في أشكالها وصورها وأوضاعها التي سبق الحديث عنها، وبعد هذا الإجمال سنعقد باباً نُفصِّلُ فيه حَدَ الإسلام واللهُ الهادي من اتبع رضوانه سبل السلام.



الباب الثاني

حدّ الإسلام

الفصل الأول:

الاستسلام لله بالتوحيد

إنَّ الإسلامَ يقومُ على قاعدة **الاستسلام لله بالعبودية والطاعة** ودلت على ذلك أدلة كثيرة في كتاب الله:

❁ قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران ٨٥]، قال الطبري:" ويعني بقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ ونحن له **منقادون بالطاعة، متذللون بالعبودة، مقرّون لهُ بالألوهة والربوبية، و أنه لا إله غيره**"[١].

❁ وقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ ﴾[البقرة ١٣١]، أي: "أذعن أو **أطع أو أخلص** دينك لله ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: أخلصت أو انقدت"[٢].

❁ وقوله تعالى:﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾[النمل ٣١]، قال ابن زيد في قوله: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾[النمل ٣١]، يقول: «**و أقبلوا إليّ مذعنين لله بالوحدانية والطاعة**»[٣].

[١] تفسير الطبري ٥٧٠/٦

[٢] مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٣١/١

[٣] تفسير الطبري ٤٥٣/١٩

❁ وقال تعالى: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام ٧٢]، قال الطبري:" وأمَرَنا ربُنا وربّ كل شيء تعالى وجهه، لنسلم له، **لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية**، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة"[١].

❁ وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[هود١٤]، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:« **الاسْتِجَابَةُ الطَّاعَةُ**»[٢]، وقال الطبري:"﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، يقول: **فهل أنتم مذعنون لله بالطاعة، ومخلصون له العبادة**، بعد ثبوت الحجة عليكم؟"[٣].

❁ وقال تعالى:﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام١٤]، قال السمعاني:" يَعْنِي: من هَذِه الْأمة، **وَالْإِسْلَام يَعْنِي الاستسلام لأمر الله** تَعَالَى ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وَهُوَ وَإِن كَانَ مَعْصُوما"[٤].

❁ وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾: قال ابن كثير:" أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم ﴿ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾[النساء١٥٢]: أطيعوا الله ورسله واتبعوه فيما شرع لكم" [٥].

❁ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[البقرة٢٠٨]، قال ابن عباس:« **السِّلْمُ: الطَّاعَةُ** »، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، نَحْوُ ذَلِكَ"[٦]، عن عكرمة قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾، قال: «نزلت في ثعلبة، وعبد الله بن سلام وابن يامين وأسد وأسَيْد ابني كعب وسَعْيَة بن عمرو وقيس بن زيد- كلهم من يهود- قالوا: يا رسول الله، يوم السبت يومٌ كنا نعظمه، فدعنا فلنُسبِت فيه! وإن التوراة كتاب الله، فدعنا فلنقم بها بالليل! فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ »، قال الطبري: "فقد صرح عكرمة بمعنى ما قلنا في ذلك من أن تأويل ذلك دعاء للمؤمنين إلى

---

[١] تفسير الطبري ٤٥٦/١١

[٢] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠٧٣٢

[٣] تفسير الطبري ٣٦١/١٥

[٤] تفسير السمعاني ٩٢/٢

[٥] تفسير ابن كثير٢٣٨/٧

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير برقم ١٩٤٦

رَفض جميع المعاني التي ليست من حكم الإسلام، والعمل بجميع شرائع الإسلام، والنهي عن تضييع شيء من حدوده"[١].

وقال الطبري:" وأصل "الإسلام": الاستسلام، لأنه "من استسلمت لأمره"، وهو الخضوع لأمره، وإنما سُمي "المسلم" **مسلماً بخضوع جوارحه لطاعة ربه**"[٢].

وقال البغوي:" **وَالْإِسْلَامُ: هُوَ الدُّخُولُ فِي السِّلْمِ، وَهُوَ الِانْقِيَادُ وَالطَّاعَةُ**، يُقَالُ: أَسْلَمَ، أَيْ: دَخَلَ فِي السِّلْمِ، وَاسْتَسْلَمَ"[٣]، وقال:" فالإسلام هو الدخول إلى السِّلْمِ وَهُوَ الِانْقِيَادُ وَالطَّاعَةُ، يُقَالُ: أَسْلَمَ الرَّجُلُ إِذَا دَخَلَ فِي السِّلْمِ كَمَا يُقَالُ: أَشْتَى الرَّجُلُ إِذَا دَخَلَ فِي الشِّتَاءِ، وَأَصَافَ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّيْفِ، وَأَرْبَعَ إِذَا دَخَلَ فِي الرَّبِيعِ، فَمِنَ الإسلام ما هو في طَاعَةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِاللِّسَانِ، وَالْأَبْدَانِ وَالْجَنَانِ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَمِنْهُ مَا هُوَ انْقِيَادٌ بِاللِّسَانِ دُونَ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[الحجرات ١٤]، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا سِرًّا وَعَلَانِيَةً"[٤].

وقال محمَّدُ بنُ نصرٍ المَرْوَزي : "فَأَصْلُ الْإِيمَانِ هُوَ التَّصْدِيقُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ وَإِيَّاهُ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ :الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَعَنْهُ يَكُونُ الْخُضُوعُ لِلَّهِ **لِأَنَّهُ إِذَا صَدَّقَ بِاللَّهِ خَضَعَ لَهُ، وَإِذَا خَضَعَ أَطَاعَ فَالْخُضُوعُ عَنِ التَّصْدِيقِ، وَهُوَ أَصْلُ الْإِسْلَامِ** وَمَعْنَى التَّصْدِيقِ هُوَ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ، وَالِاعْتِرَافُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، وَوَاجِبِ حَقِّهِ، وَتَحْقِيقِ مَا صَدَّقَ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ"[٥].

والاستسلام لله عز وجل في توحيده شامل لأنواع التوحيد، كالألوهية والربوبية والأسماء والصفات والمتابعة، وقد أشار إلى بعضها ابن بطة فقال: " ... وَذَلِكَ أَنَّ أَصْلَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ اعْتِقَادُهُ فِي إِثْبَاتِ الْإِيمَانِ بِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: أَحَدُهَا: أَنْ يَعْتَقِدَ الْعَبْدُ آنِيَّتَهُ لِيَكُونَ بِذَلِكَ مُبَايِنًا لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الَّذِينَ لَا يُثْبِتُونَ صَانِعًا. الثَّانِي: أَنْ يَعْتَقِدَ وَحْدَانِيَّتَهُ، لِيَكُونَ مُبَايِنًا بِذَلِكَ مَذَاهِبَ أَهْلِ الشِّرْكِ الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالصَّانِعِ وَأَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَهُ. وَالثَّالِثُ: أَنْ يَعْتَقِدَهُ مَوْصُوفًا بِالصِّفَاتِ الَّتِي لَا

[١] تفسير الطبري ٢٥٦/٤

[٢] تفسير الطبري ٥١٠/٢

[٣] تفسير البغوي ٤٢١/١

[٤] نفس المرجع

[٥] تعظيم قَدْر الصَّلاة للمَرْوَزي (٦٩٥ - ٧٠٦ : ٢) .

يَجُوزُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفًا بِهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَسَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ"[١].

المطلب الأول: تفسير التوحيد وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾.

إنَّ التوحيد لا يقوم إلا على ركنيه النفي والإثبات، والنفي يقوم على البراءة، والإثبات يقوم على إفراد الله بالعبودية والطاعة، دل عليه مجمل الآيات المفسرة للتوحيد، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل ٣٦]، فقوله: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: أفردوا الله بخصائصه في الربوبية والألوهية وأسمائه الحسنى وصفاته العُلى والمتابعة، وقوله: ﴿ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ أي: جانبوه بالبراءة من الآلهة الباطلة وعابديها وذلك ببُغضهم وعَداوتهم وتكفيرهم، ومتى كان الخلل في النفي أو الإثبات أي الإفراد أو البراءة كان الخلل في التوحيد.

وصيغة التوحيد جاءت في القرآن في أقوي صيغ الحصر والقصر الدالة على ركنية النفي والإثبات، كقوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف ٥٩]،فتضمنت هذه الآية الأمر بالعبودية لله ونفي أحقية الآلهة الباطلة للعبادة، وكما في قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ [هود ٢]، فقد جاء فيها التنصيص على مفهوم الآية السابقة بالنهي عن العبودية لغير الله تعالى، وهذا التنويع جاء للتأكيد على هذه الحقيقة العظيمة بين النفي والإثبات، والتنصيص على المفهوم والمنطوق لتجلية المعنى العظيم الذي قامت عليه دعوةُ الرسل: من خلع الآلهة الباطلة والبراءة من الأقوام الكافرة وإفراد الله بخصائصه، حتى لا يبقى بعد هذا البيان حجة للناس بين يدي الواحد الديان.

وإن ظاهر القرآن في مواضع عدة جاء بالتنصيص على إفراد الله بالعبودية في سياق دعوة الرسل أقوامهم إلى الإسلام كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾، والدعوة إلى إفراد الله بالعبودية تشمل إفراده بالألوهية

[١] الإبانة الكبرى ٦م١٤٩

والربوبيـة والطاعـة و الحاكميـة والاتبـاع، وتفسـير العبوديـة بالخضـوع والـذل والاتبـاع والانقيـاد يشـمل مـا ذكرنـا، والدلالـة عليـه نصيـة لتفسـير النبي ﷺ للعبوديـة بالطاعـة والاتبـاع في التحليـل والتحـريم، خلافـاً لمـن يقصـر العبوديـة على التوجـه للـه بالـدعاء والشعائر وإن كان داخلاً فيه حتماً وليس هذا محل نزاع.

الأدلـة على أن دعـوة الرسـل قائمـة على إفـراد اللـه بالعبـادة والطاعـة والاتباع:

وقـد جـاء في سـياقات النصـوص التي دلـت على حقيقـة دعـوة الرسـل أقـوامهم إلى الإسـلام التصـريح بـإفراد اللـه بالطاعـة والاتبـاع كإفراده بالعبـادة، وكـذا النصـوص التي فسـر فيهـا السلف للعبودية بالطاعة والاتباع:

❁ قولـــه تعـــالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء١٠٨] وقولـه تعـالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء١٢٦] وقولـه تعـالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء١٤٤] وقـال تعـالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الزخرف٦٣] قـال البغـوي :" فَـاتَّقُوا اللَّـهَ، **بِطَاعَتِـهِ وَعِبَادَتِـهِ**، وَأَطِيعُـونِ، فِيمَـا آمُـرُكُمْ بِـهِ مِـنَ الإيمـان والتوحيـد"[١]، وقـال السـمعاني:" أَي: اتَّقـوا اللـه بتـرك الشّـرك، وأطيعون فِيمَا آمركُم بِهِ"[٢].

❁ وقولـه تعـالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[النساء٦٤] ، قـال الطبـري :" يقـول لهـم تعـالى ذكـره: **مـا أرسـلتُ رسـولا إلا فرضـت طاعتـه علـى مـن أرسـلته إليـه**، فمحمـد ﷺ مـن أولئـك الرسـل، **فمـن تـرك طاعتـه والرِّضـى بحكمـه واحـتكم إلـى الطاغوت**، فقد خالف أمري، وضيَّع فرضي"[٣].

❁ وقولـــه تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[البقرة ٣١] قـال الطبـري:" أي: بالاسـتكانة، **والخضـوع لـه بالطاعـة، و إفـراد الربوبيـة لـه**

[١] تفسير البغوي ٤٧٣/٣
[٢] تفسير السمعاني ٥٧/٤
[٣] تفسير الطبري ٥١٦/٨

والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة، لأنه جلّ ذكره هو خالقهم وخالقُ مَنْ قبلهم من آبائهم وأجدادهم، وخالقُ أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم، فقال لهم جل ذكره: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادَكم وسائرَ الخلق غيرَكم، وهو يقدرُ على ضرّكم ونَفعكم أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نَفع ولا ضرّ ، **وكان ابن عباس: فيما رُوي لنا عنه، يقول في ذلك نظيرَما قلنا فيه**، غير أنه ذُكر عنه أنه كان يقول في معنى ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ : وحّدوا ربكم. وقد دللنا ـ فيما مضى من كتابنا هذا ـ على أن **معنى العبادة: الخضوعُ لله بالطاعة والتذلل له بالاستكانة**، والذي أراد ابن عباس ـ إن شاء الله ـ بقوله في تأويل قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ **وحّدوه، أي أفردُوا الطاعة والعبادة** لربكم دون سائر خلقه"[1].

❁وقوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وقال أبو منصور في معناه: "**إياك نطيع الطاعة** التي نخضع معها لك"[2].

❁وقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[الأنفال٣٩] "يقول: **حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة** دون غيره"[3]. وقال الواحدي:﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾أي شرك **يعني قاتلوهم حتى يسلموا** وليس يقبل من المشرك الوثني جزية ويكون الدين **أي: الطاعة والعبادة لله وحده فلا يعبد دونه شيء**"[4].

❁وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[الحج٨]، قال الطبري: "يقول تعالى ذكره ومن الناس من يخاصم في توحيد الله **وإخلاص الطاعة والعبادة له** ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾عنده بما يخاصم ﴿ وَلَا هُدٗى﴾يقول ولا بيان يبين به صحة ما يقول ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ يقول ولا بتنزيل من الله جاء بما يدعى يبين حقية دعواه"[5].

[1] تفسير الطبري ٣٦٣/١

[2] الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي

[3] تفسير الطبري ٢٤٨/٩.

[4] الوجيز ١٥٥/١.

[5] تفسير الطبري ٧٩/٢١.

❁ وقـــال تعـــالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقـــرة ١٦٣] عَـــنْ ابْـــنِ عَبَّـاسٍ: لَا إِلَـهَ إِلا اللَّـهُ قَـالَ: تَوْحِيـدٌ."[١] قَـالَ مُحَمَّـدُ بْـنُ إِسْـحَاقَ لَا إِلَـهَ إِلا اللَّـهُ أَيْ:« **لَـيْسَ مَعَهُ غَيْرُهُ شَرِيكًا فِي أَمْرِهِ**»[٢] فجاء تفسير التوحيد بإفراد الله عز وجل بالأمر.

❁ وقولـــه تعـــالى: ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[غـافر١٤] قـــال البغـــوي:" فَادْعُوا اللَّهَ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ: الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ**. وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ"[٣].

❁ وقَوْلِـــهِ تعـــالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قـــال أَبـــو الْبُخْتُـــرِيِّ: «أَطَـاعُوهُمْ فِيمَـا أَمَـرُوهُمْ بِـهِ مِـنْ حَـرَامِ اللَّـهِ وَحَلَالِـهِ **فَجَعَـلَ اللَّـهُ طَـاعَتَهُمْ لَهُـمْ عِبَـادَةً**»[٤]، وَهَكَـذَا قَـالَ حُذَيْفَـةُ بْـنُ الْيَمَـانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَبْـدُ اللَّـهِ بْـنُ عَبَّـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَغَيْرُهُمَـا فِي تَفْسِـيرِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إِنَّهُمُ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا»"[٥].

❁ ومـن السـنة مـا ورَوَى الْإِمَـامُ أَحْمَـدُ، وَالتِّرْمِـذِيُّ، وَابْـنُ جَرِيـرٍ وغيـرهم مِـنْ طُـرُقٍ، عَـنْ عَـدِيِّ بْـنِ حَـاتِمٍ، رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، أَنَّـهُ لَمَّا بَلَغَتْـهُ دَعْـوَةُ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ فـرَّ إِلَى الشَّـامِ، وَكَانَ قَـدْ تَنَصَّـرَ فِي الْجَاهِلِيَّـةِ، فَأُسِـرَتْ أُخْتُـهُ وَجَمَاعَـةٌ مِـنْ قَوْمِـهِ، ثـمَّ مـنَّ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ عَلَى أُخْتِـهِ وَأَعْطَاهَـا، فَرَجَعَـتْ إِلَى أَخِيهَـا، ورَغَّبته فِي الْإِسْـلَامِ وَفِي الْقُـدُومِ عَلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ، فَقَـدِمَ عَـدِيّ الْمَدِينَـةَ، وَكَـانَ رَئِيسًـا فِي قَوْمِـهِ طَيِّئٍ، وَأَبُـوهُ حَـاتِمٌ الطَّـائِيُّ الْمَشْـهُورُ بِـالْكَرَمِ، فتحـدَّث النَّـاسُ بِقُدُومِـهِ، فَـدَخَلَ عَلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ وَفِي عُنُـقِ عَـدِيّ صَـلِيبٌ مِـنْ فِضَّـةٍ، فَقَـرَأَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ هَـذِهِ الْآيَـةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبـة ٣١]، قَـالَ: فَقُلْـتُ: إِنَّهُـمْ لَـمْ يَعْبُـدُوهُمْ. فَقَـالَ: « بلَى، إِنَّهُـمْ حَرَّمُـوا عَلَـيْهِمُ الْحَـلَالَ، وَأَحَلُّـوا لَهُـمُ الْحَرَامَ، **فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ**»"[٦].

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠١٧٣
[٢] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠١١٧٤
[٣] معالم التنزيل ٩٤/٤
[٤] تفسير مجاهد ٣٦٧
[٥] تفسير بن كثير ١٣٥/٣
[٦] سنن الترمذي برقم ٣٠٩٥وتفسير الطبري ٢٠٩/١٤ ورواه أحمد برقم وقال ابن تيمية حديث حسن.

وهـذه النصـوص تُفَسِـر بجـلاء ووضـوح لفـظ:" العبوديـة للـه"، بدلالـة نصـية قطعيـة على شـموله لإفـراد اللـه بـالحكم والتشـريع والاتّبـاع لـه في التحليـل والتحـريم، فقولـه :﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ أي: أفـــردوا اللــــه بالعبـــادة والاتّبـــاع والتلقـــي والحكـــم والانقيـاد والحـب والخضـوع والتوجـه وهي معـاني لغويـة[١] وشـرعية، ولهـذا قـال تعـالى بعـد قولـــــــــــه ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا ﴾ "أي: الـذي إذا حـرم الشـيء فهـو الحـرام، ومـا حللـه فهـو الحـلال، ومـا شـرعه اتّبـع، ومـا حكـم بـه نفـذ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، أي تعـالى وتقـدس وتنـزه عـن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه"[٢].

وقَصرُ لفـظ "العبوديـة للـه" على مـا كـان يصـرفه الوثنيـون للأصـنام مـن دعـاء واسـتغاثة وذبـح ونـذر وغيرهـا، ودعـوى أن مـن أفـرد اللـه بهـذا القـدر فقـد حقـق التوحيـد وأفـرد اللـه بالعبوديــة التـي أُرسـل بهـا الرسـل، ولا يضـر توحيـده أن يتبـع شـرائع ومنـاهج وضـعية ويتحـاكم إلى طواغيـت وأربـاب أرضـية فقـد ضـل سـواء السـبيل وأعظـم على اللـه الفريـة، ولـم يَـدْعُ إلى الإسـلام الـذي جـاء بـه الرسـل، بـل قـد حَـرَّفَ ديـن اللـه تعـالى وصـحح ديـن المشـركين وأمـر بعبـادة غيـر اللـه وشَـرَع عبـادة الطواغيـت، قـال تعـالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾[يونس ٧٠].

[١] قال أبو منصور:" **وَمعنى الْعِبَادَة فِي اللُّغَة: الطَّاعَة مَعَ الخضوع**. وَيُقَال طريقٌ مُعَبَّدٌ إِذا كَانَ مذلَّلاً بِكَثْرَة الْوَطْء، وبعيرٌ مُعَبَّد إِذا كَانَ مَطْلِيًّا بالقَطِران" تهذيب اللغة ٢/١٣٨

وقال البغوي:" وَمَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ: **التَّذَلُّلُ وَالِانْقِيَادُ**، فَكُلُّ مَخْلُوقٌ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ خَاضِعٌ لِقَضَاءِ اللَّهِ، ومتذلل لِمَشِيئَتِهِ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ خروجا عما خلق عليه قدر ذرة من نفع ضرر". تفسير البغوي ٤/٢٨٨.

وقال الثعلبي:" والعبادة رياضـة النفس على حمل المشـاق في الطاعة، وأصـلها الخضـوع والانقياد والطاعة والذلة، يقال: طريق معبّد إذا كان مذللا موطوء بالأقدام، قال طرفة:

تبـارى عـتـاقـا نـاجـيـات وأتـبـعـت ... وظـيـفـا وظـيـفـا فـوق مـور مـعـبّـد

وبعير معبد إذا كان مطليا بالقطران، قال طرفة:

إلـى أن تـحـامـتـنـي الـعـشـيـرة كـلّـهـا ... وأفـردت إفـراد الـبـعـيـر الـمـعـبّـد

وسمّي العبد عبدا لذلّته وانقياده لمولاه". الكشف والبيان عن تفسير القرآن ١/١١٨

[٢] تفسير بن كثير ج٢ ص ٣٤٩.

وقد صحح النبيّ ﷺ لعدي مفهوم "اتخاذ الأرباب" في أنه ليس محصور بالسجود والركوع لهم أو دعائهم من دون الله، وبيَّن له أن معنى العبودية أعم وهي طاعتهم في التحليل والتحريم والتشريع، وكان هذا من شرك أهل الكتاب باتخاذهم الأرباب في التشريع والحاكمية والاتباع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة ١٧٠] عن ابن عَبَّاسٍ، قَالَ: « دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْيَهُودَ إِلَى الإِسْلامِ، فَرَغَّبَهُمْ فِيهِ، وَحَذَّرَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَنِقْمَتَهُ، فَقَالَ لَهُ رَافِعُ بْنُ خَارِجَةَ وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ **بَلْ نَتَّبِعُ يَا مُحَمَّدُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** فَهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ وَخَيْرًا مِنَّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الآيَةَ»[١] ومثله قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف ٣]، قال البغوي: أَيْ:" لَا تَتَّخِذُوا غَيْرَهُ أَوْلِيَاءَ تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى"[٢]، إنهم الأولياء الذين تُصرف لهم الطاعة من دون الله، وغيرهم الأولياء الذين تصرف لهم العبادة من دون الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر٣] ، فهناك في الطاعة والاتباع وهنا في صرف العبادة والدعاء، والأولياء هم الأولياء، فلا فرق بين شرك العبادة وشرك الاتباع، ولا فرق بين شرك الطاعة وشرك الدعاء.

وهذا يدل على أن شرك العالم يقوم على أصلين: ١- الشرك في العبادة ٢- والشرك في الحكم والتشريع والطاعة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل ٣٥]

فمقالة الذين أشركوا في الاحتجاج بالقدر على أمرين:

الأول : ﴿ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ ﴾ ، وهي عبادة غير الله.

---

[١] تفسير ابن أبي حاتم ٢٨١/١

[٢] معالم التنزيل في تفسير القرآن ٢١٣/٣

والثاني: ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ ، وهي التشريع من دون الله.

وهما أصلا شرك العالم، ثم أخبر الله تعالى في نفس السياق أنه أقام الحجة على الخلق في الأصلين وأرسل في كل أمة رسولا ينهى عن هذا الشرك في العبادة والحكم: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾.



الفصل الثاني

تفصيل القول في أنواع التوحيد

المطلب الأول: الاستسلام لله بتوحيد الألوهية:

ويتحقق الاستسلام لله بتوحيد الألوهية بإفراد الله تعالى بجميع الأقوال والأعمال التي تصدر عن الخلق على جهة القربة والطاعة مع كمال الحب وكمال الخضوع والذل لله تعالى ومنها: الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والركوع والسجود والطواف والعكوف والذبح والتحاكم والنذر والاستغاثة والاستعانة وغيرها، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن ١٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام ١٦٣]، وغيرها من الأدلة الكثيرة في كتاب الله، ومن صرف شيئا من العبادة لغير الله كان مشركاً بالله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون ١١٧] ، وهذا من جهة الإثبات.

وأما من جهة النفي فإن الاستسلام لله بتوحيد الألوهية يقتضي البراءة من جميع الآلهة الباطلة والبراءة من عابديها وتكفيرهم وبغضهم وعداوتهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون]، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة ٤].

وأما باعتبار الأقوام والديار فإن استسلامهم لله بتوحيد الألوهية يقتضي منهم هدم القباب والمشاهد والقبور والمعابد التي اتخذها المشركون آلهة من دون الله ظاهرةً في أرض الله، وأن تقوم فيهم دعوة التوحيد مُستَعلِنَةٌ بالنهي عن الشرك بالله والأمر بإفراد

الله بالعبادة والبراءة من المشركين، وأن لا يقروا مشركاً على شركه بين أظهرهم كما سبق بيانه في الباب الأول.

المطلب الثاني: الاستسلام لله بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات

ويتحقق بإفراد الله تعالى بأفعاله كالخلق والملك والرزق والتدبير والإحياء والإماتة والنفع والضر والحكم والتشريع وغيرها، قال تعالى:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس ٣١]، وقال تعالى:﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة ٧٦]. ولقد كان مشركي قريش يؤمنون ببعض أفراد توحيد الربوبية في الجملة، قال تعالى:﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف ١٠٦]، قال ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:« تَسْأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ؟ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَيَقُولُونَ: اللَّهُ فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ»[١]. وعن سَالِم يَقُولُ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ **بَارِيًا أَوْ قَاضِيًا أَوْ رَازِقًا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا أَوْ نَفْعًا أَوْ مَوْتًا أَوْ حَيَاةً أَوْ نُشُورًا**، بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَخْرَسَ لِسَانَهُ، وَأَعْمَى بَصَرَهُ، وَجَعَلَ عَمَلَهُ هَبَاءً مَنْثُورًا، وَقَطَعَ بِهِ الْأَسْبَابَ، وَكَبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ»[٢].

ويقتضي توحيد الأسماء والصفات إفراد الله بما اختص به من الأسماء الحسنى والصفات العُلى من غير تحريف ولا تعطيل ولا إلحاد ولا تمثيل، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف ١٨٠]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾قَالَ:« وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْعَزِيزُ وَالْجَبَّارُ وَكُلُّ أَسْمَاءِ اللَّهِ حَسَنٌ»[٣].

واعتقاد أن صفاتَهُ بالغةٌ في الحسن كماله من جميع الوجوه، قال تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى ١١]، وإثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه وما

---

[١] تفسير ابن أبي حاتم رقم ١٢٠٣٤

[٢] رواه عبد الله في السنة برقم ٩٥٧

[٣] تفسير ابن أبي حاتم برقم ٨٥٨٢

أثبته له رسوله ﷺ في السنة الصحيحة، ونفي ما نفاه الله عزَّ وجل وما نفاه عنه رسوله ﷺ، قال الأوزاعي :« كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته جل وعلا»[١].

وقال ابن منده بعد ذكره لجملة من الأخبار في باب الأسماء والصفات: "وكذلك نقول فيما تقدم من هذه الأخبار في الصفات في كتابنا هذا نرويها من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف ولا قياس ولا تأويل على ما نقلها السلف الصادق عن الصحابة الطاهرة عن المصطفى ﷺ ونجهل من تكلم فيها إلا ببيان عن الرسول ﷺ أو خبر صحابي حضر التنزيل والبيان"[٢].

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: "إن الأخبار في صفات الله موافقة لكتاب الله تعالى، نقلها الخلف عن السلف: قرناً بعد قرن، من لدن الصحابة والتابعين إلى عصرنا هذا، على سبيل الصفات لله تعالى، والمعرفة والإيمان به، والتسليم لما أخبر الله تعالى في تنزيله، ونبيه الرسول ﷺ عن كتابه، مع اجتناب التأويل، والجحود، وترك التمثيل والتكييف"[٣]

وقال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني بعد سرده آيات وأحاديث الصفات:" فَهَذَا وَأَمْثَالُه مِمَّا صَحَّ نَقله عَن رَسُول الله ﷺ فَإِن مَذْهَبنَا فِيهِ وَمذهب السّلف إثباته وإِجراؤه عَلَى الظَّاهِر وَنفي الْكَيْفِيَّة والتشبيه عَنهُ، وَقد نفى قوم الصِّفَات فأبطلوا مَا أَثْبته اللَّه تَعَالَى، وتأولها قوم خلاف الظَّاهِر فَخَرجُوا من ذَلِك إِلَى ضرب من التعطيل والتشبيه، وَالْقَصْد إنما هُوَ سلوك الطَّرِيقَة المتوسطة بَين الْأَمريْنِ، لأَنَّ دين اللَّه تَعَالَى بَين الغالي والمقصر عَنهُ"[٤].

وأما من جهة النفي فيتحقق الاستسلام لله بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات بالبراءة من الملحدين في الربوبية كالفلاسفة والملاحدة، والمعطلة في الأسماء أو الصفات كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة، والمشبهة كالكرامية والمجسمة، قال عبد الله بن أحمد سَمِعْتُ أَبِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «لَا يُصَلَّى خَلْفَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ»[٥]،

[١] رواه البيهقي في ((الأسماء والصفات)) (ص: ٤٠٨)، وصححه ابن القيم في ((اجتماع الجيوش)) (ص: ٤٣)، وجود إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٠٦).

[٢] كتاب التوحيد ٣/٣٠٩

[٣] ذكره عنه ابن قدامة في ((ذم التأويل)) (ص: ١٨) برقم: ٢٠.

[٤] الحجة في بيان المحجة ٣١٢/١

[٥] السنة لعبد الله برقم ٨٣٣

وقال الخلال: أخبرني أبو النضر إسماعيل بن عبد اللّه بن ميمون العجلي، قال: سمعت أبا عبد اللّه يقول: «من قال: إن أسماء اللّه مخلوقة، وإن علم اللّه مخلوق؛ فهو كافر»"[1]، وقَالَ نعيم بن حَمَّاد شيخ البُخَارِيّ رحمه الله: « من شبه الله بخلقه فقد كفر، وَمن أنكر مَا وصف بِهِ نَفسه فقد كفر، وَلَيْسَ مَا وصف الله بِهِ نَفسه وَلَا رَسُوله تَشْبِيها»[2]، وقال عبد الله بن أحمد سَمِعْتُ أَبَا مَعْمَرٍ الْهُذَلِيُّ، يَقُولُ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَغْضَبُ وَلَا يَرْضَى - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ - فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ **إِنْ رَأَيْتُمُوهُ عَلَى بِئْرٍ وَاقِفًا فَأَلْقُوهُ فِيهَا بِهَذَا أَدِينُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ بِاللَّهِ تَعَالَى**»[3].

ويقتضي الاستسلام لله تعالى بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات إفراد الله بما اختص به من الحكم والتشريع، وذلك باعتقاد أن الحُكم لله وحده دون ما سواه وأنه هو أحكم الحاكمين، قال تعالى:﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾[غافر١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[يوسف:٤٠]، وهذا يفيد الحصر والقصر بمعنى أنه لا حكم إلا لله، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[هود٤٥]، واعتقاد أن الله هو المشرع وحده دونما سواه، قال تعالى:﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى ٢١] ، وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة٤٨]، وقال تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾[الشورى١٣]، ولا يكون المرءُ مُسلماً حتى يتلقى من الله الدين كله عقيدة وشرعة ومنهاجاً، قال تعالى:﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف٣]، وقال تعالى:﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام١٠٦].

والربوبية والحكم والولاية لله تعالى وحده دونما سواه، قال تعالى:﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الانعام١٦٤] وقال تعالى:﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

[1] رواه ابن بطة في الإبانة ٦٥/٢

[2] انْظُر: الْعُلُوّ للذهبي ص١٢٦ واجتماع الجيوش الإسلامية لِابْنِ الْقيم ص٨٦

[3] السنة لعبد الله برقم ٥٣٥

وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ ﴾[الأنعام:١١٤]، وفي مجموع الآيات دلالة على أنَّ الله أن هو الرب وهو الحاكم وهو الولي، ومن اتخذ حُكاماً من دون الله كمن اتخذ من دونه أرباباً، كمن اتخذ من دونه أولياء سواءً بسواء، ويظهر هذا جليا فيما قصه الله عن الجبابرة كفرعون الذي ادَّعى الربوبية:﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات ٢٤] وذكر تعالى في تعبيد قومه له بالطاعة والاتباع:﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾[الزخرف ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ ﴾[الأعراف١٢٣].

وإن كان الأمر بإفراد الله بالحاكمية والإتباع وإقامة شريعة الله يتوجه ابتداءً إلى المسلمين مجتمعين، فهو خطاب للأقوام لا إلى خصوص الأفراد، ولا يقوم الإسلامُ في الأرض بهذا الاعتبار إلا بالتَمكِينِ للمسلمين والاستخلاف لهم في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور ٥٥]، وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: " تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ الْأَرْضَ الْأَرْضَ **إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ**، أَلَا فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى فِقْهٍ كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ كَانَ ذَلِكَ هَلَاكًا لَهُ وَلِمَنِ اتَّبَعَهُ "[1].

فالمستسلمون لله بالتوحيد رابطة الاجتماع بينهم هي الإسلام، فهؤلاء إذا اجتمعوا في أرض الله حتماً سيحكمون بما أنزل الله ويتبعون ما شرع الله وينقادون لحكم الله، وهؤلاء الذين يتوجه إليهم الخطاب القرآني بإقامة الدين والحكم بالعدل وأداء الأمانات التي هي جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة كقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء

[1] أخرجه الدارمي برقم ٣٢٦

٥٩]، وقوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة ٥٠]، وغيرها من الخطابات الربانية، وهؤلاء المنقادون لحكم الله هم المسلمون ودارهم هي دار الإسلام ولا يكونوا كذلك حتى يحكموا بما أنزل الله ويسلِّموا كمال التسليم لحكم الله كما قال تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء ٦٥]، ولا يُتصور شرعاً أن يجتمع قومٌ في أرضٍ ما، ثم يُنصِّبوا أرباباً تحكمُهم بغير ما أنزل الله وتسوسهم بغير شريعة الله، ويرفعوا معالم الشرك ظاهرة في دارهم وصروحه قائمة في أرضهم ثم يتسمون بالمسلمين؟! أو يأتي من يسمي هؤلاء بالمسلمين ؟!، قال تعالى:﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:٨٠] ، فالمسلمون لا يتخذون الأرباب ولو كانوا الملائكة والنبيين فضلاً عن غيرهم من الأحبار والرهبان فضلاً عن غيرهم من أراذل القوم وأسافل الناس كحال البرلمانيين الذين اتخذهم الناس في هذا الزمان، فهذا لا يأمر به الله إذ هو الكفر، ولا يرضى لعباده الكفر، قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر٧]، ومن اعتقد أنَّ هؤلاء مسلمون ما عرف الإسلام ولا خالط بشاشة قلبه، قال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف:٤٠]، فالدين القيم هو الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم كما يتحقق فيه اختصاصه بالعبودية، فأيُ دينٍ بقيَ لقومٍ أشركوا بالله في العبادة والحاكمية كما سياتي بيانه في بابه.

المطلب الثالث: الاستسلام لله بتوحيد الاتباع

ويتحقق الاستسلام لله بتوحيد الاتباع بإفراد الله بالتلقي عنه وحده دونما سواه في الأصول الأربعة السابق ذكرها[١]، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف١]، أَيْ: لَا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ

[١] **الأصول الأربعة**:1_ العقائد والأخبار 2_والمناسك والشعائر 3_والشرائع و الأحكام 4_ونظام الملك ومنهج الحياة

الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ"[١]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف ١٥٧]، وقوله تعالى:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران٣٢]، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «فَإِنْ تَوَلَّوْا عَلَى كُفْرِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الكافرين»[٢]، فالتولي عن الطاعة والاتباع لله ورسوله ﷺ هو الكفر المراد به في الآية، وقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص ٥٠]،وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[الشورى٢١] "أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قصبه في النار لأنه أول من سيب السوائب وهو أحد ملوك خزاعة وهو أول من فعل هذه الأشياء وحمل قريشًا على عبادة الأصنام»"[٣].

ويقول الله عزَّ وجلَّ بعد ذكر إباحة نكاح العفائف من أهل الكتاب: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا

[١] تفسير ابن كثير ٢٩٥/١٢

[٢] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ٣٤٠٩

[٣] تفسير ابن كثير ١٩٨/٧

مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٍۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[النساء١٣١]، يريد بالإيمان: شرائع الإسلام، وبالكفر به: ترك الانقياد والامتناع عنه.

ومن الآثار:

❁ قال عكرمة: « لما نزلت: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾، قالت اليهود فنحن مسلمون، قال الله ﷻ فأخصمهم فحجهم يعني فقال لهم النبي ﷺ: « إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلًا»، فقالوا لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران٩٧]، ، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه»[١].

❁ وعن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر إلى النبيﷺ فقال يا رسول الله إني أمرت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ فقال عمر: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا قال: فسرى عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»، وفي رواية: «لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»، وفي أخرى: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا إتباعي»[٢].

❁ وعن قتادة قال: ذكر لنا أن ناسًا من المسلمين قالوا كيف نتزوج نساءهم يعني نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾. ويذكر تأويل الآية على ظاهرها وحقيقة ألفاظها من يأبى الإيمان بالله ويمتنع من توحيده والطاعة له فيما أمره به ونهاه عنه فقد حبط عمله"[٣].

[١] تفسير ابن كثير٢/٧٤
[٢] تفسير ابن كثير ٢/ ٨٤
[٣] تفسير الطبري ٩/ ٥٩٤

❁ وعَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:" قَالَ رَجُلٌ: الْمَسْحُ حَسَنٌ، وَمَا أَمْسَحُ أَوْ مَا تَطِيبُ نَفْسِي بِهِ فَقَالَ لَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: وَاللَّهِ مَا لَكَ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَكُونَ فِي نَفْسِكَ حَرَجٌ مِمَّا قَالَ وَتُسَلِّمَ تَسْلِيمًا "[١].

❁ وعن الرَّبِيعُ أَخْبَرَنَا الشَّافِعِيُّ قَالَ:" لم أسمع أَحَدًا يَنْسِبُهُ عَامَّةُ عِلْمِهِ أَوْ يَنْسِبُ نَفْسَهُ إِلَى عِلْمٍ يُخَالِفُ فِي أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ اتِّبَاعَ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّسْلِيمَ لِحُكْمِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ إِلَّا اتِّبَاعَهُ وَأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ قَوْلٌ بِكُلِّ حَالٍ إِلَّا بِكِتَابِ اللَّهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَنَّ مَا سِوَاهُمَا تَبَعٌ لَهُمَا"[٢].

ومن اتبع منهجاً وشِرعَةً غير ما شَرَعَهُ اللهُ لعباده فقد اتخذ الذي تلقى منه الشِرْعَةَ والمنهجَ رباً من دون الله، و قد اتبع أهواء الطواغيت وأراء الذين لا يعلمون قال تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الجاثية ١٨]، قال البغوي : ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ :﴿ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ ﴾سُنَّةٍ وَطَرِيقَةٍ بَعْدَ مُوسَى،﴿ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ ﴾ مِنَ الدِّينِ ﴿ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يَعْنِي مُرَادَ الْكَافِرِينَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: ارْجِعْ إِلَى دِينِ آبَائِكَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَلَ مِنْكَ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ:﴿ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا ﴾[٣] ، وعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رَفِيعٍ قَالَ سُئِلَ عَطَاءٌ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ لَا أَدْرِي قِيلَ لَهُ أَلا تَقول بِرَأْيِك فِيهَا قَالَ إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ يُدَانَ فِي الْأَرْضِ بِرَأْيِي"[٤].

وهؤلاء الخارجين من عبودية الله في الحكم والطاعة والاتباع، قد صاروا عبيداً للبشر تحكمهم أهواء البشر وتسوسهم أوضاعهم فهم مشركون بهذا الاتباع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾[الأنعام:١٢١]، ولا فرق بين من يسجد ويتضرع بالدعاء لقبر، ومن يتبع نظاماً وضعياً في النهي والأمر، قال تعالى:﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام ١٠٦] ، وهذه الآية عظيمة الدلالة على توحيد الاتّباع،﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ ففيها الأمر باتباع الوحي من الرب الواحد الأحد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ثم أتبعه بكلمة التوحيد للدلالة

---

[١] الفقيه والمتفقه ١/٣٧٩

[٢] جماع العلم ص ٣

[٣] تفسير البغوي ٤ /١٨٦

[٤] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٣٦٤

على أن إفراد الله بالاتباع هو التوحيد، كما قال ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما:﴿ قَوْلُهُ: لَا إِلَهَ إلا هُوَ: تَوْحِيدٌ﴾"[١]، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ "يقول: ودع عنك جدالهم وخصومتهم. ثم نسخ ذلك جل ثناؤه بقوله في براءة: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[التوبة ٥]"[٢].

وبعد هذا التأصيل والبيان تقرر بفضل الله الواحد الديان: أن من حقق الاستسلام لله في توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والاتباع على ما ذكرنا، وحقق البراءة من الآلهة والأرباب وعُبّادهم وكفر بهم وأبغضهم وعاداهم فقد حقق هذا الركن العظيم الذي لا يقوم عماد الإسلام في الفرد أو في الأرض إلا عليه، "فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، **فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته**، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده، **فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله عزَّوجلَّ ديناً غيره**"[٣].



[١] رواه ابن أبي حاتم في التفسير برقم ٧٧٥٧

[٢] تفسير الطبري ٣٢/١٢

[٣] مجموع الفتاوى لابن تيمية ٩١/٣

الباب الثالث

الانقياد لله بالطاعة والاتباع

الفصل الأول

منزلة الحاكمية في دين الله جل جلاله

ونقدم هنا بمقدمة لا غنى لنا عنها في هذا الباب، وذلك لبيان منزلة الحكم في دين الله عز وجل، والمتقرر في كتاب الله أنَّ الدين القيم يقوم على أصلين وهما: [_إفراد الله بالعبودية] _ إفراد الله بالحكم، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٠] ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَوْلُهُ: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ قَالَ: « أُسِّسَ الدِّينُ عَلَى الإِخْلاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ »[1]، وقال البغوي: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ ﴾ مَا الْقَضَاءُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ الْمُسْتَقِيمُ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

والقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير هذا الأصل العظيم وبيان أن الحكم والأمر لله وحده دونما سواه، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، « **لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ أَيْ: لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُهُ شَرِيكًا فِي**

[1] رواه ابن أبي حاتم برقم ١١٦٢١

[2] تفسير البغوي ٢٤٣/٤

أَمْـرِهِ﴾[1]، ففسـر التوحيـد بـإفراد اللـه عـز وجـل بـالأمر، ومـن النصـوص الدالـة على ذلك ما يلي:

❁ قولـــه تعـــالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعـام٥٧]، وفيـه النفـي والإثبـات الـذي فيـه دلالـة على إفـراد اللـه بـالحكم والبراءة مـن كـل حـاكم بغير شـرع اللـه، و" قَـرَأَ أَبُـو عَمْـرٍو يقـض الحـق، وقـال: لا يَكُـونُ الْفَصْـلُ إلا بَعْـدَ الْقَضَـاءِ."[2]، وقـال الطبري:" وقـرأ ذلـك جماعـة مـن قـراء الكوفـة والبصـرة: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾بالضـاد، مـن "القضـاء"، بمعنـى الحكـم والفصـل بالقَضَـاء، واعتبـروا صـحة ذلـك بقولـه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ **وأن "الفصـل" بـين المختلفـين إنمـا يكـون بالقضـاء لا بالقَصَـص، وهـذه القـراءة عنـدنا أولى القـراءتين بالصـواب**، لمـا ذكرنـا لأهلهـا مـن العلّـة"[3] ... ومثلـه قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[يوسف:٦٧].

❁ وَقَوْلِـــهِ تَعَـــالَى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾[غـافر:١٢]، قـال الطبـري:" يقـول: فالقضـاء للـه العلـي علـى كـل شـيء، الكبير الـذي كـل شـيء دونـه متصـاغرا لـه اليـوم"[4]، وقـال ابـن كثير:" **أَيْ: هُـوَ الْحَـاكِمُ فِي خَلْقِـهِ، الْعَـادِلُ الَّـذِي لَا يَجُـورُ**، فَيَهْـدِي مَـنْ يشـاء، ويضـل مـن يشاء، ويرحم من يشاء، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ."[5]

[1] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠١١٧٤

[2] رواه ابن أبي حاتم برقم ٧٣٦٢

[3] تفسير الطبري ٣٩٩/١١

[4] تفسير الطبري ٣٦٢/٢١

[5] تفسير بن كثير ١٣٤/٧

❁ وَقَوْلِــــهِ تَعَــــالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصـــص:٨٨]، وَقَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصـــص:٧٠]، قــال يحي ابــن ســلام:" قَــالَ: ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ الْقَضَاءُ."[١].

❁ وقــال تعــالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾[الأنعـام٦٢]، قــال الطبــري:" "ألا له الحكم"، يقول: **ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه**"[٢].

❁ وَقَوْلِـــــهِ تَعَــــالَى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[الأنعـــام:١١٤]، وقولــه تعــالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ ﴾[الرعـد٢٧]، قــال ابــن أبـي زمنـين يَعْنِي: الْقُـرْآنَ"[٣]، وقـال الواحـدي :" يعني: القـرآن لأنَّـه بـه يحكـم ويفصـل بـين الحقِّ والباطل وهو بلغة العرب"[٤].

❁ والنهي عـن الشـرك بالله في الحكـم والتحـاكم كـالنهي عـن الشـرك في العبـادة والــدعاء ســواءً بســواء، قــال تعــالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهـــف:٢٦] قـــال البغـــوي: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ، قَــرَأَ ابْــنُ عَــامِرٍ وَيَعْقُــوبُ: «وَلَا تُشْـرِكْ» بِالتَّـاءِ عَلَى الْمُخَاطَبَـةِ وَالنَّهْيِ، وَقَـرَأَ الْآخَـرُونَ اليـاء أَيْ لَا يُشْـرِكُ اللَّـهُ فِي حُكْمِــهِ أَحَــدًا"[٥]، وقـــال يحـي بـــن ســـلام:" ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ،وَهِـيَ تُقْـرَأُ بِالْيَـاءِ وَالتَّـاءِ، يَقُولُـونَ: وَلا تُشْـرِكْ يَـا مُحَمَّـدُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا، يَقُـولُ: **حَتَّى**

---

[١] تفسير ابن سلام ٢/٦١٤

[٢] تفسير الطبري ١١/٤١٣

[٣] تفسير ابن أبي زمنين ٢/٣٥٨

[٤] الوجيز للواحدي ١/٥٧٥

[٥] تفسير البغوي ٣/١٨٨

تَجْعَلَـهُ مَعَـهُ شَـرِيكًا فِي حُكْمِـهِ وَقَضَـائِهِ وَأُمُـورِهِ، وَمَـنْ قَرَأَهَـا بِالْيَـاءِ يَقُـولُ: وَلَا يُشْـرِكُ اللَّـهُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا"[1]، " وَلَا نَافِيَـةٌ وَالْمَعْنَى: وَلَا يُشْـرِكُ اللَّـهُ جَـلَّ وَعَـلَا أَحَدًا فِي حُكْمِـهِ، بَلِ الْحُكْـمُ لَـهُ وَحْـدَهُ جَـلَّ وَعَـلَا لَا حُكْـمَ لِغَيْرِهِ أَلْبَتَّـةَ، فَـالْحَلَالُ مَـا أَحَلَّـهُ تَعَـالَى، وَالْحَـرَامُ مَـا حَرَّمَـهُ، وَالـدِّينُ مَـا شَـرَعَهُ، وَالْقَضَـاءُ مَـا قَضَـاهُ، وَقَـرَأَهُ ابْـنُ عَـامِرٍ مِـنَ السَّـبْعَةِ ؛ «وَلَا تُشْـرِكْ» بِضَـمِّ التَّـاءِ الْمُثَنَّـاةِ الْفَوْقِيَّـةِ وَسُـكُونِ الْكَـافِ بِصِـيغَةِ النَّهْيِ، أَيْ: لَا تُشْـرِكْ يَـا نَبِيَّ اللَّـهِ، أَوْ لَا تُشْـرِكْ أَيُّهَـا الْمُخَاطَـبُ أَحَـدًا فِي حُكْـمِ اللَّـهِ جَـلَّ وَعَـلَا، بَـلْ أَخْلِـصِ الْحُكْـمَ لِلَّـهِ مِـنْ شَـوَائِبِ شِـرْكِ غَيْـرِهِ فِي الْحُكْـمِ، وَحُكْمُـهُ جَـلَّ وَعَـلَا الْمَـذْكُورُ فِي قَوْلِـهِ: وَلَا يُشْـرِكُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا شَـامِلٌ لِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ جَلَّ وَعَلَا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ التَّشْرِيعُ دُخُولًا أَوَّلِيًّا.

وَمَـا تَضَـمَّنَتْهُ هَـذِهِ الْآيَـةُ الْكَرِيمَـةُ مِـنْ كَـوْنِ الْحُكْـمِ لِلَّـهِ وَحْـدَهُ لَا شَـرِيكَ لَـهُ فِيـهِ عَلَـى كِلْتَـا الْقِـرَاءَتَيْنِ جَـاءَ مُبَيَّنًـا فِي آيَـاتٍ أُخَـرَ، كَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:67] الْآيَـةَ وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:10]، وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر:12]، وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القصص:88]، وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القصص:70]، وَقَوْلِـهِ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:50]، وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ

[1] تفسير بن سلام 180/1

أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام:١١٤]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٢٦]، **أَنَّ مُتَّبِعِي أَحْكَامِ الْمُشَرِّعِينَ غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ**، وَهَذَا الْمَفْهُومُ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ فِي مَنِ اتَّبَعَ تَشْرِيعَ الشَّيْطَانِ فِي إِبَاحَةِ الْمَيْتَةِ بِدَعْوَى أَنَّهَا ذَبِيحَةُ اللَّهِ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:١٢١]، فَصَرَّحَ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِطَاعَتِهِمْ، وَهَذَا الْإِشْرَاكُ فِي الطَّاعَةِ، وَاتِّبَاعِ التَّشْرِيعِ الْمُخَالِفِ لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُرَادُ بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس:٦٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [إبراهيم ٤٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء ١١٧]، أَيْ: مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا شَيْطَانًا، أَيْ: وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِ تَشْرِيعِهِ، وَلِذَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ يُطَاعُونَ فِيمَا زَيَّنُوا مِنَ الْمَعَاصِي شُرَكَاءَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الانعام ١٣٧]، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَاتَّبَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ اتِّخَاذُهُمْ إِيَّاهُمْ أَرْبَابًا.

وَمِنْ أَصْرَحِ الْأَدِلَّةِ فِي هَذَا: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فِي «سُورَةِ النِّسَاءِ» بَيَّنَ أَنَّ مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ،

وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ مَعَ إِرَادَةِ التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ بَالِغَةٌ مِنَ الْكَذِبِ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ الْعَجَبُ ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، وَبِهَذِهِ النُّصُوصِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا يَظْهَرُ غَايَةَ الظُّهُورِ: أَنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْقَوَانِينَ الْوَضْعِيَّةَ الَّتِي شَرَعَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى أَلْسِنَةِ أَوْلِيَائِهِ **مُخَالَفَةً** لِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، **أَنَّهُ لَا يَشُكُّ فِي كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ إِلَّا مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ، وَأَعْمَاهُ عَنْ نُورِ الْوَحْيِ مِثْلَهُمْ**"[١].

ومن السنة:

❁ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ﴿كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الحَقُّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، **وَإِلَيْكَ خَاصَمْتُ، وَبِكَ حَاكَمْتُ**، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾[٢].

قال ابن منظور:" وَفِي الْحَدِيثِ: وبِكَ حاكَمْتُ، أَي: رَفَعْتُ الحُكمَ إِليك **وَلَا حُكْمَ إِلا لَكَ**، وَقِيلَ: **بِكَ خاصمْتُ فِي طَلَبِ الحُكْمِ و إِبطالِ مَنْ نازَعَني فِي الدِّين**، وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الحُكْمِ."[٣]

وقال ابن القيم:" فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه **ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه**، فمن خاصم لنفسه فهو ممن

[١] أضواء البيان ٣/٢٥٩

[٢] رواه البخاري برقم ٧٤٤٢

[٣] لسان العرب ١٢/١٤٢

اتبع هواه وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة: "ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط"، وهذا لتكميل عبوديته. **ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أمر أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده** كما هو كذلك في نفس الأَمر"[١].

❁ وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ هَانِئِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: وَفَدْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَآهُمْ يُكَنُّونِي بِأَبِي الْحَكَمِ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ**، لِمَ تُكَنَّى بِأَبِي الْحَكَمِ؟» ، قُلْتُ: إِذَا كَانَ بَيْنَ قَوْمِي شَيْءٌ تَحَاكَمُوا إِلَيَّ فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ رَضُوا بِحُكْمِي. قَالَ: «وَمَا لَكَ مِنْ وَلَدٍ؟» ، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَمَا اسْمُ أَكْبَرِهِمْ؟» ، قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»[٢]

❁ عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، قَالَ: «لَا تُسَمُّوا الْحَكَمَ، وَلَا أَبَا الْحَكَمِ، **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ**، وَلَا تُسَمُّوا الطَّرِيقَ السِّكَّةَ» [٣].

المطلب الأول: التلازم بين الحاكمية والعبادة

قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٠]، وعن مسروق: أنه كان يحلِّف اليهوديَّ والنصراني بالله، ثم قرأ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٤٩] ، وأنزل

---

[١] طريق الهجرتين ٣٧/١

[٢] رواه بهذا اللفظ الطبراني في المعجم الكبير برقم ٤٦٥، والحاكم في المستدرك برقم ٦٢، وعند النسائي وغيره زيادة : «مَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا» ، والحسنُ هنا راجع إلى صفة العدل الموجبة للتحسين في العقول السليمة والشرائع المنزلة، لأن رضى المتنازعين من علامات العدل والإنصاف وهي الغاية التي وضع لها القضاء أصالة، وليس كما يزعم الصعافقة أنه ثناء على الحكم الجاهلي وإقرار له؟ كيف ولم يقره رسول الله ﷺ على اسمه الذي اشتق له من صفة الحكم وأعلمه أن الحكم لله وحده، قال السندي: "مَا أحسن هَذَا أَي **الَّذِي ذكرت من الحكم على وَجه يرضى المتخاصمين فَإِنَّهُ لَا يكون دَائِما على هَذَا الْوَجْه الا بِكَوْنِهِ عدلا**" حاشية السندي على سنن النسائي ٢٢٧/٨

[٣] جامع معمر بن راشد برقم ١٩٨٥٩

الله:﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[الأنعام ١٥١]"[١] ، فترى أن مسروقاً قابل بين الأمر بالحكم بما أنزل الله والنهي عن الشرك بالله تعالى.

وهذا النص ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يبين بجلاء التلازم بين العبودية والحاكمية، فحينما نتصور معنى العبادة على ما سبق بيانه من المعنى الشمولي لها، نفهم لماذا جعل يوسف عليه السلام اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم في مقام الدعوة إلى الإسلام، فالعبادة لا تقوم بكمالها وشمولها إذا كان الحكم لغير الله، فإفراد الله بالحكم والعبادة هو الدين القيم، ولا دين لله سوى هذا الدين القيم: الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة، فإذا كانت الحاكمية في الأرض لغير الله كان الأمر والنهي والحكم والتشريع لغير الله تعالى، وبالتالي ستكون الطاعة والعبودية لغير الله تعالى، إذْ يجري على الناس حكم الطاغوت ويدينون لدينه طائعين وينقادون لأمره خاضعين، فالناس على دين ملوكها منقادة، كما قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَكُونُ السُّنَّةُ فِيهِ بِدْعَةً ، وَالْبِدْعَةُ سُنَّةً ، وَالْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا ، وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا؛ **وَذَلِكَ إِذَا اتَّبَعُوا وَ اقْتَدَوْا بِالْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ فِي دُنْيَاهُمْ**»[٢]. فالحكم بغير شرع الله يهدم الإسلام، فعن زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ، قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ **وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ**»[٣]، وهذا في حكم الأئمة المضلين فكيف في حكم الطواغيت المبدلين.

والطاغوت لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الصحيحة عن قلوب الناس، إذْ لا يمكن أن يقوم وقد استقر في قلوب الناس عقداً أن الحكم لله

[١] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٢١٢٥

[٢] البدع لابن وضاح ٢٣٥

[٣] رواه الدارمي في سننه بسند صحيح برقم ٢٢٠

وحـده، لأن العبـادة لا تكـون إلا للـه وحـده، وسـبق بيـان أن الخضـوع للحكـم عبـادة بـل هـو أصـلاً مـدلول العبـادة، فالطـاغوت لا يقـوم في الأرض إلا مـدعياً الربوبية أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه، وإخضاعهم لفكره وقانونه.

فالعلاقـة بـين العبوديـة والحاكميـة هي الـتلازم، فـلا تقـوم العبوديـة للـه في الأرض كاملـة إلا بقيـام الحاكميـة للـه وحـده دونمـا سـواه، ولا يسـتطيع المسـلم أن يعـيش بدينـه عبـداً للـه في أرضـه حـراً مـن ربقـة العبوديـة للطواغيـت إلا تحـت ظـل نظـام حـاكم بمـا أنـزل اللـه، حيـث يتحقـق فيـه إفـراد اللـه عـز وجـل بالطاعـة و الاتبـاع و الخضـوع والانقيـاد و تلقـي مـنهج الحيـاة و جميـع التشـريعات و القـيم والمـوازين مـن اللـه وحـده دون مـا سـواه، وبهـذا يقـوم الـدين القـيم بقيـام الحاكميـة و السـلطان للـه في الأرض، وتتحقـق العبوديـة للـه كاملـة بالانقيـاد لشـرعه وتكـون الحيـاة كلها للـه، أي: تسـير وفـق أمـر اللـه كمـا قـال تعـالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَاطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[الأنعام١٦٣]، وهـذا هـو الصـراط المسـتقيم وهـو الـدين القـيم والملـة الحنيفيـة الـتي تكـون فيهـا الصـلاة والنسـك والحيـاة والممـات كلهـا للـه، وهـذه هـي شـمولية الـدين القـيم، فـإن اللـه لـم يـترك العبـاد يحتـاجون إلى مصـادر أخـرى يسـتمدون منهـا الشـرائع و القـيم والأحكـام فيمـا يَعـرِض لهـم مـن مشـكلات الحيـاة، بـل فصَّـل اللـه كتابـه العزيـز و جعلـه تبيانـا لكـل شـيء فقـال تعـالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾[النحل٧٩]، وقـال تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف٥٢] و أمـر اللـه بـرد كـل الأمـور المتنـازع فيهـا إلى اللـه و رسـوله فقـال تعـالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء٥٩] فعلـق الـرد علـى وجـود الإيمـان ورتـب انتفـاء الإيمـان بانتفـاء الـرد، بـل ذكرهـا صـريحة واضـحة وأقسـم بذاتـه العليـة و أكـدها

بالمؤكـــــــــــدات: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء٦٥].

وهـذا هـو التصـور الصـحيح للإسـلام الـذي يجـب بنـاؤه في نفـوس المخـاطبين بهـذا الـدين، حتي ينطلقـوا إلى إقامـة ديـن اللـه بشـموليته التي لا يقـوم إلا بهـا، إذ لا تصـح العبوديـة مُجـزَّأة أو مُبعَّضـة، وهـي الصـورة التي تكـون الحاكميـة فيهـا لغير للـه، كمـا يريـدها طواغيـت العلـم في هـذا الزمـان ويبغونهـا عوجـا ويقولـون كمــا قــال أســلافهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النســــــاء١٥١]، وعليـه فارتفـاع سـلطان اللـه مـن الأرض دلالـة على انتفـاء العبوديـة الكاملـة عنـد الأفـراد لانتفـاء الانقيـاد والاتبـاع لشِـرعَة اللـه و المنهـاج الربَّـاني، واتخـاذ الشـركاء والأربـاب في الطاعـة والتلقـي عـنهم واتبـاع منـاهجهم والخضـوع لـدينهم والانقيـاد لشـرائعهم وقيـام الجاهليـة بأوضـاعها وقيمهـا في الأرض، لـذلك تـواتر النقـل عـن الفقهـاء حينمـا يتكلمـون عـن ضـابط دار الكفـر يجعلونـه في علـو الأحكـام في الـدار، فعلـو الأحكـام هـو الـذي يتميز بـه دار الإسـلام مـن دار الكفـر وهـو الـذي نعـرف بـه الحاكميـة لمـن في الـدار؟ هـل هي للـه أو لملـوك الأرض، وحينئـذ نعـرف: هـل المحكـومين هـم عبـاد للـه أو عبـاد لملـوك الأرض؟ فمـن يكـون لـه الحكـم تكـون له الطاعة والانقياد التي هي مدلول العبادة.

وهـذه القضـية العظيمة ـ التي أُرسـلت بهـا الرسـل وأُنزلـت بهـا الكتـب ـ: إفـراد اللـه بـالحكم والطاعـة والاتبـاع حتى تكـون العبوديـة للـه خالصـة لـه دونمـا سـواه مـن الأربـاب والأنـداد، قـد صـارت مُغيَّبـةً اليـوم عـن تصـور النـاس ـ إلا مـن رحـم اللـه ـ و هي التي حرفهـا طواغيـت العلـم ليسـتطيعوا العـيش في هـذه الجاهليـة بـبعض الـدين الـذي يسـمونه الإسـلام زورا و بهتانـا، و هـم يعرفـون جيـدا أن الـدين القـيم بشـموليته يُنَـازعُ ملـوك الأرض و لا يُجـامع الباطـل ولا يقـوم إلا بـزوال الطـاغوت وسـلطانه مـن الأرض، ولكـنهم لا يسـتطيعون حمـل الـدين القـيم فبـدلوا وغيـروا وكـانوا أعظـم بـلاء على هـذه الأمـة مـن الطواغيـت الحـاكمين

فضيعوا الدين ولم يعملوا بوصية سيد المرسلين، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلَا إِنَّ رَحَى الْإِسْلَامِ دَائِرَةٌ فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ أَلَا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ فَلَا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ أَلَا إِنَّهُ سَيَكُونُ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ وَإِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: «كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ **مَوْتٌ فِي طَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[1]

إنَّ حَملَة الدين اليوم لا يسكنون البيوت الفارهة و يتمرغون في متاع الحياة الزائلة، ويتكلمون ويسكتون بإذن الطاغوت فيما لا سخط عليهم فيه ولا شطط، بل حملة هذه الدعوة اليوم مطاردين مشردين فإن أمسكوا أُودعوا السجون و إن نفذوا دافعوا الباطل و لا يرضون بالدون و لا يغيرون و لا يبدلون حتي يقضي الله أمرا كان مفعولا، وحالهم كما قال الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[الأحزاب٢٣] .

إنَّ هذا الدين القيم وهذه الدعوة الحنيفية إذا قامت بشموليتها استدعت الخصومة الشديدة من الملأ وأصحاب النفوذ وأهل الملك والسلطان وطواغيت الأرض، لذلك كانت المدافعة والحرب قائمة من أول يوم ظهرت فيه تلك الدعوات في تلك الأقوام، فإعلانها هو بمثابة تجريد ملوك الأرض من سلطانهم المستمد من أهوائهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾[النمل٤٥] ، إنه الصراع الحتمي بين الفريقين والصدام المتواصل إلى قيام الساعة: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ

[1] رواه الطبراني في الكبير برقم ٧٤٩ وجاله ثقات ورواه أبو نعيم في الحلية ١٦٥/٥

يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾[البقرة٢١٧] ، هذه هي حقيقة الدعوة وطبيعة الحركة ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وهذه المعاني كانت متقررة عند الصحابة والتابعين كما روي في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾[النساء:٦٠]، أخرج الثَّعْلَبِيّ عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ ﴾ الْآيَة قَالَ: نزلت فِي رجل من الْمُنَافِقين يُقَال لَهُ بشر خَاصم يَهُودِيّا فَدَعَاهُ الْيَهُودِيّ إِلَى النَّبِي ﷺ وَدعَاهُ الْمُنَافِق إِلَى كَعْب بن الْأَشْرَف ثمَّ إِنَّهُمَا احْتَكَمَا إِلَى النَّبِي ﷺ فَقضى لِلْيَهُودِيِّ فَلم يرض الْمُنَافِق، وَقَالَ: تعال نَتَحَاكَم إِلَى عمر بن الْخطاب، فَقَالَ الْيَهُودِيّ لعمر: قضى لنا رَسُول الله ﷺ فَلم يرض بِقَضَائِهِ، فَقَالَ لِلْمُنَافِقِ: أَكَذَلِك قَالَ: نعم، فَقَالَ عمر: مَكَانكُمَا حَتَّى أخرج إِلَيْكُمَا، فَدخل عمر فَاشْتَمَلَ على سَيْفه ثمَّ خرج فَضرب عنق الْمُنَافِق حَتَّى برد ثمَّ قَالَ: **هَكَذَا أَقْضِي لمن لم يرض بِقَضَاء الله وَرَسُوله**: فَنزلت الآية"[١]، فهكذا هو قضاء الصحابة في من لم يرضى بحكم الله ورسوله ﷺ ولمن تحاكم لغير حكم الله ورسوله ﷺ ولمن اتبع غير شرعة الله ورسوله ﷺ، قال محمد ابن عبد الوهاب:" وهكذا ينبغي أن يفعل بالمتحاكمين إلى الطواغيت، فإذا كان هذا الخليفة الراشد قد قتل هذا الرجل، بمجرد طلبه التحاكم إلى الطاغوت، فمن هذا عادته التي هو عليها، ولا يرضى لنفسه وأمثاله سواها، أحق وأولى أن يقتل لردته عن الإسلام وعموم فساده في الأرض، فإنه لا صلاح للخليقة، إلا بأن يكون الله معبودها والإسلام دينها، ومحمد نبيها الذي تتبعه، وتتحاكم إلى شريعته، ومتى عدم ذلك عظم فسادها، وظهر خرابها"[٢].

[١] الدر المنثور ٥٨٢/٢

[٢] الدرر السنية ٥٠٧/١٠

المطلب الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله في القضية لرشوة ونحوها

إنَّ الله عز وجل أنزل القرآن حكماً بين الناس، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴾ [الرعد:٣٧] وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٠]. قال ابن عمرو في حديثه: فهو يحكم فيه، وقال الحارث: فالله يحكم فيه"[١]، وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ [النساء:١٠٥] قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، يعني: القرآن ﴿ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾، يعني: بما أنزل الله إليك من كتابه"[٢].

وأمر الله عزَّ وجل الحكام بما أمر به نبيه ﷺ في قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ

[١] تفسير الطبري ٥٠٦/٢١

[٢] تفسير الطبري ١٧٦/٩

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩]

قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهلِ الملل بكتابه الذي أنزله إليه، وهو القرآن الذي خصّه بشريعته ـ إلى أن قال ـ يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترتَ الحكم عليهم، ولا تتركنَّ العمل بذلك اتباعًا منك أهواءَهم، وإيثارًا لها على الحق الذي أنزلته إليك في كتابي"[١]، وقال تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾[الشورى١٥]" أَيْ: فِي الْحُكْمِ كَمَا أَمَرَنِي اللَّهُ"[٢]، وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ»[٣]، وَقَالَ الحَسَنُ: «أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الحُكَّامِ أَنْ لاَ يَتَّبِعُوا الهَوَى، وَلاَ يَخْشَوُا النَّاسَ، وَلاَ يَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾[ص٢٦] وقرأ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[المائدة ٤٤] ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ اسْتُودِعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَقَرَأَ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء٨٧] «فَحَمِدَ سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَلُمْ دَاوُدَ، وَلَوْلاَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ هَذَيْنِ لَرَأَيْتُ أَنَّ القُضَاةَ هَلَكُوا، فَإِنَّهُ أَثْنَى عَلَى هَذَا بِعِلْمِهِ وَعَذَرَ هَذَا بِاجْتِهَادِهِ»[٤].

[١] تفسير الطبري ٣٨٢/١٠

[٢] تفسير البغوي ١٩٦/٧

[٣] بعض حديث من رواية زيد بن خالد الجهني رواه البخاري برقم ٢٦٩٥

[٤] صحيح البخاري ٦٧/٩

ونقول أن هذه المسألة متصورة في القاضي المسلم إذا حكم في القضية بغير ما أنزل الله لرشوة ونحوها، وليست في الحكام الطواغيت الذين يحكمون بالشرع المبدل كما هو الحال في حكام هذا الزمان ... وعليه فنقول أن من ترك الحكم بما أنزل الله ـ من حكام المسلمين الحاكمين أصالةً بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ـ فعطله وحكم بغير ما أنزل الله ـ في صورة التبديل ـ من أهواء المخلوقين عامداً عالماً لرشوة أو قرابة أو نحوها فقد كفر بالله تعالى كفراً مخرجاً من الملة، وقد نقل في اللباب عن ابن مسعود رضي الله عنه **والحسن والنخعيّ**: أن هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة، **فكل من ارتشى وبدل الحكم** فحكم بغير حكم الله **فقد كفر** وظلم وفسق، **وإليه ذهب السدّيّ**. لأنه ظاهر الخطاب. ثم قال: وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عيانا عمداً، وحكم بغيره. وأما من خفي عليه النص أو أخطأ في التأويل، فلا يدخل في هذا الوعيد"[١].

وقَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ: التَّوْرَاةُ الَتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُحَرِّفُونَهَا يَجْعَلُونَ الْحَلَالَ فِيهَا حَرَامًا، وَالْحَرَامَ فِيهَا حَلَالًا وَالْحَقَّ فِيهَا بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ فِيهَا حَقًّا؛ إِذَا جَاءَهُمُ الْمُحِقُّ بِرِشْوَةٍ أَخْرَجُوا لَهُ كِتَابَ اللَّهِ، **وَإِذَا جَاءَهُمُ الْمُبْطِلُ بِرِشْوَةٍ أَخْرَجُوا لَهُ ذَلِكَ الْكِتَابَ، فَهُوَ فِيهِ مُحِقٌّ**، وَإِنْ جَاءَهُمْ أَحَدٌ يَسْأَلُهُمْ شَيْئًا لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ، وَلَا رِشْوَةٌ، وَلَا شَيْءَ، أَمَرُوهُ بِالْحَقِّ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٤٤]"[٢] ... وهذا نص في أن اليهود كانوا يحكمون بغير ما أنزل الله لرشوة في صورة التبديل، وصورة سبب النزول قطعية الدخول في الآية.

---

[١] محاسن التأويل ٦/ ٢١٥

[٢] تفسير ابن كثير ١/٣٠٨

وقال البغوي: "وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: **هَذَا إِذَا رَدَّ نَصَّ حُكْمِ اللَّهِ عِيَانًا عَمْدًا**، فَأَمَّا مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ أَوْ أخطأ في تأويل فلا"[١]، **فحكاه البغوي عن العلماء عموماً**[٢]، وهو في معنى دفع شيئاً مما أنزل الله الذي ورد فيه الإجماع على كفره كما قال إسحق بن راهويه : «وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَنْ سَبَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْ **دَفَعَ شَيْئًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ** أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُقِرٌّ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَنَّهُ كَافِرٌ ، فَكَذَلِكَ تَارِكُ الصَّلَاةِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتُهَا عَامِدًا ، وَلَقَدْ أَجْمَعُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يُجْمِعُوا عَلَيْهِ فِي سَائِرِ الشَّرَائِعِ »[٣]، وأما من أخطأ في التأويل أو خفي عليه النص وكان مجتهداً في حكمه فهو كما ورد عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[٤].

سرد الآثار من فهم الصحابة وجملة من التابعين:

❁ عَنْ عَلْقَمَةَ وَمَسْرُوقٍ أَنَّهُمَا سَأَلَا ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ الرِّشْوَةِ فَقَالَ: مِنَ السُّحْتِ: قَالَ: فَقَالَا وَفِي الْحُكْمِ؟ قَالَ:« **ذَاكَ الْكُفْرُ!** ثُمَّ تَلَا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]»[٥].

ومن يصرف الكفر في أثر عبد الله إلى الكفر الأصغر فقد تعنّت في الرد وهي دعوى باطلة مردودة عليه، إذ لمّا فرّق عبد الله بين الرشوة في الحكم والرشوة في غيره ومثّل لكل واحدة منهما وأعطى كل نوع حكماً دل على المغايرة، فقد جعل رضي الله عنه التي في الحكم كفراً والأخرى سحتاً من جملة المعاصي، ومما هو

[١] تفسير البغوي ٢/٥٥

[٢] قال ابن القيم :" مِنْهُمْ مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِمُخَالَفَةِ النَّصِّ، تَعَمُّدًا مِنْ غَيْرِ جَهْلٍ بِهِ وَلَا خَطَإٍ فِي التَّأْوِيلِ، **حَكَاهُ الْبَغَوِيُّ عَنِ الْعُلَمَاءِ عُمُومًا.**" مدارج السالكين١/٣٤٥

[٣] التمهيد (٤/٢٢٦)

[٤] رواه البخاري برقم ٧٣٥ ومسلم برقم ١٧١٦

[٥] رواه الطبري برقم ١٢٠٦١

ظاهر في التفريق بينهما تعليله فلو كانتا سواءً لأقر السائل على أنها في الحكم سحتاً كالتي في غيرها، ويؤيد ذلك استدلاله بظاهر آية المائدة على أنَّ الرشوة في الحكم كفراً، فعن عبيد ابن أَبِي الْجَعْدِ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «مَنْ شَفَعَ لِرَجُلٍ لِيَدْفَعَ عَنْهُ مَظْلِمَةً أَوْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حَقًّا فأهدا لَهُ هَدِيَّةً فَقَبِلَهَا فَذَلِكَ السُّحْتُ. فَقُلْنَا يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّا كُنَّا نَعُدُّ السُّحْتَ الرِّشْوَةَ فِي الْحُكْمِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1]، وهو الذي فهمه مسروق من شيخه عبد الله حيث قال مسروق: الْقَاضِي إِذَا أَكَلَ الْهَدِيَّةَ فَقَدْ أَكَلَ السُّحْتَ، وَإِذَا قَبِلَ الرِّشْوَةَ بَلَغَتْ بِهِ الْكُفْرَ"[2]، وهذا تفريق واضح بين المعصية والكفر وهو فهم الصحابة كما هو منقول عن عمر رضي الله عنه وعلي رضي الله عنه كما سيأتي معنا .

وإن كان الكفر لا ينصرف إلى الأصغر إلا بقرينة واضحة كما هو متقرر، كيف ونص كلام عبد الله ابن مسعود فيه قرينة على أنه الكفر الأكبر، وهو واضح في مراده على أن الكفر هو كفر أكبر، ومع ذلك تجد من يريد أن يثبت خلاف ذلك تعنتاً، بل ويرمي هذا القول بالخارجية!! وهذا طعن صريح في أكابر الصحابة رضوان الله عليهم عمر وعلي وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنهم.

❁ ومثل ذلك ثبت عن **عمر بن الخطاب وعلي رضي الله عنهما**، كما" أخرج ابن المنذر عن مسروق قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أرأيت الرشوة في الحكم أمن السحت هي؟ قال: «لا، **ولكن كفر**، إنما السحت أن يكون للرجل عند السلطان جاه ومنزلة، ويكون للآخر إلى السلطان حاجة فلا يقضي حاجته حتى يهدي إليه هدية»[3].

---

[1] رواه ابن أبي حاتم برقم ٦٣٨٢

[2] رواه ابن أبي حاتم برقم ٦٣٨٣

[3] روح المعاني للألوسي ١٤٠/٦

❁ وأخرج عبد بن حميد عن علي رضي الله عنه أنه سُئل عن السحت فقال: «الرشا، فقيل له في الحكم، قال: **ذاك الكفر**، وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود نحو ذلك»[١]، ونقول هنا كما قلنا في تفصيل عبد الله ابن مسعود رضي الله عنهما.

❁ وهو تفصيل بعض التابعين، قَالَ الْحَسَنُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، فِي تَفْسِيرِ قوله تعالى: ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[المائدة٤٢]، «هُوَ الرِّشْوَةُ، وَقَالَ: إذَا قَبِلَ الْقَاضِي الرِّشْوَةَ، **بَلَغَتْ بِهِ إلَى الْكُفْرِ**»[٢].

❁ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ **فَخُذُوا بِمَا قَالَ عُمَرُ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ**: إنِّي لَأَحْسَبُ عُمَرَ ذَهَبَ بِتِسْعَةِ أَعْشَارِ الْعِلْمِ وَقَالَ أَيْضًا: لَوْ أَنَّ عِلْمَ عُمَرَ وُضِعَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَ عِلْمُ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَ عِلْمُ عُمَرَ"[٣]، وهذا على فرض وجود خلاف بين الصحابة ولا خلاف كما سيأتي بيانه.

❁ وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ إبْرَاهِيمَ:« **إنَّهُ كَانَ لَا يَعْدِلُ بِقَوْلِ عُمَرَ وَعَبْدِ اللَّهِ إذَا اجْتَمَعَا**، فَإِذَا اخْتَلَفَا كَانَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ أَعْجَبَ إلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَلْطَفَ»[٤].

❁ وروى وكيع قال حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن أبي الربيع الجرجاني قال: أَخْبَرَنَا عَبْد الرزاق، عَن مَعْمَر، عَن ابن طاوس، عَن أبيه قال: سئل ابْن عَبَّاس عَن قوله: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، قال: «**كفى به كفره**» [٥].

[١] نفس المصدر السابق

[٢] المغني ٦٩/١٠

[٣] إعلام الموقعين ١٣/١

[٤] إعلام الموقعين ١٣/١

[٥] أخبار القضاة ٤١/١ **وإسناده صحيح**، وروى كذلك عن علي بْن العباس الحضري؛ قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مروان القطان؛ قال: حَدَّثَنَا إبراهيم بْن الحكم بْن ظهير، عَن أبيه، عَن السدي؛ قال: قَالَ: ابْن عَبَّاس: من جار في الحكم وهو يعلم، ومن حكم بغير علمه، ومن أخذ الرشوة في الحكم، فهو من الكافرين. وهَذَا في أهل التوحيد". وهو ضعيف فيه مُحَمَّد بن مَرْوَان الْقطَّان شيعي قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ حَاطِب ليل مَتْرُوك

❁ وروى عبد الرزاق عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤]، قَالَ:« هِيَ بِهِ كُفْرٌ» قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ: «وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ»[١]، وهذه الرواية تُبيّن أن الزيادة المنسوبة إلى ابن عباس ﵁ على أنها من قوله : «وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ» هي مدرجة من ابن طاوس وليست من كلام ابن عباس كما تُوهِم الرواية التي أخرجها الطبري[٢] وعبد الرزاق[٣] والمروزي[٤]، فالثابت عن ابن عباس من قوله: «هي به كفر»[٥]، والزيادة هي من قول طاوس أدرجها ابنه ونسبها إلى ابن عباس ﵄.

[١] رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة برقم ٥٧٠.

[٢] في تفسيره برقم ١٢٠٥٣

[٣] رواه عبد الرزاق في تفسيره برقم ٧١٣

[٤] في تعظيم قدر الصلاة برقم ٥٧١

[٥] وجاءت الزيادة منسوبة إلى طاوس بإسناد صحيح عند الطبري: قال حدثنا هناد قال، حدثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال، حدثنا أبي عن سفيان، عن سعيد المكي، عن طاوس :"﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾، قال:« ليس بكفرٍ ينقل عن الملّة»، فثبت أن الكلام هو لطاوس وليس لابن عباس كما هو واضحٌ في رواية عبد الرزاق التي بينت الإدراج، **وإذا اختلف أصحاب معمر فالحديث لعبد الرزاق**، كما أخرج ابن عساكر بسنده عن حنبل بن إسحاق قال سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا اختلف أصحاب معمر فالحديث لعبد الرزاق" تاريخ دمشق ١٦٩/٣٦

دراسة إسنادية لأثر عبد الله ابن عباس:

❁ ما رواه المروزي في تعظيم قد الصلاة برقم ٥٧٣، قال حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، ثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ سُفْيَانَ، **عَنْ رَجُلٍ**، عَنْ طَاوُسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كُفْرٌ لَا يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ»، والإسناد ضعيف لإبهام الرجل.

❁ وما رواه المروزي برقم ٥٦٩ والحاكم في مستدركه برقم ٣٢١٩ قال أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمَوْصِلِيُّ، ثنا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ، ثنا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حُجَيْرٍ، عَنْ طَاوُسٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّهُ " لَيْسَ بِالْكُفْرِ الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ

إِنَّهُ لَيْسَ كُفْرًا يَنْقِلُ عَنِ الْمِلَّةِ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ» قال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ"

وهذا الاسناد رجاله ثقات غير هِشَام بن حُجَيْر الْمَكِّيّ قَالَ أَحْمد: لَيْسَ بِالْقَوِيّ قَال عَبد الله بْن أحمد بْن حنبل: سَأَلتُ أبي عنه، فَقَالَ: ليس هو بالقوي. قلت: هو ضعيف؟ قال: ليس هو بذاك، قال: وسألت يحيى بْن مَعِين عنه، فضعفه جدا " تهذيب الكمال ١٧٩/٣٠.

وقَال عَمْرو بْن علي: سمعت يحيى سئل عن حديث هشام بن حجير فأبى أن يحدث به ولم يرضه" الكامل: ٣ / ٢٠٠.

وَقَال إسحاق بْن مَنْصُور، عَنْ يحيى بْن مَعِين: صالح.

وَقَال العجلي: ثقة، صاحب سنة.

وَقَال أَبُو حَاتِم: يكتب حديثه.

وَقَال علي ابن المديني: قرأت عَلَى يحيى بن سَعِيد: حَدَّثَنَا ابن جُرَيْج عَنْ هشام بن حجير، فَقَالَ يحيى بن سَعِيد: خليق أن أدعه. قلت: أضرب عَلَى حديثه؟ قال نعم .

وَقَال أبو عُبَيد الآجُرِيّ: سمعت أبا داود قال: هشام بن حجير ضرب الحد بمكة. قلت: فِي ماذا؟ قال: فيما يضرب فيه أهل مكة.

وذكره ابنُ حِبَّان فِي كتاب "الثقات" ... انظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال ١٨٠/٣٠

وَقَال ابن سعد: كان ثقة وله أحاديث". (طبقاته: ٥ / ٤٨٤) .

وذكره العقيلي في الضعفاء" ونقل عَنِ ابن عُيَيْنَة أنه قال: **لم نكن نأخذ عن هشام بن حجير مالا نجده عند غيره**"،" الضعفاء (٢٢٥)، وهذه الرواية من طريق سفيان بن عيينة وسفيان أخذه من هشام لأنه لم يجده عند غيره، وفيه دلالة على أن هشام لم يُتابع على هذا الأثر، أي: مع ضعفه لم يُتابع، وإن كان حديثه يُكتب. كما قال أبو حاتم. ليُتابع، أي يصلح في الشواهد والمتابعات، أما مع انفراده لا يُقبل حديثه، ومع تضعيف الأئمة لهشام لا يعتمد توثيق من وثقه كابن سعد الذي يعتمد على الواقدي ومادته في الطبقات منه في الغالب، والواقدي ليس بمعتمد، وأما ابن حبان والعجلي فمشهوران بالتساهل في توثيق المجاهيل ويؤخذ بتوثيقهم لغير المجاهيل، لكن في هشام قد خالفا أئمة الجرح والتعديل. قال المعلمي:" توثيق العجلي وجدته بالاستقراء كتوثيق بن حبان تماما أو أوسع ... ـ إلى أن قال ـ وكذا توثيق ابن سعد فإن أغلب مادته من الواقدي المتروك كما ذكر ابن حجر في مقدمة الفتح عند ترجمة عبدالرحمن بن شريح" «الأنوار الكاشفة ص ٦٨»

فإذا كان هذا حال من وثَّقوه فإن روايته لا تقوم بها حجة بتوثيقهم هذا، فكيف وقد عارضهم وقال بتضعيفه الأئمة الجبال الرواسي كأحمد وابن معين ويحي بن سعيد القطان وعلي بن المديني وغيرهم.

وأما من يحتج برواية البخاري ومسلم لهشام فنقول أن البخاري لم يرو له إلا حديثا واحداً، قال حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حُجَيْرٍ، عَنْ طَاوُسٍ، سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: " قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً " الحديث، أورده في كفارة الأيمان برقم ٦٧٢٠ من طريق هشام وتابعه برقم ٦٦٣٩ عن طريق أَبُو اليَمَانِ، قال أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً" ، وأما مسلم فليس له عنده إلا حديثين ولم يرو له إلا مقرونا ... وراجع في هذا ما قاله الهرروي في كتابه « خلاصة القول المفهم على تراجم رجال الإمام مسلم».

فعُرف مما سبق أنه لا حجة لمن حاول تقوية هشام بالاحتجاج برواية البخاري ومسلم له، لأنهما لم يرويا له استقلالا ولكن متابعة... وهذا يدل على تضعيفه إذا انفرد كما في رواية الباب.

❁ الرواية الثالثة: قال الطبري حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ قال: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقرّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسقٌ». رواه ابن جرير برقم ١٢٠٦٣

والأثرفيه عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهني، أبو صالح المصري كاتب الليث، قال عبد الله بن أحمد: سألت (يعني أباه) عن عبد الله بن صالح، كاتب الليث. فقال: كان أول أمره متماسكاً. ثم فسد بأخرة، وليس هو بشيء". العلل (٤٩١٩) ، وقال عبد الله: سمعتُ أبي ذكر كاتب الليث بن سعد، عبد الله بن صالح، فذمه وكرهه وقال: إنه روى عن ليث، عن ابن أبي ذئب كتابا أو أحاديث، وأنكر أن يكون الليث روى عن ابن أبي ذئب" العلل (٥٠٦٧) .

وقال زياد بن أيوب: نهاني أحمد بن حنبل أن أروي حديث عبد الله بن صالح". المجروحون لابن حبان ٤٢/٢.

وقال علي بن المديني ضربت على حديث عبد الله بن صالح، وما أروي عنه شيئا"

وقال النسائي: ليس بثقة

وقال أبو حاتم الأحاديث التي أخرجها أبو صالح في آخر عمره فأنكروها عليه

وقال أبو زرعة لم يكن عندي ممن يتعمد الكذب وكان حسن الحديث

قال أحمد بن صالح: متم ليس بشيء

وقال صالح جزرة: كان ابن معين يوثقه وهو عندي يكذب في الحديث

وقال يحي بن معين هما ثبتان ثبت حفظ وثبت كتاب وأبو صالح كاتب الليث ثبت كتاب"، ينظر الضعفاء والمتروكين للنسائي رقم ٣٠١ تهذيب الكمال رقم ٣٣٣٦ والمغني في الضعفاء رقم ٣٢١٨

وجامع القول فيه ما قاله ابن حبان وهو من أهل الاستقراء في هذا الشأن، " قال ابن حبان: عَبْد اللَّهِ بْن صَالِح كَاتب اللَّيْث الْمصْرِيّ يروي عَن ابن لَهِيعَة وَمُعَاوِيَة بن صَالح مَاتَ سنة ثِنْتَيْنِ أَو ثَلَاث وَعشْرين وَمِائَتَيْنِ **مُنكر الحَدِيث جدا** يروي عَن الْأَثْبَات مَالا يشبه حَدِيث الثِّقَات وَعِنْده الْمَنَاكِير الْكَثِيرَة عَن أَقوام مشاهير أَئِمَّة وَكَانَ فِي نَفسه صَدُوقًا يكْتب لليث بن سعد الْحساب وَكَانَ كَاتبه على الغلات وَإِنَّمَا وَقع الْمَنَاكِير فِي حَدِيثَة من قبل جَار لَهُ رجل سوء سَمِعت بن خُزَيْمَة يَقُول كَانَ لَهُ جَار بَينه وَبَينه عَدَاوَة فَكَانَ يضع الحَدِيث على شيخ عبد الله بن صَالح وَيكْتب فِي قرطاس بِخَط يشبه خطّ عبد الله بن صَالح ويطرح فِي دَاره فِي وسط كتبه فيجده عبد لله فَيحدث بِهِ فيتوهم أنه خطه وسماعه فَمن ناحيته وَقع الْمَنَاكِير فِي أخباره" المجروحين ٤٠/٣

وفيه علي بن أَبي طلحة، واسمه سالم، بن المخارق الهاشمي، أبو الحسن، ويُقال: أبو محمد، ويُقال: أبو طلحة مولى العباس بن عبد المطلب، أصله من الجزيرة، وانتقل إلى حمص.

"وعلي بن أبي طَلْحَة هَذَا (قَالَ أَحْمد) لَهُ أَشْيَاء مُنكرَات، وقال أبو حاتم: **علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل**، إنما يروي عن مجاهد والقاسم بن محمد وذكر شيخنا المزي في "التهذيب" أنه روى عن كعب بن مالك وأن ذلك مرسل أيضا." انظر البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير ٦٦٢/٧، وتحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل ٢٣٤/١! ،

۞ وقَالَ مسروق: «القاضي إِذَا أكل الهدية أكل السحت، وإذا قبل الرشوة **بلغ به الكفر**»[١].

۞ وعَنْ عَبْدِ الرحمن بْن زيد بْن أسلم في تفسير زيد بْن أسلم لقوله:﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾، قال: «بهَذَا حكم لكتابه، فمن ترك الحكم بكتاب الله **فقد كفر**»[٢].

وما نُقل عن بعض السلف أنها نزلت في أهل الكتاب كما "قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو مِجْلَزٍ وَأَبُو رَجَاء العُطَارِدي وعِكْرِمة وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ أنها نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ[٣] وزَادَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ[٤]... مثله نُقل عن بعض السلف أنها في هذه الأمة:

وقال الخطيب البغدادي: قرأت فِي كتاب أَبِي الحسن بْن الفرات بخطه أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن العباس الهروي، قَالَ: حَدَّثَنَا يعقوب بْن إِسْحَاق بْن محمود الفقيه، قَالَ: سئل يعني: صالح بْن مُحَمَّد عَن علي بْن أَبِي طلحة ممن سمع التفسير؟ **قَالَ: من لا أحد!**" تاريخ بغداد ٣٨٠/١٣

وقال ابن حبان: "روى عن ابن عباس ولم يره"، وقال ابن طهمان، عن يحيى: علي بن أَبي طلحة روى عنه بديل في التفسير ولم يسمع من ابن عباس شيئا فروى مُرْسلاً". تهذيب الكمال ٣٢/٤

وبعد هذه الدراسة لأسانيد هذا الأثر تبين فيه علتان ولا يحتج بمثله في هذا المقام العظيم، وخاصة إذا علمت أن أقواما بنو عليه ديناً جديداً فيه الحكم للطواغيت وصححوا دينهم وشدوا به ملكهم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وما أوردنا أقوى ما يستدل به من الآثار في نسبة القول إلى ابن عباس، وغيرها لا يلتفت إلى مثله، ولا يصلح حتى في الشواهد والمتابعات، والله أعلى وأعلم.

[١] رواه وكيع في أخبار القضاة ٥٣/١

[٢] أخبار القضاة ٤٤/١

[٣] تفسير بن كثير ١١٩/٢

[٤] رواه الطبري برقم ١٢٠٦٠

❁عن الشعبي: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، قال: «هذا في المسلمين، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، قال: النصارى»[1].

❁ وعن عامر قال: «نزلت "الكافرون" في المسلمين، و"الظالمون" في اليهود، و"الفاسقون" في النصارى»[2].

❁ وعن حذيفة رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، قال: «نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لكم كل حُلْوة، ولهم كل مُرَّة!! ولتسلُكُنَّ طريقَهم قِدَى الشِّراك»[3].

❁ وعَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، قَالَ: «نَزَلَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَضِيَ لَكُمْ بِهَا»[4].

❁ وعنْ أَبِي سَعِيدٍ التَّيْمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] ، «يَعْنِي: كُلَّهَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ»[5].

---

[1] رواه الطبري برقم ١٢٠٤٢ ، وَكَذَا رَوَاهُ هُشَيْم وَالثَّوْرِيُّ، عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ.

[2] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٢٠٣٨

[3] رواه الطبري برقم ١٢٠٢٧

[4] رواه الخلال في السنة برقم ١٤١٦

[5] ترتيب الأمالي الخميسية للشجري برقم ٢٦٢٦

❁ وعَن ثابت الثمالي قال: قلت لأبي جعفر: « **إن المرجئة يخاصموننا في** هذه الآيات، فقلت: إنهم يزعمون أنها في بني إسرائيل؛ فقال: «نعم الإخوة نحن لبني إسرائيل إن كان حلو القرآن لنا، ومره لهم؛ نزلت فيهم ثم جرت فينا »[١].

وبهذا يتقرر أن الصحابة لم يصح عنهم لفظ كفر دون كفر في تفسيرهم لآية المائدة، ولا مخالف بينهم في أن الكفر في صورة الرشوة هو الأكبر، وقد نُقل ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وأثبتنا أنه قول ابن عباس أيضاً، كما أنه لا خلاف تضاد بين التابعين: كمسروق والسدي والحسن والنخعي وسعيد ابن جبير وزيد بن أسلم فكلامهم كان في صورة التبديل، ومن نقل عنهم لفظ كفر دون كفر كطاوس وعطاء وعكرمة وأبو مجلز، فكلامهم كان في مقام الرد على الخوارج والمعتزلة الذين يكفرون أئمة الجور ويستدلون بآية المائدة، فلفظ: «إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه»، ولفظ:« إنه ليس كفرًا ينقل عنه الملة»، ولفظ:« كفر دون الكفر» ، هي أقوالٌ لطاووس وعطاء وأبو مجلز في مقابلة قول الخوارج الذين تأولوا الآية على غير تأويلها وعمموا الحكم بها على أصحاب الكبائر، **فهي ألفاظ مقيدة في مقام الرد وليست مطلقة في جميع الصوروالأحوال في باب الحكم**، وهي في مقابلة استدلال الخوارج المخالف للحق في أصل المسألة، قال القاضي أبو يعلى لما ذكر حجج الخوارج والمعتزلة على قولهم في مرتكب الكبيرة فقال:" احتجوا بأشياء منها: .... واحتج بقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ **وظاهر هذا يوجب إكفار أئمة الجوروهذا قولنا**"[٢]، وقال أبو حيان الأندلسي:" وَاحْتَجَّتِ الْخَوَارِجُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ـ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى فَهُوَ كَافِرٌ، وَقَالُوا: هِيَ نَصٌّ فِي كُلِّ مَنْ حَكَمَ

[١] أخبار القضاة ٤٤/١

[٢] مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى ص ٣٤٠،

بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ، وَكُلُّ مَنْ أَذْنَبَ فَقَدْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ كَافِرًا"[١].

فخلاف التابعين[٢] في تفسير آية المائدة هو من خلاف التنوع فكلام مسروق وعلقمة وغيرهم هو في صورة التبديل وكلام طاووس وأبي مجلز هو في صورة

[١] البحر المحيط ٤/٢٧٠

[٢] وثبت أن لفظ: «إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه»، ولفظ:« إنه ليس كفرًا ينقل عنه الملة»، ولفظ:« كفر دون الكفر» هي ألفاظ ثابتة عن طاوس وعطاء وأبو مجلز، وهي أقوالٌ لهم في مقابلة قول الخوارج الذين تأولوا الآية على غير تأويلها وعمموا الحكم بها على أصحاب الكبائر، وللتدليل على أن هؤلاء التابعين ذكروا هذه الألفاظ مقيدة وليست مطلقة وهي في مقابلة استدلال الخوارج المخالف للحق في أصل المسألة، وفي ذلك شواهد منها:

❁ طاوس بن كيسان اليماني: كانت له خصومة شديدة مع الخوارج وكان قد أفتى بقتالهم وبينه وبينهم مساجلات، فروى عبد الرزاق بسنده إلى ابن طاووس قال: لما قدمت الحروراء علينا فر أبي، فلحق بمكة، ثم لقي ابن عمر فقال: قدمت الحروراء علينا، ففررت منهم، ولو أدركوني لقتلوني، فقال ابن عمر: أفلحت إذا وأنجحت". المصنف (١٠/ ١١٩/ ١٨٥٨٠).

وله بسنده إليه قال: كان أبي يحرض يوم رزيق في قتال الحرورية". المصنف (١٠/ ١٢٠/ ١٨٥٨١).

وقَالَ مَعْمَرٌ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ قَالَ: كُنْتُ لا أَزَالُ أَقُولُ لِأَبِي: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخْرَجَ عَلَى هَذَا السُّلْطَانِ وَأَنْ يُفْعَلَ بِهِ، قَالَ: فَخَرَجْنَا حُجَّاجًا، فَنَزَلْنَا فِي بَعْضِ الْقُرَى وَفِيهَا عامِلٌ لِنَائِبِ الْيَمَنِ، يُقَالُ لَهُ: أَبُو نُجَيْحٍ، وَكَانَ مِنْ أَخْبَثِ عُمَّالِهِمْ، فَشَهِدْنَا الصُّبْحَ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا أَبُو نُجَيْحٍ قَدْ عَلِمَ بِطَاوُسٍ، فَجَاءَ فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ كَلَّمَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ عَدَلَ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا بِهِ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَمَدَدْتُ بِيَدِهِ، وَجَعَلْتُ أُسَائِلُهُ، وقلت: إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك، فَقَالَ: بَلَى مَعْرِفَتُهُ بِي فَعَلَتْ بِي مَا رَأَيْتَ، قَالَ: فَمَضَى وَهُوَ سَاكِتٌ، فَلَمَّا دَخَلْنَا الْمَنْزِلَ قَالَ لِي: **يَا لُكَعُ، بَيْنَمَا أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ عَلَيْهِمْ بِسَيْفِكَ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْبِسَ عَنْهُمْ لِسَانَكَ**" تاريخ الإسلام ٣/٦٥.

❁ وأما الآثار التي رويت عن أبي مجلز فهي في مقام المناظرة بينه وبين الإباضية الخوارج، فقد روى الطبري عن عمران بن حدير قال أتى أبا مجلز ناسٌ من بني عمرو بن سدوس، فقالوا: يا أبا مجلز، أرأيت قول الله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، أحق هو؟ قال: نعم! قالوا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، أحق هو؟ قال: نعم! قالوا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، أحق هو؟ قال:« نعم! قال فقالوا: يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون، وإليه يدْعون، فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا! فقالوا: لا والله، ولكنك تَفْرَقُ! قال: أنتم أولى بهذا مني! لا أرى، وإنكم أنتم ترون هذا ولا تحرَّجُون، ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك أو نحوًا من هذا». تفسير الطبري برقم ١٢٠٢٥

وروى الطبري قال حدثني المثنى قال، حدثنا حجاج قال، حدثنا حماد، عن عمران بن حدير قال: قعد إلى أبي مجلز نفرٌ من الإباضيَّة، قال فقالوا له: يقول الله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، ﴿

فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾"! قال أبو مجلز: «إنهم يعملون بما يعلمون يعني الأمراء ويعلمون أنه ذنب! قال: وإنما أنزلت هذه الآية في اليهود! والنصارى قالوا: أما والله إنك لتعلم مثل ما نعلم، ولكنك تخشاهم! قال: أنتم أحق بذلك منّا! أمّا نحن فلا نعرف ما تعرفون! [قالوا] : ولكنكم تعرفونه، ولكن يمنعكم أن تمضوا أمركم من خشيتهم! »" رواه الطبري برقم ١٢٠٢٦

فأبو مجلز . لاحق ابن حميد الشيباني السدوسي .تابعي ثقة وكان يحب علياً رضي الله عنه وكان قوم أبو مجلز وهم بنو شيبان من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين واعتزلت الخوارج كان فيمن خرج على علي رضي الله عنه طائفة من بني شيبان ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل، وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس ــ كما في الأثر ــ وهم نفر من الإباضية ـ والإباضية جماعة من الخوارج وهم أصحاب عبد االله بن إباض التميمي وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم وفي تكفير علي رضي الله عنه إذ حكَّم الحكمين، وأن عليا لم يحكم بما أنزل االله في أمر التحكيم، ثم أن عبد االله بن إباض قال: من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك فخالف أصحابه، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم ثم افترقت الإباضية بعد عبد االله بن إباض افتراقا لا ندرى معه . في أمر هذين الخبرين . في أي الفرق كان هؤلاء السائلون بيد أن الإباضية كلها تقول: دور مخالفيهم دور توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر عندهم، ومن البيّن أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية **إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم االله عن ارتكابه** ولذلك قال لهم في (الخبر الأول)فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا. وقال لهم في (الخبر الثاني) إنهم يعملون بما يعلمون ويعلمون أنه ذنب.

والظاهر أن أبا مجلز كانت له مشاهد مع الخوارج وهو الذي روى خبرهم مع عليّ رضي الله عنه، في مصنف ابن أبي شيبة عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، قَالَ: نَهَى عَلِيٌّ أَصْحَابَهُ أَنْ يَسْطُوا عَلَى الْخَوَارِجِ حَتَّى يُحْدِثُوا حَدَثًا، فَمَرُّوا بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ فَأَخَذُوهُ ، فَمَرَّ بَعْضُهُمْ عَلَى تَمْرَةٍ سَاقِطَةٍ مِنْ نَخْلَةٍ فَأَخَذَهَا فَأَلْقَاهَا فِي فِيهِ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَمْرَةُ مُعَاهِدٍ ، فَبِمَ اسْتَحْلَلْتَهَا؟ فَأَلْقَاهَا مِنْ فِيهِ، ثُمَّ مَرُّوا عَلَى خِنْزِيرٍ فَنَفَحَهُ بَعْضُهُمْ بِسَيْفِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: خِنْزِيرُ مُعَاهَدٍ فَبِمَ اسْتَحْلَلْتَهُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ عَلَيْكُمْ حُرْمَةً مِنْ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: أَنَا فَقَدَّمُوهُ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ أَنْ أَقِيدُونَا بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ" الأثر برقم ٣٧٨٩٣

<u>ومن التابعين وغيرهم من تأول الآية على غير تأويلها:</u>

❁ فَمِنْهُمْ مَنْ تَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ جَاحِدًا لَهُ، **وَهُوَ قَوْلُ عِكْرِمَةَ**، وَهُوَ تَأْوِيلٌ مَرْجُوحٌ، فَإِنَّ نَفْسَ جُحُودِهِ كُفْرٌ، سَوَاءٌ حَكَمَ أَوْ لَمْ يَحْكُمْ، وهذا الذي رجحه الأشاعرة في تفاسيرهم كالرازي والقرطبي وغيرهم لأنه يتخرج على أصولهم في باب الإيمان.

وعكرمة لا يصح عنه هذا القول لأنه كان خارجياً إباضياً "قَالَ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عدي: حدثنا ابن أبي عصمة، قال: حدثنا أَبُو طَالِبٍ أَحْمَدُ بْنُ حُمَيْدٍ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ: كَانَ عِكْرِمَةُ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ يَرَى رَأْيَ الصُّفْرِيَّةِ، وَلَمْ يَدَعْ مَوْضِعًا إلا خَرَجَ إِلَيْهِ: خُرَاسَانَ، وَالشَّامِ، وَالْيَمَنِ، وَمِصْرَ، وَإِفْرِيقِيَةَ، كَانَ يَأْتِي الْأُمَرَاءَ فَيَطْلُبُ جَوَائِزَهُمْ، وَيُقَالُ: إِنَّمَا أَخَذَ أَهْلُ إِفْرِيقِيَةَ رَأْيَ الصُّفْرِيَّةِ مِنْ عِكْرِمَةَ،

وقَالَ مُصْعَبٌ الزُّبَيْرِيُّ: كَانَ يَرَى رَأْيَ الخوارج، وادّعى على ابن عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ، نَقَلَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ، عَنْ مُصْعَبٍ.

وَقَالَ خالد بن نزار الأيلي: حدثنا عُمَرُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ **أَنَّ عِكْرِمَةَ كَانَ إِبَاضِيًّا**." تاريخ بغداد ١٠٦/٣

❁ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالَ: وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْحُكْمُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ، وَهَذَا تَأْوِيلُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْكِنَانِيِّ، وَهُوَ أَيْضًا بَعِيدٌ، إِذِ الْوَعِيدُ عَلَى نَفْيِ الْحُكْمِ بِالْمُنَزَّلِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ تَعْطِيلَ الْحُكْمِ بِجَمِيعِهِ وَبِبَعْضِهِ، **وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِيدًا مَخْصُوصًا بِمَنْ خَالَفَ حُكْمَ اللَّه تَعَالَى فِي كُلِّ مَا أَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى لَمْ يَتَنَاوَلْ هَذَا الْوَعِيدُ الْيَهُودَ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ حُكْمَ اللَّه فِي الرَّجْمِ**.

وجه استدلال الخوارج بآية المائدة: والأصل في تكفير الخوارج أصحاب الكبائر هي آية المائدة فأبقوا اللفظ على ظاهره وصرفوه إلى غير مناطه، وأرادوا أن يدخلوا في (مَن) مطلق المخالفة الشرعية، ولم يكتفوا بتكفير الإمام بمعصيته لربه حتى يكفروا معه الرعية، وهذا أمر معلوم بطلانه من الدين بالضرورة، ولهذا أنكره التابعون وتابعوهم من أهل القرون الثلاثة الأولى وقالوا ما قالوا في تفسير هذه الآيات رداً عليهم، وكلامهم في هذا كان بحسب الحاجة الحاضرة، **قال قتادة:** «في الآيات الثلاث: ليست والله كما تأولها أهل الشبهات وأهل البدع وأهل الفرى على الله وعلى كتابه، وإنما أنزل ما تسمعون في أهل الكتاب حينما **نبذوا كتاب الله، وعطلوا حدوده، وتركوا أمره**، وقتلوا رسله" الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١/ ٢ ٩١، فمن نبذ كتاب الله وعطل حدوده وترك أمره قد دخل في ما ذكرناه من حد الحكم بغير ما أنزل الله في القضية لرشوة ونحوها.

وقال النيسابوري: " ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، **احتجت الخوارج بالآية على أن كل من عصى الله فهو كافر**" تفسير النيسابور ٥٩٦/٢.

وقال الرازي: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وَفِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَالَتِ الْخَوَارِجُ: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّه فَهُوَ كَافِرٌ. وَقَالَ جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، **أَمَّا الْخَوَارِجُ فَقَدِ احْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَقَالُوا: إِنَّهَا نَصٌّ فِي أَنَّ كُلَّ مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّه فَهُوَ كَافِرٌ، وَكُلُّ مَنْ أَذْنَبَ فَقَدْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّه**، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ كَافِرًا". تفسير الرازي ٣٦٨/١٢. وهذا النقل لبيان قول الخوارج في آية المائدة.

مسألة: القول في ولاة الجور في الأحكام: سبق تقرير أن الخوارج والمعتزلة يكفرون أئمة الجور ويستدلون بآية المائدة، قال القاضي أبو يعلى لما ذكر حجج الخوارج والمعتزلة على قولهم في مرتكب الكبيرة فقال:" احتجوا بأشياء منها: .... واحتج بقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وظاهر هذا يوجب إكفار أئمة الجور وهذا قولنا" مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى ص ٣٤٠، فهذه الآية حجتهم على تكفير أصحاب الكبائر ومنهم أئمة الجور.

ومنهج أهل الحديث والأثر عدم الخروج على الولاة وإن جاروا وظلموا، وهي من أصول أهل السنة والجماعة كما قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أصول السنة: "والسمع وَالطَّاعَة للأئمة وأمير الْمُؤمنِينَ الْبر والفاجر وَمن ولي الْخلَافَة وَاجْتمعَ النَّاس عَلَيْهِ وَرَضوا بِهِ وَمن عَلَيْهِم بِالسَّيْفِ حَتَّى صَار خَليفَة وَسمي أَمِير الْمُؤمنِينَ والغزو مَاض مَعَ الإِمَام إِلَى يَوْم الْقِيَامَة الْبر والفاجر لَا يتْرك وَقِسْمَة الْفَيْء وَإِقَامَة الْحُدُود إِلَى الْأَئِمَّة مَاض لَيْسَ لأحد أَن يطعن عَلَيْهِم وَلَا ينازعهم وَدفع الصَّدقَات إِلَيْهِم جَائِزَة نَافِذَة من دَفعهَا إِلَيْهِم أَجْزَأَت عَنهُ برا كَانَ أَو فَاجِرًا وَصَلَاة الْجُمُعَة خَلفه وَخلف من ولاه جَائِزَة بَاقِيَة تَامَّة رَكْعَتَيْنِ من أعادهما فَهُوَ مُبْتَدع" أصول السنة ١٨

والخوارج خالفوا أهل السنة في هذا الأصل فحكموا بكفر **الحاكم المسلم الجائر الذي يحكم بغير الحق اجتهاداً**، ومن ذلك ما أخرجه الآجري في الشريعة قال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا الْمُثَنَّى بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا **ابْنُ لَهِيعَةَ**، عَنْ عَطَاءِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾[آل عمران: ٧] قَالَ: " أَمَّا الْمُتَشَابِهَاتُ: فَهُنَّ آيٌ فِي الْقُرْآنِ يَتَشَابَهْنَ عَلَى النَّاسِ إِذَا قَرَءُوهُنَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يُضِلُّ مَنْ ضَلَّ مِمَّنِ ادَّعَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ، كُلُّ فِرْقَةٍ يَقْرَءُونَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا لَهُمْ أَصَابُوا بِهَا الْهُدَى وَمِمَّا تَتْبَعُ الْحَرُورِيَّةُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ وَيَقْرَءُونَ مَعَهَا: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام: ١]، **فَإِذَا رَأَوُا الْإِمَامَ يَحْكُمُ بِغَيْرِ الْحَقِّ** قَالُوا: قَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَفَرَ

الجور، وكلام كل طائفة يحمل على محمل معين، ويُرجع في مسألة الباب إلى اتفاق الصحابة، "وَقَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ وَغَيْرُهُ أَقْوَالُ التَّابِعِينَ فِي الْفُرُوعِ لَيْسَتْ حُجَّةً فَكَيْفَ تَكُونُ حُجَّةً فِي التَّفْسِيرِ؟ يَعْنِي أَنَّهَا لَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ وَهَذَا صَحِيحٌ أَمَّا إذَا أَجْمَعُوا عَلَى الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً فَإِنْ اخْتَلَفُوا فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَى بَعْضٍ وَلَا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ أَوْ السُّنَّةِ أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ **أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ**"[١]،وعن أبي عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ: «الِاتِّبَاعُ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّجُلُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ أَصْحَابِهِ ثُمَّ هُوَ بَعْدُ فِي التَّابِعِينَ مُخَيَّرٌ»[٢].

عَدَلَ بِرَبِّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ فَهَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ مُشْرِكُونَ، فَيَخْرُجُونَ فَيَفْعَلُونَ مَا رَأَيْتَ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ " **وهذا الأثر ضعيف** فيه ابن لهيعة قَالَ الدَّارمِيّ: قلت ليحيى: كَيفَ رِوَايَة ابْن لَهِيعَة عَن أبي الزبير؟ قَالَ: ابْن لَهِيعَة ضَعِيف الحَدِيث. وَمرَّة قَالَ: ابْن لَهِيعَة ضَعِيف. وَمرَّة: لَا يحْتَج بحَدِيثه. وقَالَ الْحميدِي عَن يحيى بن سعيد: كَانَ لَا يرَاهُ شَيْئا" مختصر الكامل في الضعفاء ٤٥٠/١

وهذا من المتشابه النسبي فآية المائدة اشتبهت على الخوارج فنزلوها على غير محملها وحملوا لفظها على عمومه كما سبق بيانه، أما مسألة الحكم بغير الحق اجتهاداً الذي هو الجور الواقع من الحكام على الرعية، فهي مسألة أخرى لا تدخل في هذا الباب البتة، فالحكم بغير الحق والاجتهاد المخالف للحق لا يخلو منه أحد إلا من عصمه الله تعالى، وهذا الباب يدخل فيه الخطأ في الحكم والتأويل الفاسد وتنزيل الأحكام على غير محلها كالقتل بغير حق وأداء الحقوق لغير أهلها، وبعض السياسات الظالمة التي يُخرجونها على وجه من أوجه الشريعة، كما قال الشاطبي:" وأَيضاً فإن كثيراً من الأُمراءِ يَحْتَجِنُون أموال المسلمين لأنفسهم اعْتِقَادًا مِنْهُمْ أَنها لَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ نَوْعًا مِنْ ذَلِكَ فِي الْغَنَائِمِ المأخوذة عُنْوةً مِنَ الْكُفَّارِ، فَيَجْعَلُونَهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ، ويَحْرِمون الْغَانِمِينَ مِنْ حُظُوظِهِمْ مِنْهَا **تأْويلاً عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالْعُقُولِ**، فَوَجْهُ الْبِدْعَةِ هَا هُنَا ظَاهِرٌ" الاعتصام ٤٤٤/٢، **وهذه من جملة المعاصي التي تقع من الأمراء والحكام** كما ورد عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿مَنْ وُلِّيَ عَلَيْهِ وَالٍ، **فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ**، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيةِ اللَّهِ، وَلا ينْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ﴾ رواه مسلم برقم ٦٦.

وعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ: دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: ﴿مِنْ هَاهُنَا؟ هَلْ تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ مَنْ بَعْدِي أُمَرَاءُ **يَعْمَلُونَ بِغَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ**، فَمَنْ شَارَكَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي عَمَلِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ﴾ رواه الطبراني في الأوسط ٧٤٦

وعن عبادة ابن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ﴾ رواه مسلم برقم ٤٢، والبخاري برقم ٧٠٥٦.

[١] انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٧٠/١٣

[٢] الفقيه والمتفقه ٤٣٩/١

وحمل لفظ الآية على الكفر الأصغر مخالف لقواعد اللغة[١] ودلالة عرف الشارع، وهي أن لَفْظَ الْكُفْرِ إِذَا أُطْلِقَ انْصَرَفَ إِلَى الْكُفْرِ فِي الدينِ لا كفر

[١] وذلك أنَّ الكفر في الآية جاء بصيغة الاسم المعرف بأل (الكافرون) الدال على حصول كمال المعنى، أي أنه الكفر الأكبر، والله سبحانه وتعالى قد أكد الكفر في هذه الآية وبالَغَ في وصفه وتغليظه بأسلوب هو من أقوى أساليب اللغة في إفادة المعنى ومن ذلك:

❁ مجيء الكفر بلفظ الاسم وهو دال على ثبوت الكفر ولزومه دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

❁ تصدير الاسم بالألف واللام لحصول كمال المسمى (الكافرون) بما يدل على أنه الكفر الأكبر.

❁ مجيء جملة جواب الشرط في صورة مبتدأ وخبر معرفتين (أولئك) (الكافرون) وذلك من علامات انحصار الخبر (الكفر) في المبتدأ (أولئك)، وهو اسم إشارة يعود على من لم يحكم بما أنزل لله، وانحصار الخبر المعرف بأل في المبتدأ فيه مبالغة في حصول كمال معناه في المحكوم عليه (وهو المبتدأ) أي مبالغة في حصول كمال الكفر لأولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله.. انظر (الإيضاح في علوم البلاغة) للقاضي جلال الدين القزويني، ص ١٠١)

❁ ومجيء المبتدأ في جملة جواب الشرط في صيغة اسم الإشارة (أولئك) زيادة في الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله (من لم يحكم ...) باستحقاق الكفر، انظر (الإيضاح) للقزويني ص٤٧.

❁ وتقديم المبتدأ على الخبر في جملة جواب الشرط وإن كان هو الأصل في اللغة إلا أنه يفيد في أن كون المبتدأ (أولئك) متصفا بالخبر (الكافرون) هو المطلوب بيانه، كما أن هذا التقديم يفيد زيادة تخصيص.

❁ وإدخال ضمير الفصل (هم) بين المبتدأ والخبر (أولئك هم الكافرون) يفيد اختصاص المبتدأ بالخبر، أي اختصاص أولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله بالكفر.

والخلاصة: أن أسلوب هذه الآية من جهة بنية ألفاظها وتركيبها بلغ الغاية في إفادة المعنى، وهو أن أولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله قد بلغوا الغاية في الكفر، كما ورد في رواية النسائي وصف الآية من أهل الكتاب في قولهم:" مَا نَجِدُ شَتْمًا أَشَدَّ مِنْ شَتْمٍ يَشْتِمُونَا هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . والأثر عند النسائي بسنده إلى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَتْ مُلُوكٌ بَعْدَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ بَدَّلُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَكَانَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ قِيلَ لِمُلُوكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَتْمًا أَشَدَّ مِنْ شَتْمٍ يَشْتِمُونَا هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وَهَؤُلَاءِ الْآيَاتُ مَعَ مَا يَعِيبُونَا بِهِ فِي أَعْمَالِنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ، فَجَمَعَهُمْ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ أَوْ يَتْرُكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ دَعُونَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً ثُمَّ ارْفَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ اعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا، فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ، وَنَهِيمُ وَنَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي، وَنَحْتَفِرُ الْآبَارَ، وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ، وَلَا نَمُرُّ بِكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ. قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[الحديد: ٢٧] وَالْآخَرُونَ قَالُوا: نَتَعَبَّدُ كَمَا تَعَبَّدَ فُلَانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلَانٌ، وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلَانٌ، وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ

النعمة، ولم يرد في كتاب الله مُراداً به الكفر الأصغر، فيُحمل اللفظ على معهود استعمال الشارع له[1]، قال عبد اللطيف بن عبدالرحمن بن حسن:" ولفظ الظلم و المعصية والفسوق والفجور والموالاة والمعاداة والركون

الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، انْحَطَّ رَجُلٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَجَاءَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَصَاحِبُ الدَّيْرِ مِنْ دَيْرِهِ، فَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨] أَجْرَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى وَبِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَبِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَصْدِيقِهِمْ. قَالَ: يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ الْقُرْآنَ، وَاتِّبَاعَهُمُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الحديد: ٢٩] يَتَشَبَّهُونَ بِكُمْ ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[الحديد: ٢٩] الْآيَةَ.

[1] والسلف الصالح ـ مع معرفتهم بمقاصد الشريعة وكونهم عرباً على السليقة ـ قد أخذوا بعموم اللفظ في بعض الصور وإن كان سياق الاستعمال يدل على خلاف ذلك، فقد يعتبرون العموم بحسب اللفظ الإفرادي وإن عارضه السياق، ولذلك حمل بعض التابعين لفظ آية المائدة في ردهم على الخوارج على الكفر الأصغر وهذا في مقابلة استدلال الخوارج باللفظ على غير مناطه، فلما استعمل الخوارج الآية في غير تنزيلها وعمموا اللفظ على المعاصي، توسع التابعون في الرد عليهم في استعمال اللفظ " الكافرون" في عمومه ليدخل فيه الأكبر والأصغر، ولهذا الموضع مثائل من كلام بعض الصحابة والتابعين واستدلالاتهم ومنها:

❁ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يتخذ الخشن من الطعام، ويلبس المرقع في خلافته، فقيل له :لو اتخذت طعاما ألين من هذا، فقال: أخشى أن تعجل طيباتي، يقول االله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[الأحقاف: ٢٠]، وجاء أنه قال لأصحابه وقد رأى بعضهم قد توسع في الإنفاق شيئًا: أين تذهب بكم هذه الآية :﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ ،وسياق الآية يقتضي أنها إنما نزلت في الكفار الذين رضوا الحياة الدنيا من الآخرة كما في قوله تعالى﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

❁ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، قَالَ: «الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلانَةُ، وَحَيَاتِي. وَيَقُولُ: لَوْلا كَلْبُهُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلا اللَّهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فلان، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ.» رواه ابن أبي حاتم برقم ٢٢٩.

وسياق الآية في الشرك الأكبر أي التنديد المطلق وحملها ابن عباس على مطلق التنديد، واستدل بها على بعض صور الشرك الأصغر.

وغير ذلك من الشواهد وفيها دلالة على صحة الأخذ بالعموم اللفظي وإن دل الاستعمال اللغوي أو السياق القرآني على خلافه، والمناط الذي قال بعض التابعين فيه كفر دون كفر هو في التكفير بالمعاصي دون غيرها مما نزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

والشرك ونحو ذلك من الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة قد يُراد بها مسماها المطلق وحقيقتها المطلقة، وقد يراد بها مطلق الحقيقة، والأول هو الأصل عند الأصوليين، والثاني لا يحمل عليه إلا بقرينة لفظية أو معنوية و إنما يعرف ذلك بالبيان النبوي و تفسير السنة، قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤][١].

المطلب الثالث: تبديل أحكام الله وشرائعه

إن تبديل أحكام الله وشرائعه بأحكامٍ وقوانين من وضع البشر، وجعلها حاكمة على عقائد الناس ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، وإماتة شريعة الله كاملةً هو الكفر البواح والشرك الصراح، وهي من المحادة لله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾[المجادلة ٢٠]، قال الطبري يقول تعالى ذكره: إن الذين يخالفون الله في حدوده وفرائضه، **فيجعلون حدودًا غير حدوده، وذلك هو المحادّة لله ولرسوله**"[٢]، ثم قال بعدها ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[المجادلة ٢١]، فلن تجد مؤمنا بالله يوادُّ هؤلاء المبدلين ويواليهم، وقال أبو زيدٍ في قوله: ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

[١] الرسائل المفيدة لعبد اللطيف، جمع سليمان بن سحمان، ص ٢١ ٢٢ ومعنى حقيقته المطلقة أي الكاملة، ومعنى مطلق الحقيقة أي أدنى ما يُطلق عليه، وبالنسبة للكفر فحقيقته المطلقة وهي الأصل في خطاب الشارع عند الأصوليين هي الكفر الكامل أي الأكبر، ولا يُحمل على مطلق حقيقته أي الكفر الأصغر إلا بدليل من كتاب أو سنة وهذا منتف بالنسبة لآية المائدة.

[٢] تفسير الطبري ٢٣/ ٢٣٥

وَرَسُولُهُۥ ﴾ «**لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل حرفوهما و أتوا بأحكام كثيرة من قبل أنفسهم**»[١].

وصورة التبديل ليست محل نزاع بين السلف البتة ولا من جاء بعدهم، بل لم يقع في تاريخ الأمة هذا التبديل العام إلا ما يُحكى عن التتار ونُقل فيه الإجماع على كفرهم[٢]، وفي مثلها نزلت آيات المائدة كما جاء في حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: هِيَ فِي الْكُفَّارِ كُلِّهَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ»[٣] فعبر النبي ﷺ عن فعل اليهود بالإماتة لحكم الله، كما هو حال طواغيت هذا الزمان الذين بدلوا دين الله بزبالات عقول الفلاسفة وسلكوا سنن أهل الكتاب نحو القذة بالقذة، وصدق فيهم حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤]، قال:« نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لكم كل حُلْوة، ولهم كل مُرَّة!! **ولتسلُكُنَّ طريقَهم قِدَى الشِّراك**»[٤]، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْخُشُوعُ وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ وَلَيُصَلِّيَنَّ النِّسَاءُ وَهُنَّ حُيَّضٌ وَلَيُنْقَضَنَّ الْإِسْلَامُ عُرْوَةً عُرْوَةً ، وَلَتَرْكَبُنَّ طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَحَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ **لَا تُخْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ ، وَلَا يَخْطَأُ بِكُمْ**»[٥].

---

[١] اللباب في علوم الكتاب ٦٤/١٠

[٢] قال ابن كثير:" فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوخَةِ كَفَرَ، فَكَيْفَ بِمَنْ تحاكم إلى الياسا وَقَدَّمَهَا عَلَيْهِ؟ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَفَرَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمن أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥: ٥٠ وَقَالَ تَعَالَى فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً." البداية والنهاية ١١٩/١٣

[٣] السنن الكبرى للنسائي برقم ٧١٨٠

[٤] رواه الطبري برقم ١٢٠٢٧

[٥] الإبانة الكبرى لابن بطة ٥٧١/٢

وَأَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ يَتَنَاوَلُ الْيَهُودَ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي وَاقِعَةِ الرَّجْمِ، كما وردت به الآثار[1] في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[المائدة:٤١] والمتقرر في الأصول أن صورة السبب قطعية الدخول، قال في الاتقان " فَإِنَّ دُخُولَ صُورَةِ السَّبَبِ قَطْعِيٌّ وَإِخْرَاجُهَا بِالاجْتِهَادِ مَمْنُوعٌ كَمَا **حَكَى الْإِجْمَاعَ** عَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي التقريب ولا التفات إِلَى مَنْ شَذَّ فَجَوَّزَ ذَلِكَ"[2].

وقال ابْنَ زَيْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ قَالَ: «هَؤُلاءِ الْيَهُودُ كَتَبُوا كِتَابًا ضَادُّوا بِهِ كِتَابَ اللَّهِ يُقَالُ لَهُ الْمَثْنَاةُ الْمُحِقُّ فِيهَا مُبْطِلٌ فِي التَّوْرَاةِ، وَالْمُبْطِلُ فِيهَا مُحِقٌّ فِي التَّوْرَاةِ»[3]،

---

[1] روى الامام أحمد في مسنده قال حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: مُرَّ عَلَى رَسُولِ ﷺ، بِيَهُودِيٍّ حَمَّمٍ مَجْلُودٍ، فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: " أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ " فَقَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: " أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ " فَقَالَ: لَا وَاللهِ، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَنْشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِنَا الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ، تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ، أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، فَقُلْنَا: تَعَالَوْا حَتَّى نَجْعَلَ شَيْئًا نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَى التَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ " قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾المائدة: ٤١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾[المائدة: ٤١] يَقُولُونَ: ائْتُوا مُحَمَّدًا فَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالتَّحْمِيمِ، وَالْجَلْدِ، فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ، فَاحْذَرُوا، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] قَالَ فِي الْيَهُودِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[المائدة: ٤٧] قَالَ: هِيَ فِي الْكُفَّارِ ﴾ وفي رواية عند مسلم في صحيحه قال حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، قَالَ يَحْيَى: أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ به وفيه .... فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ، وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ﴾.

[2] الإتقان في علوم القرآن ١٠٧/١.

[3] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ٨٤٩٦.

وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام : ﴿ فَسَأَلت رجلا من أهل الْعلم بالكتب الأُوَل قد عرفهَا وَقرأَهَا عَن المَثْناة فَقَالَ: إِن الْأَحْبَار والرهبان من بني إِسْرَائِيل بعد مُوسَى وضعُوا كتابا فِيهمَا بَينهم على مَا أَرَادوا من غير كتاب الله تبَارك وَتَعَالَى فسَمَّوه الْمُثَنَّاة كَأَنَّهُ يَعْنِي أَنهم أحلّوا فِيهِ مَا شاؤا وحرموا فِيهِ مَا شاؤا على خلاف كتاب الله تبَارك وَتَعَالَىَ﴾[1].

وإن كان من المتقدمين من قال عن مانعي الزكاة أنهم أرادوا تبديل الدين وأحكامه فكيف بمن بدل الدين كله!! قال البخاري رحمه الله تعالى: "وَكَانَتِ الأَئِمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي الأُمُورِ المُبَاحَةِ لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا، فَإِذَا وَضَحَ الكِتَابُ أَوِ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ، اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ وَرَأَى أَبُو بَكْرٍ قِتَالَ مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَا جَمَعَ رَسُولُ ﷺ «ثُمَّ تَابَعَهُ بَعْدُ عُمَرُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَشُورَةٍ إِذْ كَانَ عِنْدَهُ حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ **وَأَرَادُوا تَبْدِيلَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ**» وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ﴾ وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةِ عُمَرَ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2].

وما وقع فيه الناس اليوم أشد مما وقع فيه اليهود بالأمس بمفاوز، إنه الإلحاد في الحاكمية والتشريع كما سبق بيانه، فدخوله في صورة السبب من باب أولى وأحرى، وإن كان السلف قد حكموا بكفر من حكم أو أفتى بكتاب الحيل لأبي حنيفة، فكيف بمن حكم بكتاب جيرمي بنثام[3] فيلسوف اللّذة الحاكم في دماء الناس وأعراضهم وأموالهم في هذا الزمان.

---

[1] غريب الحديث ٢٨٢/٤.

[2] صحيح البخاري ١١٣/٩

[3] جيريمي بنثام عاش في الفترة (١٥ فبراير ١٧٤٨ - ٦ يونيو ١٨٣٢) هو عالم قانون وفيلسوف إنكليزي، ومصلح قانوني واجتماعي، وكان المنظر الرائد في فلسفة القانون الأنجلو-أمريكي. شملت مواقفه الحجج المؤيدة للفرد، والحرية الاقتصادية، الفائدة،

ومن الآثار في حكم الإفتاء والعمل بكتب الحيل:

❁ قال عبد الله ابن المبارك: «من نظر في كتاب الحيل لأبي حنيفة أحل ما حرم الله، وحرم ما أحل الله»[١].

❁ وقال ابن المبارك: «من كان كتاب الحيل في بيته يفتي به أو يعمل بما فيه فهو كافر، بانت امرأته، وبطل حجه، قال: فقيل له: إن في هذا الكتاب إذا أرادت المرأة أن تختلع من زوجها ارتدت عن الإسلام حتى تبين، ثم تراجع الإسلام، فقال عبد الله: من وضع هذا فهو كافر، بانت منه امرأته، وبطل حجه، فقال له خاقان المؤذن: ما وضعه إلا إبليس، قال: الذي وضعه عندي أبلس من إبليس»[٢].

❁ وقال الْأَوْزَاعِي: «مَنْ أَخَذَ بِنَوَادِرِ الْعُلَمَاءِ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ»[٣]، فكيف بمن أخذ بقوانين أعداء الله من أهل الكتاب؟.

والفصل بين الكنيسة والدولة، حرية التعبير، والمساواة في الحقوق للمرأة، الحق في الطلاق، وعدم تجريم أفعال المثلية الجنسية كما طالب بإلغاء الرق وعقوبة الإعدام وإلغاء العقوبات البدنية، بما في ذلك للأطفال.

ويُعرّف بنثام بأنه «البديهية الأساسية» لفلسفته المُتمحورة حول المبدأ الذي ينصّ على «**أن السعادة المطلقة لأكبر عدد من الأشخاص هي مقياس الصواب والخطأ**»، وأصبح بنثام واضع نظريات رائدًا في الفلسفة القانونية الأنجلوأمريكية، والراديكالي السياسي الذي أثرت أفكاره في تطور النزعة الاتكالية، وقد دافع عن الحريات الفردية والاقتصادية وفصل الكنيسة عن الدولة وحرية التعبير والمساواة في حقوق المرأة والحق في الطلاق.

[١] تاريخ بغداد ١٥/٥٥٨

[٢] نفس المصدر

[٣] السنن الكبرى للبيهقي برقم ٢٠٩١٨ وروى بسنده قال سَمِعْتُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِسْحَاقَ الْقَاضِي يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَى الْمُعْتَضِدِ، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا نَظَرْتُ فِيهِ وَكَانَ قَدْ جَمَعَ لَهُ الرُّخَصَ مِنْ زَلَلِ الْعُلَمَاءِ، وَمَا احْتَجَّ بِهِ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ، **فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُصَنِّفُ هَذَا الْكِتَابِ زِنْدِيقٌ**، فَقَالَ: أَلَمْ تَصِحَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ؟ قُلْتُ: " الْأَحَادِيثُ عَلَى مَا رُوِيَتْ وَلَكِنَّ مَنْ أَبَاحَ الْمُسْكِرَ لَمْ يُبِحِ الْمُتْعَةَ، وَمَنْ أَبَاحَ الْمُتْعَةَ لَمْ يُبِحِ الْغِنَاءَ وَالْمُسْكِرَ، وَمَا مِنْ عَالِمٍ إِلَّا وَلَهُ زَلَّةٌ، **وَمَنْ جَمَعَ زَلَلَ الْعُلَمَاءِ ثُمَّ أَخَذَ بِهَا ذَهَبَ دِينُهُ** " فَأَمَرَ الْمُعْتَضِدُ فَأُحْرِقَ ذَلِكَ الْكِتَابُ ".

❁ وقال الشَّعْبِي:« وَاللَّهِ لَئِنِ اتَّخَذْتُمْ بِالْمَقَايِيسِ لَتُحَرِمُنَّ الْحَلَال ولتحلن الْحَرَام»[١].

❁وقال أَبي عَبْدِ اللَّهِ: «هَذِهِ الْحِيَلُ الَّتِي وَضَعَهَا هَؤُلَاءِ - أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ - عَمَدُوا إِلَى السُّنَنِ فَاحْتَالُوا فِي نَقْضِهَا، أَتَوْا إِلَى الَّذِي قِيلَ لَهُمْ إِنَّهُ حَرَامٌ وَاحْتَالُوا فِيهِ حَتَّى أَحَلُّوهُ»[٢].

❁ وقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ ابْنِ الْمُبَارَكِ يَوْمًا إِذْ دَخَلَ حَمْزَةُ الْبَزَّازُ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «حَدَثَ حَدَثٌ عَظِيمٌ، قَال: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: بِنْتُ أَبِي رَوْحٍ ارْتَدَّتْ عَنِ الإِسْلامِ، لِتَبِينَ مِنْ زَوْجِهَا، فَغَضِبَ ابْنُ الْمُبَارَكِ غَضَبًا مَا غَضِبَ مِثْلَهُ قَطُّ، ثُمَّ قَالَ: لا جَرَمَ، قَدْ أَحْبَطَ اللَّهُ كُلَّ حَسَنَةٍ عَمِلَتْهَا إِلَى الْيَوْمِ وَبَقِيَ الْوِزْرُ، ثُمَّ قَالَ: أَوْ قِيلَ: هَذَا كِتَابُ الْحِيَلِ، فَقَال: لَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَرَى هَذَا الْكِتَابَ، فَلا يُقْضَى لِي أَنْ أَرَاهُ فَأَعْلَمَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى مَنْ وَضَعَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِحِيلَةِ النِّسَاءِ لِتَبِينَ مِنْ زَوْجِهَا إِذَا أَرَادَتْ، إِنَّهُ كَافِرٌ بِاللَّهِ: ثُمَّ قَالَ: وَذَلِكَ لَوْ أَنِّي أَمَرْتُ رَجُلا أَنْ يَكْفُرَ فَكَفَرَ بِقَوْلِي، كُنْتُ أَنَا الْكَافِرَ»[٣].

وقال الشاطبي:" وإنما وُضِعَ هَذَا الْكِتَابُ وأمثاله لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَى زَعْمِهِمْ فِي أَن يَحْتَالُوا لِلْحَرَامِ حَتَّى يصير حلالاً، وللواجب حتى يصير غَيْرَ وَاجِبٍ، وَمَا أشبه ذَلِكَ مِنَ الأُمور الْخَارِجَةِ عَنْ نِظَامِ الدِّينِ، كَمَا أجازوا نِكَاحَ الْمُحَلِّلِ، وَهُوَ احتيالٌ عَلَى رَدّ الْمُطَلَّقَةِ ثَلَاثًا لِمَنْ طَلَّقَهَا، وأجازوا إسقاط فَرْضِ الزَّكَاةِ بِالْهِبَةِ المستعارة، وأشباه ذلك"[٤].

---

[١] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٣٥٨

[٢] الحيل لابن بطة ٥٣/١

[٣] أخبار الشيوخ وأخلاقهم برقم ٢٨٢

[٤] الاعتصام ٤٤٢/٢

المطلب الرابع: التحاكم إلى الطواغيت الحاكمين بغير ما أنزل اللّه

التحاكم: هو إسنادُ القضاء إلى حاكم لفصل النزاع القائم بين الاثنين[١] المتنازعين أو أكثر، ويقع بطلب[٢] الفصل بين المتنازعين من جهة المدعي والاستجابة من جهة المدعى عليه، **فمن رد النزاع والخصومة إلى الكتاب والسنة فقد أفرد الله في عبادة التحاكم**، ومن رد النزاع إلى غير شرع من أحكام الجاهلية والطواغيت فقد أشرك بالله في العبادة.

قال ابن منظور:" وحاكَمَهُ إِلى الحَكَمِ: **دَعَاهُ**"[٣].

وَقَالَ اللَّيْث: وَيُقَال: حَكَّمْنَا فلَانا بَيْننَا أَي أَجَزْنا حكمه بَيْننَا. وحاكمنا فلَانا إِلَى الله **أَي دعوناه إِلَى حكم الله**"[٤].

والتحاكم إما أن يكون إلى سلطان البلد الذي يُستعدى إليه في حق كافة الناس، أو بالتحكيم: وهو "عبارة عن تصيير غيره حاكما فيكون الحكم في حق ما بين الخصمين كالقاضي في حق كافة الناس، وفي حق غيرهما بمنزلة الصلح، لأنه إنما صار حَكَمًا بتراضي الخصمين، وتراضيهما عامل في حقهما ولم يعمل في حق غيرهما لأن لهما ولاية على نفسهما لا على غيرهما"[٥].

ويدل على أن الإجابة إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عبادة والإعراض عنه كفربالله تعالى وهو من صفة المنافقين وأعداء الله من أهل الكتاب، قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

---

[١] قال الجرجاني **وتَفَاعَلَ لمُشَارَكَةِ أمْرَيْنِ فصاعداً في أصلهِ صريحاً، نحو: تَشَارَكَ، ومِنْ ثَمَّ نقصَ مفعولاً عن "فَاعَلَ"، وليدلَّ على أنَّ الفاعلَ أظهرأنّ أصلَه حاصل له، وهو مُنْتَفٍ، نحو: تَجَاهَلْتُ وتَغَافَلْتُ**" المفتاح في الصرف ١/ ٥٠

[٢] **وقلنا أنه طلب لأن القضاء يُستعدى إليه** كما قال ذلك أبو يعلى الفراء حال ذكره الفروق بين ولاية القضاء وولاية الحسبة :" وما الْوَجْهَانِ فِي زِيَادَتِهَا عَلَى أَحْكَامِ الْقَضَاءِ فَأَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَجُوزُ لِلنَّاظِرِ فِيهَا أَنْ يَتَعَرَّضَ لِتَصَفُّحِ مَا يَأْمُرُ بِهِ مِنْ الْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنْهُ من المنكر، وإن لم يحضره خصم يستعدي، وَلَيْسَ لِلْقَاضِي أَنْ يَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ إلَّا بِحُضُورِ خَصْمٍ يَجُوزُ لَهُ سَمَاعُ الدَّعْوَى مِنْهُ، فَإِنْ تَعَرَّضَ الْقَاضِي لِذَلِكَ خَرَجَ عَنْ مَنْصِبِ وِلَايَتِهِ وَصَارَ مُتَجَوِّزًا فِي قَاعِدَةِ نَظَرِهِ. وَالثَّانِي: أَنَّ لِلنَّاظِرِ فِي الْحِسْبَةِ مِنْ سَلَاطَةِ السَّلْطَنَةِ وَاسْتِطَالَةِ الحماة فيما يتعلق بِالْمُنْكَرَاتِ مَا لَيْسَ لِلْقُضَاةِ، لِأَنَّ الْحِسْبَةَ مَوْضُوعَةٌ على الرهبة، فَلَا يَكُونُ خُرُوجُ الْمُحْتَسِبِ إلَيْهَا بِالسَّلَاطَةِ وَالْغِلْظَةِ تَجَوُّزًا فِيهَا وَلَا خَرْقًا، وَالْقَضَاءُ مَوْضُوعٌ لِلْمُنَاصَفَةِ، فهو بالأناة والوقار أخص" الأحكام السلطانية ١/ ٢٨٦

[٣] لسان العرب ١٢/ ١٤٢

[٤] تهذيب اللغة ٤/ ٧١

[٥] أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء ١/ ٨٦

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٧ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[النور٤٨]، **وقوله تعالى:**﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾[آل عمران٢٣]ن **وكقوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾[الأحقاف٣]، **فنفى الله الإيمان عمن ترك الاحتكام إلى رسول الله وأعرض عنه**، قال أبو جعفر :﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ **يقول:** وليس قائلوا هذه المقالة، يعني قوله: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ﴾ بالمؤمنين؛ **لتركهم الاحتكام إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عنه إذا دعوا إليه**."[1]، وقال الجصاص:" وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ـــ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ـــ **دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ أَوَامِرِ رَسُولِهِ ﷺ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْإِسْلَامِ سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ فِيهِ أَوْ مِنْ جِهَةِ تَرْكِ الْقَبُولِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ التَّسْلِيمِ وَذَلِكَ يُوجِبُ صِحَّةَ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي حُكْمِهِمْ بِارْتِدَادِ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَتْلِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمْ** لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَضَاءَهُ وَحُكْمَهُ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ"[2].

وفي الآية بيان صفة المنافقين التي هي الإعراض عن التحاكم إلى رسول الله حين الدعوة إليه كما ورد في تفسير السلف:

۞ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَوْلُهُ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ قَالَ:« هَؤُلاءِ المنافقين»[3].

[1] تفسير الطبري ٢٠٥/١٩

[2] أحكام القرآن للجصاص ١٨١/١

[3] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٤٧٣١

۞ وعَــنِ ابْــنِ عَبَّــاسٍ قَــالَ:« ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ﴾قَــالُوا: بَــلْ نُحَاكِمُكُمْ إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ»[١].

۞ وعَنْ قَتَادَةَ قوله: ﴿ مُّعۡرِضُونَ﴾ قَالَ:« عَنْ كِتَابِ اللَّهِ»[٢].

أقــول: وإذا كانـت الإجابـة إلى التحـاكم إلى كتـاب اللـه وسـنة رسـول اللـه عبـادة، فصـرف هـذه العبـادة إلى غير شـرع اللـه كفـر، وإجابـة الـدعوة إلى التحـاكم إلى غير اللـه ورسـوله إذا دُعيَّ إليها كفـر باللـه تعـالى لأنها صـرف العبـادة لغير اللـه والإعراض عنه هو الإيمان.

والتحـاكم داخـلٌ في حـد العبـادة التي هي: "الخضـوعُ للـه بالطاعـة، والتـذلل لـه بالاسـتكانة"[٣]، إذ هـو خضـوعٌ للـه بالطاعـة أي: طاعـة اللـه بـرد النزاع لكتابـه وسـنة رسـوله ﷺ وحـده دونمـا سـواه كمـا قـال تعـالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النِّسَاء:٥٩] ، وعَــنْ أَبِــي هُرَيْــرَةَ، أَنَّ رَسُــولَ اللَّــهِ ﷺ قَضَــى فِـي امْـرَأَتَيْنِ مِـنْ هُـذَيْلٍ اقْتَتَلَتَـا، فَرَمَـتْ إِحْـدَاهُمَا الأُخْرَى بِحَجَـرٍ، فَأَصَـابَ بَطْنَهَـا وَهِيَ حَامِـلٌ، فَقَتَلَـتْ وَلَـدَهَا الَّـذِي فِي بَطْنِهَـا، **فَاخْتَصَـمُوا إِلَى النَّبِيِّ** ﷺ، فَقَضَـى: أَنَّ دِيَـةَ مَـا فِي بَطْنِهَـا غُـرَّةٌ عَبْـدٌ أَوْ أَمَـةٌ، فَقَـالَ وَلِيُّ المَـرْأَةِ الَّتِي غَرِمَـتْ: كَيْـفَ أَغْـرَمُ، يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، مَـنْ لاَ شَـرِبَ وَلاَ أَكَـلَ، وَلاَ نَطَـقَ وَلاَ اسْـتَهَلَّ، فَمِثْـلُ ذَلِـكَ يُطَـلُّ، فَقَـالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الكُهَّانِ»[٤].

وعَـنْ عَـامِرٍ، قَـالَ: كَانَ بَـيْنَ عُمَـرَ وَأُبَـيٍّ رَضِـيَ اللـهُ عَنْهُمَـا **خُصُـومَةٌ فِي حَـائِطٍ**، فَقَـالَ عُمَـرُ رَضِـيَ اللـهُ عَنْـهُ: بَيْنِي وَبَيْنَـكَ زَيْـدُ بْـنُ ثَابِـتٍ، فَانْطَلَقَـا فَطَـرَقَ عُمَـرُ الْبَـابَ فَعَـرَفَ زَيْـدٌ صَـوْتَهُ فَفَـتَحَ الْبَـابَ فَقَـالَ: يَـا أَمِيرَ الْمُـؤْمِنِينَ أَلَا بَعَثْـتَ إِلَيَّ حَتَّى آتِيَـكَ؟ فَقَالَ: " **فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكَمُ** "[٥].

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٤٧٣٦

[٢] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٤٧٣٧

[٣] ذكره الطبري في تفسيره ٣٦٣/١

[٤] رواه البخاري برقم ٥٧٥٨ ومسلم برقم ١٦٧١

[٥] رواه النسائي في الكبرى برقم ٢٠٥١٢

والتحاكُم إلى الطاغُوت كُفرٌ يزولُ به أصل الإيمان والتَّوحيد، لأنَّ الحُكم والأمر لله، ومن أفرد الله بذلك وانقاد لأوامره وخضع لأحكامه وتحاكم لكتابه فهُو المُسلمُ المُوحد، ومن تحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد أشرك بالله في عبادته، ولا يُشترطُ للمُتحاكم اعتقادُ أنَّ شريعةَ الطاغُوت أفضلُ من شريعة الله، أو أنَّ أمر الطاغوت واجب الاتِّباع، أو الرضى بالتحاكم إلى الطاغوت، بل يصيرُ المرء مُتحاكماً بفعل التَّحاكُم قولاً أو فعلاً على جهة الاختيار، أي: قولاً بالطلب أو فعلاً بالاستجابة، ويكفُر بمجرَّد الإرادة ـ أي الطلب ـ دون الفعل ولو لم يقصُد الكفُرَ بالله تعالى، إذ من قال أو فعل ما هو كفر كفَرَ بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافراً، وهنا قد صرف العبادة لغير الله، وهذا العمل مكفر بذاته ولا يشترط فيه الرضا للكفر أو الاستحلال، كما هو منطوق القرآن وأصلٌ متقرر في باب الإيمان عند السلف، إذ لا يقصد الكفر أحدٌ إلا ما شاء الله، وصرف العبادة العملية إلى الطاغوت كفر كصرف السجود والدعاء إلى الأوثان والقبور، فمن اشترط الرضى أو قصد الكفر في الدعاء فهو جهمي كذلك من اشترط الرضى والاستحلال في التحاكم إلى غير شرع الله.

والله عزَّ وجلَّ كفّر بإرادة التحاكم إلى الطاغوت دون فعلها، وإرادة التحاكم في الآية هي طلب التحاكم إلى الطاغوت كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ **وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: «تَنَازَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ:** ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٦٠]، **وَهُوَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ**»[1]، وقال مجاهد وغيره:« المراد بهذه الآية ـ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ ـ من تقدم ذكره ممن **أراد التحاكم إلى الطاغوت**

[1] تفسير مجاهد ٢٨٥/١

وفيهم أنزلت»[١]، فطلب التحاكم إلى الطاغوت دون فعله كفر فكيف بالتحاكم نفسه.

ونقول أن التحاكم في استرداد الحقوق قد ورد في سبب نزول آية النساء، فعن المعتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حضرميٌّ أن رجلا من اليهود كان قد أسلم، **فكانت بينه وبين رجل من اليهود مدارأة في حق،** فقال اليهودي له: انطلق إلى نبي الله، فعرف أنه سيقضي عليه. قال: فأبى، فانطلقا إلى رجل من الكهان فتحاكما إليه، قال الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء ٦٠]"[٢].

ونقول كذلك أن التحاكم إلى الطاغوت في القضية سواء و افق حكم الله أو خالفه هو من صور العبادة له، وقد وردت هذه الصورة في سبب نزول آية النساء: فعَنِ الضَّحَّاكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ٥١] ، **يَعْنُونَ بِذَلِكَ الْيَهُودَ، جَعَلُوا كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ وَحُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ حَكَمَيْنِ، مَا حَكَمَا مِنْ شَيْءٍ خِلَافَ كِتَابِ اللَّهِ أَوْيُوَ افِقُ كِتَابَ اللَّهِ رَضُوا بِهِ،** وَتَرَكُوا الْكِتَابَ الَّذِي عِنْدَهُمْ، فَزَعَمَا وَأَهْلُ دِينِهِمَا أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ أَهْدَى سَبِيلًا مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَلَى هُدًى مِنَ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ

[١] الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي ٢٦٦/٥

[٢] رواه الطبري في تفسيره برقم ٨٩٩٤

فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾[النساء:٥٢]، قَالَ جُوَيْبِرٍ: حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ: الْجِبْتُ، وَكَعْبٌ: الطَّاغُوتُ "[١].

ومن الأدلة الواضحات والحجج البينات على أن صرف التحاكم للطاغوت إيمانٌ به وشرك بالله ما يلي:

❁ **قال تعالى**: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[النساء٦٠].

ومن أوجه الاستدلال بالآية:

١- أن الله جل وعلا أضاف التحاكم للطاغوت وأمر بالكفر به في قوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ ﴾، **كما أضاف العبادة إلى الطاغوت وأمر باجتنابه في قوله**: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾[الزمر١٧]، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذه في غاية الوضوح والظهور وهي كافية شافية لأهل التجرد والاتباع.

و الطاغوت هو كل ما عبد من دون الله، فدل على أن صرف التحاكم للطاغوت عبادة له من دون الله، قال عبد الرحمن بن حسن:" قال الإمام مالك -رحمه الله-: "الطاغوت ما عُبد من دون الله"، كذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، **وجعل لله شريكا في الطاعة**، وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ

[١] تاريخ بن شبة ٢/٤٥٣

بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾. وقولــه تعــالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾، فمــن خــالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعا لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله: ﴿ يَزۡعُمُونَ﴾ من نفي إيمانهم؛ فإن﴿ يَزۡعُمُونَ﴾ إنما يقال غالبا لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﴿ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد كما في آية البقرة، فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً، والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه، كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٥٦]، **وذلك أنَّ التحاكم إلى الطاغوت إيمان به**."[١].

٢ ـ أنَّ الله جل وعلا سمى ادعاء المتحاكم للإيمان زعماً، والزعم هو الخبر الكاذب[٢]، فدل على أن التحاكم ينقض الإيمان ويُصيِّره زعما لا حقيقة له، يقول سليمان بن عبد الله: "وفي الآية دليل على ترك التحاكم إلى الطاغوت الذي هو ما سوى الكتاب والسنة من الفرائض، وأن المتحاكم إليه غير مؤمن بل ولا مسلم."[٣].

---

[١] فتح المجيد ٣٩٣/١

[٢] "وَالزَّعْمُ: خَبَرٌ كَاذِبٌ، أَوْ مَشُوبٌ بِخَطَإٍ، أَوْ بِحَيْثُ يَتَّهِمُهُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَعْشَى لَمَّا قَالَ يمدح قيسا بْنَ مَعْدِ يكَرِبَ الْكِنْدِيَّ:
وَنُبِّئْتُ قَيْسًا وَلَمْ أَبْلُهُ ... كَمَا زَعَمُوا خَيْرَ أَهْلِ الْيَمَنْ
غَضِبَ قَيْسٌ وَقَالَ: «وَمَا هُوَ إِلَّا الزَّعْمُ» ، وَقَالَ تَعَالَى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا [التغابن: ٧] ، وَيَقُولُ الْمُحَدِّثُ عَنْ حَدِيثٍ غَرِيبٍ فَزَعَمَ فُلَانٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ كَذَا، أَيْ لِإِلْقَاءِ الْعُهْدَةِ عَلَى الْمُخْبِرِ، وَمِنْهُ مَا يَقَعُ فِي كِتَابِ سِيبَوَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ زَعَمَ الْخَلِيلُ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: الزَّعْمُ مَطِيَّةُ الْكَذِبِ." التحرير والتنوير ١٠٤/٥

[٣] تيسير العزيز الحميد ص ٤١٩

٣ـ قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ يفسره قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، فمن تحاكم إلى الطاغوت لم يكفر به، ومن لم يكفر بالطاغوت فهو مؤمن به كافر بالله تعالى لم يستمسك بالعروة الوثقى، قال عبدالرحمن بن حسن عند ذكر قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾الآية قال: "**وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به**"[١]، " وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يَكْفُرَ بِالطَّاغُوتِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وَمَفْهُومُ الشَّرْطِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَهُوَ كَذَلِكَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْإِيمَانِ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، **وَالْإِيمَانُ بِالطَّاغُوتِ يَسْتَحِيلُ اجْتِمَاعُهُ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، لِأَنَّ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ شَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَوْ رُكْنٌ مِنْهُ**، كَمَا هُوَ صَرِيحُ قَوْلِهِ: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ الْآيَةَ"[٢].

٤ـ أن التحاكم للطاغوت مما أمر به الشيطان كما في قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ۝٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾[النساء٦٢]، قال عبد الرحمن بن حسن:" أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه، وبيّن أن ذلك مما أضلّ به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدلّ على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

ففي هذه الآية أربعة أمور:

---

[١] فتح المجيد ص ٣٤٥.

[٢] أضواء البيان ٣٤٥/١

الأول: أنه من إرادة الشيطان. الثاني: أنه ضلال. الثالث: تأكيده بالمصدر. الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى. فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه! وما أدلّه على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين ﷺ"[١].

٥- أن الله سمى التحاكم إلى الطاغوت بالضلال البعيد: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾، والضلال البعيد هو ضلال الشرك كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء١١٦]، وهي ظاهرة في الاستدلال بتفسير القرآن بالقرآن.

❁ **وقال تعالى:** ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾، **قال مجاهد وغيره:« المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم إلى الطاغوت وفيهم أنزلت»**[٢]، وعن الضحاك في قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾، قال: إثمًا ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ يقول: ويسلّموا لقضائك وحكمك، **إذعانًا منهم بالطاعة،** وإقرارًا لك بالنبوة تسليمًا"[٣]، **وقال البغوي:** ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ أي: ينقادوا لأمرك انقيادا"[٤]

وأوجه الاستدلال بالآية ما يلي:

١- سمى الله تعالى تحكيم النبي ﷺ في موارد النزاع إيمان كما في قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ

---

[١] فتح المجيد ٣٩٣/١

[٢] الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي ٢٦٦/٥

[٣] رواه الطبري في تفسيره برقم ٩٩١١

[٤] تفسير البغوي ٦٥٧/١

وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[النور٥١]، وأقسم الله بذاته العلية وأكدها بالمؤكدات على نفى الإيمان حتى يكون المرءُ مُحكماً لرسوله ﷺ في جميع موارد النزاع، وهذا القسم العظيم والتأكيد الوثيق فيمن ترك التحكيم وأعرض عنه فكيف بمن حكَّم غير شرع الله وألزم الناس بحكمه !!!، أو من تحاكم إلى غير شرع الله اختياراً.

قال ابن حزم:" فنص تعالى نصا جليا لا يحتمل تأويلا، وأقسم تعالى بنفسه أنه لا يؤمن أحد إلا من حكم رسوله ﷺ فيما شجر بينه وبين غيره، ثم يسلم لما حكم به عليه السلام، ولا يجد في نفسه حرجا مما قضى"[٣].

وقال ابن كثير:" "يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ: أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّم الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَمَا حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الِانْقِيَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ أَيْ: إِذَا حَكَّمُوكَ يُطِيعُونَكَ فِي بَوَاطِنِهِمْ فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتَ بِهِ، وَيَنْقَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ **فَيُسَلِّمُونَ لِذَلِكَ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا مِنْ غَيْرِ مُمَانِعَةٍ وَلَا مُدَافِعَةٍ وَلَا مُنَازِعَةٍ، كَمَا وَرَدَ فِي** الْحَدِيثِ: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ﴾[١].

٢- الامتناع والإعراض عن التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ هو ردٌّ لأمر الله وكفر به سواء من جهة الشك أو ترك القبول أو التولي، قال إسحق بن راهويه : ﴿وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَنْ سَبَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْ **دَفَعَ شَيْئًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ** أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُقِرٌّ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَنَّهُ كَافِرٌ ، فَكَذَلِكَ تَارِكُ الصَّلَاةِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتُهَا عَامِدًا، وَلَقَدْ أَجْمَعُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يُجْمِعُوا عَلَيْهِ فِي سَائِرِ الشَّرَائِع ﴾[٢].

---

[١] تفسير بن كثير ٣٤٩/٢

[٢] التمهيد (٤/٢٢٦)

وقال الجصاص:" وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ـ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ـ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ أَوَامِرِ رَسُولِهِ ﷺ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْإِسْلَامِ سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ فِيهِ أَوْ مِنْ جِهَةِ تَرْكِ الْقَبُولِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ التَّسْلِيمِ وَذَلِكَ يُوجِبُ صِحَّةَ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي حُكْمِهِمْ بِارْتِدَادِ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَتْلِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَضَاءَهُ وَحُكْمَهُ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ"[1].

٣ـ دلّت الآية على أن شرط الإيمان هو ردّ النزاع إلى شرع الله وانتفائه بالإعراض أو تحكيم شرع غيره، قال نصر بن إبراهيم المقدسي:" فجعل عز وجل في هذه الآية ـ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ـ أن من شرط الإيمان وصحته الانقياد لحكم رسوله، ودلَّ على أن من خالفه غير منقاد للحق **وغير ثابت الإسلام**"[2].

وقال محمد ابن عبد الوهاب:" فلو اقتتلت البادية والحاضرة حتى يذهبوا، لكان أهون من أن ينصبوا في الأرض طاغوتا، يحكم بخلاف شريعة الإسلام، التي بعث الله بها رسوله ﷺ. ـ إلى أن قال ـ فلو ذهبت دنياك كلها، لما جاز لك المحاكمة إلى الطاغوت لأجلها، ولو اضطرك مضطر وخيرك بين أن تحاكم إلى الطاغوت، أو تبذل دنياك، لوجب عليك البذل، ولم يجز لك المحاكمة إلى الطاغوت."[3].

❁ **وقال تعالى**: ﴿ فَإِن تَنَـٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النِّسَاء:٥٩].

<u>وجه الدلالة من الآية ما يلي:</u>

[1] أحكام القرآن للجصاص ١٨١/١

[2] الحجة على تارك المحجة ٣٩١/٢

[3] الدرر السنية ٥١٠/١٠

١ ▬ الأمر بالردّ إلى الله ورسوله عند النزاع دلالة على أن الردّ عبادة لله لا ينبغي صرفها لغير الله، فعَنْ مجاهد فِي قوله: ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ قَالَ:« إِلَى اللهِ: إِلَى كتابه، وإلى رسوله: إِلَى سنة نبيه ﷺ» [١]، وَرُوِيَ عَنِ عَطَاءٍ وَالسُّدِّيِّ وَقَتَادَةَ وَمَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ وَأَبِي سِنَانٍ مِثْلُ ذَلِكَ"[٢]، وحُكي في ذلك إجماعا كما قال الشنقيطي:" وأجمع المسلمون على أن الردّ إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه هو الرد إليه في حضوره وحياته، وإلى سنته في غيبته وبعد مماته"[٣].

٢▬ شرط الإيمان بالله هو الردّ إلى كتاب الله وسنة رسول الله في موارد النزاع وانتفاء الإيمان بانتفاء الرد، قال الطبري:" يعني بذلك جل ثناؤه: فإن اختلفتم، أيها المؤمنون، في شيء من أمر دينكم أنتم فيما بينكم، أو أنتم وولاة أمركم، فاشتجرتم فيه فردوه إلى الله، يعني بذلك: فارتادوا معرفة حكم ذلك الذي اشتجرتم أنتم بينكم، أو أنتم وأولو أمركم فيه من عند الله، يعني بذلك: من كتاب الله، فاتبعوا ما وجدتم وأما قوله: ﴿ وَٱلرَّسُولِ ﴾فإنه يقول: فإن لم تجدوا إلى علم ذلك في كتاب الله سبيلا فارتادوا معرفة ذلك أيضًا من عند الرسول إن كان حيًا، وإن كان ميتًا فمن سنته ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ﴾، يقول: افعلوا ذلك إن كنتم تصدقون بالله واليوم الآخر، يعني: بالمعاد الذي فيه الثواب والعقاب، فإنكم إن فعلتم ما أمرتم به من ذلك. فلكم من الله الجزيل من الثواب، وإن لم تفعلوا ذلك فلكم الأليم من العقاب"[٤].

وقال ابن كثير:" أَيْ: ردوا الخصومات والجهالات إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ﴾**فَدَلَّ عَلَى أَنَّ**

---

[١] تفسير ابن المنذر ٧٦٧/٢

[٢] رواه ابن أبي حاتم برقم ٥٥٤١

[٣] أضواء البيان ٤ /٧٩٣

[٤] تفسير الطبري ٥٠٤/٨

مَـنْ لَـمْ يَتَحَـاكَمْ فِي مَجَـالِ النِّزَاعِ إِلَى الْكِتَـابِ وَالسُّـنَّةِ وَلَا يَرْجِـعْ إِلَيْهِمَـا فِي ذَلِـكَ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ"[١].

وقال ابن القيم:" إن قوله:﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾، نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين، دقه وجله، جليه وخفيه، **ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله وبيان حكم ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافيا لم يأمر بالرد إليه، إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع. ومنها أن جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه**، ولا سميا التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم، وأن عاقبته أحسن عاقبة"[٢].

❁ **وقوله تعالى**: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾[الشورى:١٠]. قال ابن عمرو في حديثه: فهو يحكم فيه، وقال الحارث: فالله يحكم فيه"[٣].

وجه الدلالة من الآية ما يلي:

١ـ الأمر بتحكيم كتاب الله في موارد النزاع يدل على أن التحاكم عبادة، إذ كل ما أمر الله به امتثاله لله عبادة وصرفه لغيره شرك في العبادة، وجاء الأمر في سياق الإفراد: ﴿ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إفراد الله بالحكم عند الخلاف، قال الطبري:" قوله: يقول تعالى ذكره: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾وما اختلفتم أيها الناس فيه من شيء فتنازعتم بينكم، فحكمه إلى الله. يقول: فإن الله هو الذي يقضي بينكم ويفصل فيه الحكم"[٤].

---

[١] تفسير بن كثير ٢/٣٤٦

[٢] أعلام الموقعين ١/٤٩ - ٥٠.

[٣] تفسير الطبري ٢١/٥٠٦

[٤] تفسير الطبري ٢١/٥٠٦

وقال ابن كثير:" أَيْ: مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ **وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ**،﴿ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: هُوَ الْحَاكِمُ فِيهِ بِكِتَابِهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، كَقَوْلِهِ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النِّسَاء:٥٩]"[1].

" وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَفَرَ بَعْضُهُمْ بِالْقُرْآنِ، وَآمَنَ بِهِ بَعْضُهُمْ فَنَزَلَتْ، وَالِاعْتِبَارُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: مَعْنَى حُكْمِهِ إِلَى اللَّهِ: أَنَّهُ مَرْدُودٌ إِلَى كِتَابِهِ، فَإِنَّهُ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ **فَتَكُونُ الْآيَةُ عَامَّةً فِي كُلِّ اخْتِلَافٍ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الدِّينِ أَنَّهُ يُرَدُّ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ**، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾"[2]

وقال الشنقيطي:" وَقَدْ عَجِبَ نَبِيُّهُ ﷺ بَعْدَ قَوْلِهِ: فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ مَعَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمُحَاكَمَةَ إِلَى مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ، الْمُعَبَّرِ عَنْهُ فِي الْآيَةِ بِالطَّاغُوتِ، **وَكُلُّ تَحَاكُمٍ إِلَى غَيْرِ شَرْعِ اللَّهِ فَهُوَ تَحَاكُمٌ إِلَى الطَّاغُوتِ**، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ **فَالْكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ الَّذِي صَرَّحَ اللَّهُ بِأَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ - شَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ كَمَا بَيَّنَهُ - تَعَالَى - فِي قَوْلِهِ**: فَمَن﴿ يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٥٦]، فَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَمَنْ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِهَا فَهُوَ مُتَرَدٍّ مَعَ الْهَالِكِينَ.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف ٢٦]، فَهَلْ فِي الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ الْمُشَرِّعِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَأَنْ يُبَالَغَ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ لِإِحَاطَةِ سَمْعِهِ بِكُلِّ الْمَسْمُوعَاتِ وَبَصَرِهِ

---

[1] تفسير بن كثير ١٩٣/٧

[2] فتح القدير ٦٠٤/٤

بِكُلِّ الْمُبْصَرَاتِ؟ وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ دُونَهُ مِنْ وَلِيٍّ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا"[١].

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ دلالة على أن اختصاص الله بالحكم هو من ربوبيته على خلقه، والشرك في الحكم هو شرك في الربوبية، قال البغوي: "﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾، الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ هُوَ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ"[٢]، وقال ابن كثير: "﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾، أَيِ: الْحَاكِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾أَيْ: أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الأمور"[٣].

فمن تحاكم إلى الطواغيت الحاكمين بغير ما أنزل الله فقد كفر بالله عز وجل سواءً كان ذلك في صغار الأمور أو كبيرها ولو كان في عود أراك، سواءً سموه صُلحا أو عُرفاً أو كان في جدٍ أو لعب[٤]، فمن تحاكم إليهم فقد صرف الحكم ورد النزاع لغير الله تعالى وهو مشرك كافر بالله تعالى كمن صرف الدعاء لغير الله تعالى.



[١] أضواء البيان ٧/٥٠

[٢] تفسير البغوي ٤/١٤٠

[٣] تفسير ابن كثير ٧/١٩٣

[٤] انظر كتاب أضواء أثرية على نوازل الحاكمية لصاحب الكتاب

الفَصْلُ الثَّانِي

الانقياد لله بالطاعة والاتباع وما يقابله من شرك الطاعة

اعلم هداك الله لما يحبه ويرضاه أنَّ الإسلام قول وعمل ونية لا يجزئ أحدهما عن الآخر، فلا يصح القول إلا بالنية ولا قول ونية إلا بعمل، قال الشافعي رحمه الله تعالى: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم وممن أدركناهم يقولون إن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»[١]، وقال الحُميدي رحمه الله تعالى:« أُخْبِرْتُ أَنَّ قوماً يقولون: إنَّ من أقرَّ بالصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجِّ، ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموتَ أو يصلِّي مسندٌ ظهرَه مستدبر القبلة حتى يموت فهو مؤمنٌ ما لم يكن جاحداً إذا علم أنَّ تركه ذلك في إيمانه إذا كان يقرُّ الفروض واستقبال القبلة، فقلت: هذا الكفر بالله الصُّراح وخلاف كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وفعل المسلمين. قال حنبل: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: من قال هذا فقد كفر بالله، وردَّ على الله أمرَه وعلى الرَّسول ما جاء به»[٢].

والانقياد لله عز وجل يكون بقَبُولِ شَرعِهِ وطاعة أمره والعمل بدينه، قال تعالى:﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[المائدة ٩٢]، وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾[الأحزاب ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[الزمر ٥٤]، وقوله:"﴿ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾يقول: **واخضعوا**

[١] انظر جامع العلوم والحكم (١ / ٥٧) والإيمان لابن تيمية ص ٢٨٠

[٢] انظر "السنة" للخلال ٥٨٦/٣ و "أصول الاعتقاد" للالكائي ٨٨٧/٥.

لـه بالطاعـة والإقـرار بالـدين الحنيفـي ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ مـن عنـده على كفـركم بـه"[١]، وقـال الطبري:" والـذي أراد ابـن عبـاس -إن شـاء اللـه- بقولـه في تأويـل قولـه: ﴿ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ **وحِّـدوه، أي أفـردُوا الطاعـة والعبـادة لـربكم دون سائر خلقه**"[٢].

وأمـر اللـه بطاعتـه ﷻ وأذن في طاعـة رسـوله ﷺ وعلَّـق عليهمـا الهدايـة كمـا في قولـه:﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النـور ٥٤]، وقـال تعـالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النسـاء ٦٤]، قـال البغـوي: قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ: **بِـأَمْرِ اللَّـهِ لِأَنَّ طَاعَـةَ الرَّسُـولِ وَجَبَـتْ بِـأَمْرِ اللَّـهِ**، قَـالَ الزجـاج: ﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ **لِأَنَّ اللَّـهَ قَـدْ أَذِنَ فِيـهِ وَأَمَـرَ بِـهِ**"[٣]، وعـن أَبُـو الْعَبَّـاسِ الْفَضْـلُ بْـنُ زِيَـادٍ، قَـالَ: سَـمِعْتُ أَبَـا عَبْـدِ اللَّـهِ أَحْمَـدَ بْـنَ مُحَمَّـدِ بْـنِ حَنْبَـلٍ يَقُـولُ:« نَظَـرْتُ فِي الْمُصْـحَفِ فَوَجَـدْتُ فِيهِ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مَوْضِعًا»[٤].

وأَذِن اللـه في طاعـة أوليـاء الأمـور في آيـة واحـدة في كتـاب اللـه، وجـاءت مقيـدة بطاعـة اللـه وطاعـة رسـوله ﷺ، وضـمن وصـف معـين لأوليـاء أمـور المسـلمين، قـال تعـالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النسـاء٥٩]، وعـن أَبِـي هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ: أَنَّ

[١] تفسير الطبري ٣١٢/٢١

[٢] تفسير الطبري ٣٦٣/١

[٣] الابانة الكبرى ٢٦٠/١

[٤] الابانة الكبرى ٢٦٠/١

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿ مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي﴾[١]، وقَالَ عَلِيُّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَقٌّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى الرَّعِيَّةِ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا»[٢]، فطاعة أولياء الأمور ومن له سلطان شرعي هي من طاعة الله ورسوله ﷺ، ومن ذلك ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿طَاعَةُ اللَّهِ طَاعَةُ الْوَالِدِ، وَمَعْصِيَةُ اللَّهِ مَعْصِيَةُ الْوَالِدِ﴾[٣].

المطلب الأول: الطاعة حقٌ خالص لله

إنَّ الطاعة[٤] حقٌ خالصٌ لله ﷻ ويدل على ذلك:

❁ قوله تعالى:﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر ٣] ، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ألا لله **العبادة والطاعة** وحده لا شريك له، خالصة لا شرك لأحد معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحد، لأن كل ما دونه ملكه، وعلى المملوك طاعة مالكه لا من لا يملك منه شيئا"[٥].

---

[١] رواه البخاري برقم ٧١٣٧ و أخرجه مسلم في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.. رقم ١٨٣٥

[٢] تفسير البغوي ٦٥٩/١

[٣] رواه الطبراني في الأوسط برقم ٢٢٥٥

[٤] والطاعة هي: امتثال الأوامر واجتناب النواهي على جهة الاختيار، ولا تكون الطاعة إلا عن أمر كما أن الجواب لا يكون إلا عن قول، قال أبو العباس: **وَلَا تَكُونُ الطَّاعَةُ إلَّا عَنْ أَمْرٍ كَمَا أَنَّ الْجَوَابَ لَا يَكُونُ إلَّا عَنْ قَوْلٍ** يُقَالُ أَمَرَهُ فَأَطَاعَ وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ إذَا مَضَى لِأَمْرِهِ فَقَدْ أَطَاعَهُ إطَاعَةً وَإِذَا وَافَقَهُ فَقَدْ طَاوَعَهُ" المصباح المنير في غريب الشرح الكبير٣٨٠/٢

وقال ابن عطية:" والطاعة هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الأمر" المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥٠٧/١

وقال الجرجاني: "الطاعة: هي موافقة الأمر طوعًا: التعريفات ١٤/١

وعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَأَطَعۡنَا ﴾قَالَ أَقَرُّوا لِلَّهِ أَنْ يُطِيعُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ " تفسير ابن أبي حاتم برقم ١٤٧٣٣

وقال العز بن عبد السلام:" **وَتَفَرَّدَ الْإِلَهُ بِالطَّاعَةِ لِاخْتِصَاصِهِ بِنِعَمِ الْإِنْشَاءِ وَالْإِبْقَاءِ وَالتَّغْذِيَةِ وَالْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ**، فَمَا مِنْ خَيْرٍ إلَّا هُوَ جَالِبُهُ، وَمَا مِنْ ضَيْرٍ إلَّا هُوَ سَالِبُهُ" قواعد الأحكام ١٥٨/٢

[٥] تفسير الطبري ٢٥٠/٢١

❁ وقال تعالى:﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف ٥٥] ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْخَلْقُ خَلْقُ اللَّهِ وَالأَمْرُ أَمْرُهُ» [١].

❁ وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[آل عمران١٥٤] وقال تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران١٣٨] قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾ أَيْ:« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ فِي عِبَادِي إلا مَا أَمَرْتُكَ بِهِ فِيهِمْ»[٢].

والله سبحانه وتعالى ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته كما قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[الذاريات ٥٦]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. أَيْ: إِلَّا لِآمُرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُونِي وَأَدْعُوَهُمْ إِلَى عِبَادَتِي»، يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾"[٣]، وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ بِمَعْنَى: «إِلَّا لِآمُرَهُمْ وَأَنْهَاهُمْ»[٤]، وقال عكرمة: «**إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ويطيعون**. فأثيب العابد وأعاقب الجاحد»[٥].

ونهى الله عزَّوجل عن طاعة الطواغيت والمشركين في آيات كثيرة:

❁ قال تعالى:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الشعراء١٥١]، عَنْ قَتَادَةَ ﴿أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ أَيْ الْمُشْرِكِينَ»[٦].

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ٨٥٨٥
[٢] رواه الطبري في تفسيره برقم ٤١٢٧
[٣] تفسير البغوي ٤/٢٨٨
[٤] التحرير والتنوير ٢٧/٢٧
[٥] الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٩/١٢٠
[٦] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٥٨٦٣

❁ وقــــال تعــــالى: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخـــرف٥٤] ، "أَيِ: اسْتَخَفَّ عُقُولَهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ فَاسْتَجَابُوا لَهُ"[١].

❁وقــــال تعــــالى:﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[الاحـــزاب٦٧]، قــال قتــادة أي: «رؤوســنا في الشــر والشــرك»[٢]، وقــال الطبري:" وقــال الكــافرون يــوم القيامــة في جهــنم: ربنــا إنــا أطعنــا أئمتنــا في الضــلالة وكبراءنــا في الشــرك ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ يقــول: فأزالونــا عــن محجــة الحــق وطريــق الهــدى والإيمــان بك والإقرار بوحدانيتك **وإخلاص طاعتك في الدنيا**"[٣].

❁وقــــال تعــــالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[الكهـف ٢٨] فعــن الســدي، عــن أبــي ســعيد الأزدي، عــن أبــي الكنــود، عــن خبــاب ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ **قــــال:« عُيينـــــة، والأقرع»**[٤].

❁وقــــال تعــــالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمــــــــران ١٥٠]، فــدلت الآيــة أن الطاعــة مــن الــولاء فمــن أطــاع الطواغيــت المشــرعين في معصــية اللــه أو في إســقاط الواجــب أو في تغيير أحكــام الوضــع فقــد اتخــذهم أوليــاء مــن دون اللـــه كمـــا في قولـــه: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ ﴾ وكمـــا قـــال اللـــه تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴾ [النســـاء ١٤٤] ، وقــــال تعــــالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴾[النساء ١١] قــال الواحــدي:" **يريــد مــن يُطعــه فيمــا يــدعو إليــه**

---

[١] تفسير ابن كثير ٢٣٢/٧

[٢] رواه الطبري ٣٣١/٢٠

[٣] نفس المرجع

[٤] تفسير الطبري ٨/١٨

من الضلال، **فكل من أطاعه فهو ولي له** وإن لم يقصد أن يتولاه، كما يكون مطيعًا له وإن لم يقصد أن يطيعه، بموافقته لإرادته وإجابته إلى ما دعاه إليه، فهو يعمل عملًا يُعينه عليه الشيطان، وكان الشيطان له وليًا ناصرًا معينًا"[١]، وقال ابن المنذِر: "أجمع كلُّ مَن يُحفَظ عنه مِن أهل العلم أنَّ الكافر لا ولايةَ له على المسلم بِحال"[٢]، وفيه دلالة على التلازم بين الطاعة والولاية، فمن أثبت للطاغوت حق الأمر وأوجب له الطاعة أو أذن بها، فقد جعل من الطاغوت ولي أمره وأقر بسلطانه عليه ودخل في دينه.

المطلب الثاني: النصوص الواردة في بيان حد شرك الطاعة

إنَّ الانقياد لله عز وجل بالطاعة ينافيه الانقياد للطواغيت المشرعين: بتحليل الحرام أو تحريم الحلال أو تغيير أحكام الوضع أو إسقاط الواجب مما هو من حكم الشركاء المبدلين، وطاعتهم في ذلك هو الشرك بالله تعالى في الطاعة[٣] ويدل عليه آيات كثيرة:

❁ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام

---

[١] التفسير البسيط للواحدي ٧/١٠٥

[٢] نقله عنه ابن القيم في "أحكام أهل الذِّمَّة" (٢/ ٧٨٧)

[٣] ومن يستمسك بكلام الرجال في هذا الباب العظيم ويترك المحكم من التنزيل، فيعتقد أن طاعة المشرعين في المعصية معصية!!، ويستشهد بكلام المتأخرين فنرد عليه من نفس كلامهم كما في قول ابن تيمية:" والطغيان: مجاوزة الحد؛ وهو الظلم والبغي. فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارها لذلك: طاغوت، ولهذا سمى النبي ﷺ الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح لمّا قال: ﴿ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت﴾، **والمطاع في معصية الله والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق - سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعا أمره المخالف لأمر الله - هو طاغوت؛ ولهذا سمي من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت**" مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٩١، فكيف يكون المطاع طاغوتا والعبد الطائع مسلماً!!،، وقولهم أن طاعة المشرعين في المعصية هي معصية هي عقيدة الأشاعرة التي تأثر بها الكثير من المتأخرين، وهي تجري على أصولهم في باب الإيمان، قال ابن العربي الأشعري: "إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركاً: **إذا أطاعه في الاعتقاد** فإن أطاعه في الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص فافهموه."، فما هو الفرق بينهم وبين الأشاعرة في هذا الباب العظيم الذي هو من لب وأصل مسألة الإيمان؟

١٣١]، عَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَـهُ:« ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾قَـالَ: الْفِسْـقُ الْمَعْصِـيَةُ»[١]، وعنـه: «وإن أطعتمـوهم في أكـل مـا نهيـتكم عنـه، إنكـم إذًا لمشـركون»[٢]، وَقَـالَ السُّـدِّي فِي تَفْسِـيرِ هَـذِهِ الْآيَـةِ: «إِنَّ الْمُشْـرِكِينَ قَـالُوا لِلْمُـؤْمِنِينَ: كَيْـفَ تَزْعُمُـونَ أَنَّكُـمْ تَتَّبِعُـونَ مَرْضَـاةَ اللَّـهِ، وَمَـا ذَبَـحَ اللَّـهُ فَـلَا تَأْكُلُونَـهُ، وَمَـا ذَبَحْـتُمْ أَنْـتُمْ أَكَلْتُمُـوهُ؟ فَقَـالَ اللَّـهُ: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ **فَـأَكَلْتُمُ الْمَيْتَـةَ** ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾، وَهَكَـذَا قَالَـهُ مُجَاهِـدٌ، وَالضَّـحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِـدٍ مِـنْ عُلَمَـاءِ السَّـلَفِ، رَحِمَهُـمُ اللَّـهُ، وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾، "أَيْ: حَيْـثُ عَـدَلْتُمْ عَـنْ أَمْـرِ اللَّـهِ لَكُـمْ وَشَـرْعِهِ إِلَى قَـوْلِ غَيْـرِهِ، فَقَـدَّمْتُمْ عَلَيْـهِ غَيْـرَهُ فَهَـذَا هُـوَ الشِّـرْكُ، كَمَـا قَـالَ تَعَـالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة٣١]"[٣].

<u>ووجـه الدلالـة</u>: أن طاعـة المشـرعين في أكـل الميتـة يصـير بـه المسـلم مشـركاً بطـاعتهم في أكلهـا، وإن كـان أكـل الميتـة في ذاتـه معصـية، أمـا طاعـة الطواغيـت المشـرعين في أكلهـا وامتثـال أمـرهم ومتـابعتهم علـى التحليـل فهـو شـرك باللـه تعالى.

❁ **وقولـه تعـالى**: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعـام ١٣٧]، عَـنْ مُجَاهِـدٍ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ٧٨٣٨

[٢] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٣٨١٥

[٣] تفسير بن كثير ٣٢٩/٣

﴿ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ ﴾ قَالَ: «شَيَاطِينُهُمْ يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَئِدُوا أَوْلادَهُمْ خِيفَةَ الْعَيْلَةِ»[١].

وقال البغوي:" سُمِّيَتِ الشَّيَاطِينُ شُرَكَاءَ لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَأُضِيفَ الشُّرَكَاءُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمُ اتَّخَذُوهَا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: شركاؤهم سدنة آلهتهم هم الَّذِينَ كَانُوا يُزَيِّنُونَ لِلْكُفَّارِ قَتَلَ الأولاد، وكان الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَحْلِفُ لَئِنْ وُلِدَ له كذا غلاما لَيَنْحَرَنَّ أَحَدُهُمْ كَمَا حَلَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ عَلَى ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ .إلى أن قال .وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ل﴿لِيُرۡدُوهُمۡ ﴾، لِيُهْلِكُوهُمْ، ﴿ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾، لِيَخْلِطُوا عَلَيْهِمْ، دِينَهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِيُدْخِلُوا عَلَيْهِمُ الشَّكَّ فِي دِينِهِمْ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ إِسْمَاعِيلَ فرجعوا عنه بلبس الشياطين"[٢].

❁وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة٣١]،وورد في تفسيرها جملة من الآثار:

❁عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال:« لم يعبدوهم، ولكنهم أطاعوهم في المعاصي»[٣].

❁ وعن السدي: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:« لم يأمروهم أن يسجُدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم، فسمَّاهم الله بذلك أربابًا»[٤].

[١] رواه ابن ابي حاتم برقم ٧٩١٩

[٢] تفسير البغوي ١٦٢/٢

[٣] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٦٦٤٣

[٤] رواه الطبري برقم ١٦٦٤١

۞ وعن أبي البختري: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: «انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حرامًا، وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالا فأطاعوهم في ذلك، فجعل الله طاعتهم عبادتهم، ولو قالوا لهم: "اعبدونا"، لم يفعلوا»[1].

---

[1] رواه الطبري برقم ١٦٦٣٨

لفظ الاستحلال والتحريم: يُطلق في استعمال الشارع بمعنى الاعتقاد وهو الأصل في الاستعمال الشرعي له، ويطلق ويراد به الاستحلال العملي كما دل على ذلك الكتاب والسنة:

۞ قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة٢٩]، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله ﷺ ﴿قَٰتِلُواْ﴾، أيها المؤمنون، القومَ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، يقول: ولا يصدّقون بجنة ولا نار ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، يقول: **ولا يطيعون الله طاعة الحقّ، يعني: أنهم لا يطيعون طاعة أهل الإسلام**" تفسير الطبري ١٩٨/١٤

وقال أبو حفص سراج الدين الحنبلي قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: لا يُحرِّمون ما حرَّم الله في القرآن، وبينه الرسول، وقال أبو زيد: **لا يعملون بما في التوراة والإنجيل**، بل حرفوهما وأتوا بأحكام كثيرة من قبل أنفسهم، وقوله ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾أي: لا يدينون الدِّين الحق، أضاف الاسم إلى الصِّفةِ وقال قتادة: «الحَقّ» هو الله - عزَّ وجلَّ -؛ أي: لا يدينون دين الله، ودينه الإسلام. قال أبو عبيدة: معناه: لا يطيعون الله طاعة أهل الحقّ.". اللباب في علوم الكتاب ٦٤/١٠

۞ ولفظ التحريم قد يأتي ويراد به العمل كترك العمل لنذر أو يمين أو رهبانية وتَديُّن كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[المائدة٨٧]، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قَالَ: «نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرَادُوا أَنْ يَتَخَلَّوْا مِنَ الدُّنْيَا وَيَتْرُكُوا النِّسَاءَ، مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ» رواه عبد الرزاق برقم ٧١٨ ، فقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾ ليس المقصود منه التحريم العقدي وهو اعتقاد أن هذا العمل حرام في دين الله، فهذا غير وارد ولا يقع من هؤلاء السابقين الأولين بل المراد هو الترك والتخلي الذي هو العمل، لأن الترك عمل كما في قوله تعالى:﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[المائدة٦٣] ، فترك النهي عن المنكر من الأحبار والربانيين سماه الله عملاً بقوله:﴿مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾.

۞ ومن السنة حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: مَرَّ بِي عَمِّي الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو وَمَعَهُ لِوَاءٌ قَدْ عَقَدَهُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: أَيْ عَمِّ، أَيْنَ بَعَثَكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: " بَعَثَنِي إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةَ أَبِيهِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ "رواه أحمد برقم ١٨٥٧٩وأخرجه سعيد بن منصور (٩٤٢) ، وابن ماجه (٢٦٠٧) ، وأبو يعلى (١٦٦٦) ، والطبراني في "الكبير" (٣٤٠٥). قال الطحاوي:" وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ الْمُتَزَوِّجَ فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الِاسْتِحْلَالِ كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَصَارَ بِذَلِكَ مُرْتَدًّا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُفْعَلَ بِهِ مَا يُفْعَلُ بِالْمُرْتَدِّ" شرح معاني الآثار ١٤٩/٣

❁ وعـن الحسـن: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قـال: «في الطاعة»[1].

وقـد يطلـق التحليـل والتحـريم في اصـطلاح العلمـاء ويـراد بـه العمـل فلفـظ أحلـوه أو حرمـوه لـيس معنـاه الاعتقـاد في كـل إطلاقاتـه بمعنى العلـم بصـحة شـيء والإخبـار عنـه، بـل قـد يـراد بـه العمـل بمقتضى تحـريمهم وتحليـلهم مـن الحكـم به والطاعة له والتحاكم إليه ... الخ، ومن تلك الاطلاقات:

❁ بـوب ابـن حبـان في صـحيحه: ذِكْـرُ الْإِخْبَـارِ عَمَّـا يَجِـبُ عَلَى الْمَـرْءِ مِـنْ **اسْـتِحْلَالِ النُّصْـرَةِ** عَلَى أَعْـدَاءِ اللَّـهِ الْكَفَـرَةِ بِـالْأَمْرِ بِـالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَـنِ الْمُنْكَـرِ فِي دَارِ الْإِسْـلَامِ وروى بسـنده عَـنْ عَائِشَـةَ قَالَـتْ: دَخَـلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَعَرَفْـتُ فِي وَجْهِـهِ أَنْ قَـدْ حَضَـرَهُ شَـيْءٌ فَتَوَضَّـأَ وَمَـا كَلَّـمَ أَحَـدًا ثُـمَّ خَـرَجَ فَلَصِـقْتُ بِـالْحُجْرَةِ أَسْـمَعُ مَـا يَقُـولُ فَقَعَـدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِـدَ اللَّـهَ وَأَثْنَى عَلَيْـهِ ثُـمَّ قَـالَ: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّ اللَّـهَ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى يَقُـولُ لَكُـمْ مُـرُوا بِـالْمَعْرُوفِ وَانْهَـوْا عَـنِ الْمُنْكَـرِ قَبْـلَ أَنْ تَـدْعُونِي فَـلَا أُجِيـبُكُمْ وَتَسْـأَلُونِي فَـلَا أُعْطِـيكُمْ وَتَسْتَنْصِـرُونِي فَـلَا أنصـركم﴾ رواه ابـن حبـان بـرقم ٢٩٠، فـأطلق على الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو عمل استحلالاً للنصرة.

❁عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: " كَانَ إِبْرَاهِيمُ وَأَصْحَابُنَا **يَسْتَحِلُّونَ** الْكَلَامَ فِي الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ الظُّهْرَ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُمْ قَالَ الْمُغِيرَةُ: وَكَانَ أَبُو وَائِلٍ يُصَلِّي الْأُولَى وَالْعَصْرَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْجُمُعَةَ فِي إِمَارَةِ الْحَجَّاجِ لِأَنَّهُ كَانَ يُؤَخِّرُهَا " رواه المروزي برقم ١٠٥٧ فأُطلق على كلامهم في الجمعة الذي هو عمل استحلالاً.

وليس الاسـتحلال والتحريم الوارد في بعض الآثار في هذا الباب من الاسـتحلال العقدي بل هو من الاسـتحلال العملي، كمثل ما رواه ابن أبي حاتم برقم ٧٨٤٩ قال حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ ثنا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنِي ابْنُ لَهِيعَةَ حَدَّثَنِي عَطَاءٌ عَنْ سَـعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَوْلَهُ: وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ يَعْنِي اسْـتِحْلالا فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ إِنَّكُمْ لَمُشْـرِكُونَ مِثْلَهُمْ"، **والأثر ضـعيف فيه ابن لهيعة** ولا يثبت في هذه الآيـة ـــ آية الانعام ـــ لفظ الاسـتحلال كما ورد في روايات تفسـير آية التوبة، ومن ذلك ما رواه الطبري برقم ١٦٦٣٨ – قال حدثني الحسـن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي البختري قال: سـأل رجل حذيفة فقال: يا أبا عبد الله، أرأيت قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا كانوا إذا أحلُّوا لهم شـيئًا اسـتحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه» وهي ظاهرة في الاسـتحلال العملي، وحتى وإن حملناه على الاسـتحلال العقدي فليس في هذا الأثر تقييد للآية أو تخصيص لإطلاقها بل هو من باب ذكر بعض أفراد الشيء، أي التفسير بذكر بعض أفراد العام، حيث أن حذيفة ذكر بعض الصـور التي تكون فيها الطاعة كفراً وهي المتابعة على الاعتقاد، وليس هو حصـرٌ للطاعة في الاعتقاد، كما أنه نُقل عنه ذكر مناط مطلق المتابعة فلتنتبه، فإن اللفظ الوارد في السـنة هو الاتباع ومعناه الدخول في العمل كما في الحديث:﴿ فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة ٣١]، قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ. فَقَالَ: « بلَى، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، **فَاتَّبَعُوهُمْ**، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»" سـنن الترمذي برقم،٣٠٩٥ ، وتفسـير الطبري ٢٠٩/١٤ ، وَهَكَذَا قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُمَا فِي تَفْسِيرِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **إِنَّهُمُ اتَّبَعُوهُمْ** فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا»". تفسير ابن كثير ١٣٥/٣.

فمن أحلَّ وحرَّم هم الطواغيت والأرباب ـــ الأحبار والرهبان ـــ أما جملة النصارى فكفرهم هنا من جهة الاتّباع والعمل بهذا التشـريع، ومن اشـترط الاعتقاد أي اعتقاد حل الحرام أو حرمة الحلال للتابع **وقيد الآية والحديث به** فقد اسـتدرك على الشـرع وليس في النصوص الواردة في شرك الطاعة ما فيه دلالة على حصرها في الاستحلال العقدي.

[1] رواه الطبري برقم ١٦٦٣٩

۞ وعن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: قلت لأبي العالية: كيف كانت **الرُّبوبية** التي كانت في بني إسرائيل؟ قال: «ما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، وهم يجدون في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه، فاستنصحوا الرجالَ، ونبذُوا كتاب الله وراء ظهورهم»[١].

ويقول النسفي في تفسير قوله تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾: آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، كما يطاع الأرباب في أوامرهم ونواهيهم"[٢].

وقال ابن حزم :" فَلَمَّا كَانَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى يحرمُونَ مَا حرم أَحْبَارهم وَرُهْبَانهمْ وَيحلونَ مَا أحلُّوا **كَانَت هَذِه ربوبية صَحِيحَة وَعبادَة صَحِيحَة** قد دانوا بهَا وسمى الله تَعَالَى هَذَا الْعَمَل اتِّخَاذ أَرْبَابًا من دون الله وَعبادَة **وَهَذَا هُوَ الشّرك بِلَا خلاف**"[٣].

وقال عبد الرحمن بن حسن: "فظهر بهذا أن الآية[٤] دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله، **فقد اتخذه ربا ومعبودا وجعله لله شريكا، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله** الذي دلت عليه كلمة الإخلاص "لا إله إلا الله"، فإن الإله هو المعبود، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم، وسماهم أربابا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ ﴾[آل عمران:٨٠] أي شركاء لله تعالى في العبادة ﴿ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران:٨٠] وهذا

[١] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٦٦٤٢

[٢] مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٦٧٦/١

[٣] الفصل في الملل ١٣٥/٣

[٤] قوله تعالى:﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

هـو الشـرك. فكـل معبـود رب، وكـل مطـاع ومتبـع علـى غيـر مـا شـرعه اللـه ورسـوله فقـد اتخـذه المطيـع المتبـع ربـا ومعبـودا، كمـا قـال تعـالى في آيـة الأنعـام: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، وهــذا هــو وجــه مطابقــة الآيــة للترجمــة[١]، ويشــبه هــذه الآيــة فــي المعنــى قولــه تعــالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[الشورى ٢١] والله أعلم"[٢].

❁وقولــه تعــالى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[آل عمــران:٦٤]، قــال ابــن جــريج: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، يقــول:« لا يطــع بعضُنا بعضًـا في معصـية اللـه. ويقـال إنّ تلـك الرُّبوبيـة: أن يطيـعَ النـاس سـادَتهم وقادتهم في غير عبادة، وإن لم يصلُّوا لهم»[٣].

وقـــال الطبـــري وقولـــه ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ : يقـــول: ولا يـدين بعضُنا لـبعض بالطاعـة فيمـا أمـر بـه مـن معاصـي اللـه، ويعظِّمـه بالسـجود له كما يسجدُ لربه"[٤].

❁ وقولــه تعــالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقـرة ١٦٥]، قــال الســدي:« الأنــداد مــن الرجــال، يطيعونهم كما يطيعون الله، إذا أمروهم أطاعوهم وعَصَوا الله»[٥].

[١] باب: " من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابا من دون الله"
[٢] فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد ١٠٥/١
[٣] رواه الطبري في تفسيره برقم ٧٢٠٠
[٤] تفسير الطبري ٤٨٣/٦
[٥] تفسير الطبري برقم ٢٤١١

❁ وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة٢٢]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن مُرَّة عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾قال:« أكفَّاءً من الرجال تطيعونهم في معصية الله»[١].

وقال الطبري: فنهاهم الله تعالى أن يُشركوا به شيئًا، وأن يعبدوا غيرَه، **أو يتخذوا له نِدًّا وَعِدلا في الطاعة**، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم، وفي رزقكم الذي أرزقكم وملكي إياكم، ونعمي التي أنعمتها عليكم فكذلك **فأفردوا ليَ الطاعة، وأخلصُوا ليَ العبادة**، ولا تجعلوا لي شريكًا ونِدًّا من خلقي، فإنكم تعلمون أن كلّ نعمةٍ عليكم فمنّي"[٢].

❁وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ [الزمر ٨]، قال السديّ:« الأنداد من الرجال: يطيعونهم في معاصي الله»[٣].

❁وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف ٣]، قال البغوي: أَيْ:" **لَا تَتَّخِذُوا غَيْرَهُ أَوْلِيَاءَ تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى**"[٤] .

❁ومن السنة: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ وغيرهم مِنْ طُرُقٍ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَّ إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأُسِرَتْ أُخْتُهُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُخْتِهِ وَأَعْطَاهَا، فَرَجَعَتْ إِلَى أَخِيهَا، ورَغَّبته فِي الْإِسْلَامِ وَفِي

[١] رواه الطبري ٤٨٢

[٢] تفسير الطبري ١/ ٣٧٠

[٣] تفسير الطبري ٢١/ ٢٦٤

[٤] معالم التنزيل في تفسير القرآن ٣/ ٢١٣

الْقُـدُومِ عَلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ، فَقَـدِمَ عَـدِيّ الْمَدِينَـةَ، وَكَانَ رَئِيسًـا فِي قَوْمِـهِ طَيِّئٍ، وَأَبُـوهُ حَـاتِمٌ الطَّـائِيُّ الْمَشْـهُورُ بِـالْكَرَمِ، فتحـدَّث النَّـاسُ بِقُدُومِـهِ، فَـدَخَلَ عَلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ وَفِي عُنُقِ عَـدِيّ صَلِيبٌ مِـنْ فِضَّـةٍ، فَقَـرَأَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ هَـذِهِ الْآيَـةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبـة ٣١]. قَـالَ: فَقُلْـتُ: إِنَّهُـمْ لَـمْ يَعْبُـدُوهُمْ. فَقَـالَ: « بلَـى، إِنَّهُـمْ حَرَّمُـوا عَلَـيْهِمُ الْحَـلَالَ، وَأَحَلُّـوا لَهُـمُ الْحَـرَامَ، **فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ**»"[١].

ولفـظ المتابعـة يَـرِدُ علـى المو افقـة في الظـاهر دون البـاطن، ولـيس هـو المتابعـة على الاعتقـاد كمـا يفسـره بـه الأشـاعرة، بـل فهـم السـلف للمتابعـة إنمـا هـو على الموافقـة في الظـاهر كمـا قَـالَ قَتَـادَةُ: أَخَـذَ بَنُـو الْمُغِيرَةِ عَمَّـارًا وَغَطَّـوْهُ فِي بِئْـرِ مَيْمُـونٍ، وَقَـالُوا لَـهُ: اكْفُـرْ بِمُحَمَّـدٍ **فَتَـابَعَهُمْ عَلَى ذَلِـكَ وَقَلْبُـهُ كَـارِهٌ**، فَـأُخْبِرَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ بِـأَنَّ عَمَّـارًا كَفَـرَ فَقَـالَ: «كَـلَّا إِنَّ عمـارا ملـىء إِيمَانًـا مِـنْ قَرْنِـهِ إِلَى قَدَمِـهِ، وَاخْـتَلَطَ الْإِيمَـانُ بِلَحْمِـهِ وَدَمِـهِ» فَـأَتَى عَمَّـارٌ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ وَهُـوَ يَبْكِـي، فَقَـالَ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ: «مَـا وَرَاءَكَ» ؟ قَـالَ: شَـرٌّ يـا رسـول اللـه إنـي نلـت منـك وذكـرت آلهـتهم بخيـر، قَـالَ: «كَيْـفَ وَجَـدْتَ قَلْبَـكَ» قَـالَ: مُطْمَئِنًّـا بِالْإِيمَـانِ، فَجَعَـلَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْسَـحُ عَيْنَيْـهِ وَقَـالَ: إِنْ عَـادُوا لَـكَ فَعُـدْ لَهُـمْ بِمَـا قُلْـتَ، فَنَزَلَـتْ هَـذِهِ الْآيَةُ»[٢].

المطلـب الثالـث: الطاعـة هـي امتثـال الأمـر بعـد التلقـي والدخول في العمل

إنَّ الطاعـة هـي اتِّبَـاعُ الأمْـر اختيـاراً وعـدم المُخَالفـة لـه، فـإذا مَضـى وامتثـل المكلَّـف لأَمـرِ المشـرّع ظـاهراً فقـد أَطاعَـهُ أمـا إذا وافقَـه باطنـاً وظـاهراً فقـد طاوَعَـهُ، وهـي فعـلٌ متعلـقٌ بـأمرٍ[٣]، فـلا تكـون الطاعـة إلا بعـد ورود الأمـر مـن

[١] سنن الترمذي برقم ٣٠٩٥وتفسير الطبري ٢٠٩/١٤

[٢] تفسير البغوي ٩٨/٣

[٣] قال أبـو العبـاس: **وَلَا تَكُـونُ الطَّاعَـةُ إِلَّا عَـنْ أَمْـرٍ كَمَـا أَنَّ الْجَـوَابَ لَا يَكُـونُ إِلَّا عَـنْ قَـوْلٍ** يُقَـالُ أَمَـرَهُ فَأَطَـاعَ وَقَـالَ ابْـنُ فَارِسٍ إذَا مَضَى لِأَمْرِهِ فَقَدْ أَطَاعَهُ إطَاعَةً وَإِذَا وَافَقَهُ فَقَدْ طَاوَعَهُ" المصباح المنير في غريب الشرح الكبير٣٨٠/٢

المشرّع وامتثال التكليف من المكلّف، والإتيانُ بالعمل يسمى طاعة بقطع النظر عن المطاوعة ـ أي الموافقة بالباطن ـ، وورد ذلك في مواضع منها:

❁ قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[التوبة ١١٥] قال البغوي:"مَعْنَاهُ: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة **بترك الأوامر** وباستغفاركم للمشركين، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾، يُرِيدُ **حَتَّى يَتَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ، فإذا بيّن وَلَمْ تَأْخُذُوا بِهِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تستحقّون الضلال**، وقال مُجَاهِدٌ: «بَيَانُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْكِ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ خَاصَّةً **وَبَيَانُهُ لَهُمْ فِي مَعْصِيَتِهِ وَطَاعَتِهِ عَامَّةً، فافعلوا وذروا**»[١]، وفي الآية دلالة على أنَّ الطاعة هي فعلٌ متعلق بأمر أو نهي ولا تكون إلا بعد وروده.

❁ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[النور٤٨]، عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَوْلُ اللَّهِ ﴿ وَأَطَعْنَا﴾ قَالَ أَقَرُّوا لِلَّهِ أَنْ يُطِيعُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ."[٢]، وقوله تعالى: ﴿ مُذْعِنِينَ﴾ مسرعين في طلب الطاعة **طلبًا لحقهم لا رضا بحكم رسولهم، قال الزجاج الإذعان: الإسراع مع الطاعة**"[٣].

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[النور٥٣] قال مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ في قوله ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾: وَذَلِكَ فِي شَأْنِ الْجِهَادِ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ

[١] تفسير البغوي ٢/٣٩٦

[٢] رواه ابن أي حاتم برقم ١٤٧٣٣

[٣] مدارك التنزيل وحقائق التأويل.٢/٥١٣

إِلَى الْجِهَادِ لَيَخْرُجُنَّ مَعَكَ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَّا تُقْسِمُواْ﴾، قَالَ: يَأْمُرُهُمْ أَنْ لَا يَحْلِفُوا عَلَى شَيْءٍ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، قَالَ:« **أَمَرَهُمْ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ طاعة مَعْرُوفَةٌ** لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقْسِمُوا» [1]،ومعلوم أن المنافقين كفار في الباطن وسمى الله قسمهم بالامتثال طاعة.

وقال يحي بن سلام: قَالَ اللَّهُ: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ أَيْ: لا تَحْلِفُوا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْكَلامَ فَقَالَ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، خَيْرٌ، وَهَذَا إِضْمَارٌ، أَيْ: خَيْرٌ مِمَّا تُضْمِرُونَ مِنَ النِّفَاقِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤] **يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ**"[2]،

❁ وقال تعالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾[محمد٢١]، وعن مجاهد ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾قال:« أمر الله بذلك المنافقين»[3].

وفي مجموع الآيات أنَّ الطاعة وإنْ وقعت من المنافقين فهي امتثال الأمر وإيجاد العمل ـ الذي هو التحاكم في الآية الثانية والجهاد كما في الآيتين الثالثة والرابعة ـ من غير تصديق، وسماها الله طاعة، فدل على أن الطاعة تُطلق على مجرد الامتثال أي إيجاد الأمر سواء كان مع التصديق أو من غير تصديق، أما ما يترتب عليه الجزاء والثواب فهو ما تواطئ عليه الباطن والظاهر جميعاً، أي: أن يكون العمل خالصا صواباً.

❁ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾[النساء ١١] قال الواحدي:" يريد من يُطعه فيما يدعو إليه من الضلال،

---

[1] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٤٧٥١

[2] تفسير بن سلام ١/ ٤٥٨

[3] تفسير الطبري ٢٢/١٧٦

فكل من أطاعه فهو وليٌّ له وإن لم يقصد أن يتولاه، **كما يكون مطيعًا له وإن لم يقصد أن يطيعه، بمو افقته لإرادته، وإجابته إلى ما دعاه إليه**، فهو يعمل عملًا يُعينه عليه الشيطان، وكان الشيطان له وليًا ناصرًا معينًا"[١].

من السنة

❁ ما رواه عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ﴾[٢]

❁ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لاَ نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ»[٣].

فتكون الطاعة مع عدم المطاوعة على الفعل، أي: الطاعة هي الامتثال المجرد ولو مع كراهية العمل، وعليه يكون شرك الطاعة في امتثال بعد الطلب والتلقي وليس في الاعتقاد، قال أبو الحسين الملطي:" وَمن المرجئة صنف زَعَمُوا أَن الْإِيمَان معرفَة بِالْقَلْبِ لَا فعل بِاللِّسَانِ وَلَا عمل بِالْبدنِ وَمن عرف الله بِقَلْبِه أَنه لَا شَيْء كمثله فَهُوَ مُؤمن وَإِن صلى نَحْو الْمشرق أَو الْمغرب وربط فِي وسطه زنارا وَقَالُوا لَو أوجبْنَا عَلَيْهِ الْإِقْرَار بِاللِّسَانِ أَوْجَبنَا عَلَيْهِ عمل الْبدن حَتَّى قَالَ بَعضهم الصَّلَاة من ضعف الْإِيمَان من صلى فقد ضعف إيمَانه.

نقُول كَيفَ تجوز لَهُ الصَّلَاة نَحْو الْمشرق وَقد قَالَ الله عز وَجل: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ

[١] التفسير البسيط للواحدي ١٠٥/٧

[٢] رواه البخاري برقم ٧١٤٤ ورواه مسلم برقم ١٨٣٩

٣ رواه البخاري برقم ٧١٩٩

شَطۡرَهُۥ﴾ وكَيف يجوز ربط الزنار فِي وَسطه وَقد قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام ﴿من تشبه بِقوم فَهُوَ مِنْهُم﴾.

وَكَيف تجوز الْمعرفَة بِالْقَلْبِ دون القَوْل وَالله عز وَجل يَقُول ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ **وَلَا تكون هَذِه الطَّاعَة إِلَّا بالْقَوْل وَالْعَمَل** قد قَالَ الْأَوْزَاعِيّ رَحمَه الله أدْركْت النَّاس وهم يَقُولُونَ الْإِيمَان قَول وَعمل وَقد ذكرنَا هَذَا فِي آخر الْكتاب مُجَردا إِن شَاءَ الله تَعَالَى"[1].

المطلب الرابع: طاعة أولياء أمور المسلمين

لقد أمر الله وأذن في طاعة أولياء أمور المسلمين في غير معصية الله، وأَجْمَعَ الْمُسْلِمونَ عَلَى أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِأولياء الأمور وَلَا غَيْرِهِم فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعالَى. وَقَدْ جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا لَبْسَ فِيهَا وَلَا مَطْعَنَ كَحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ﴾[2]، "وَقَالَ خُضَيْرٌ السُّلَمِيُّ لِعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَقَدْ حَدَّثَهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَرَأَيْتَ إِنْ أَطَعْتُ أَمِيرِي فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ قَالَ يُؤْخَذُ بِقَوَائِمِكَ فَتُلْقَى فِي النَّارِ وَلْيَجِئْ هَذَا فَيُنْقِذُكَ"[3]، وقال في التمهيد:" وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ أَمَرَ بِمُنْكَرٍ لَا تَلْزَمُ طَاعَتُهُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة ٢][4]، وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي السَّرِيَّةِ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ أَمِيرُهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا فِي النَّارِ: ﴿لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ﴾[5]، "قال محمد بن جرير: في

---

[1] التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ١٤٩/١

[2] رواه البخاري برقم ٧١٤٤ ومسلم برقم ١٨٣٩

[3] الاستذكار ١٥/٥

[4] التمهيد ٢٧٧/٢٣

[5] رواه البخاري برقم ٧١٤٥ ومسلم برقم ١٨٤٠

حديث علي وحديث ابن عمر البيان الواضح عن نهي الله على لسان رسوله عباده عن طاعة مخلوق في معصية خالقه، سلطانًا كان الآمر بذلك أو سوقة أو والدًا أو كائنًا من كان، فغير جائز لأحد أن يطيع أحدًا من الناس في أمر قد صح عنده نهي الله عنه، فإن ظن ظان أن في قوله ﷺ في حديث أنس: ﴿اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي﴾ وفى قوله في حديث ابن عباس : ﴿من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر﴾ حجة لمن أقدم على معصية الله بأمر سلطان أو غيره، وقال: قد وردت الأخبار بالسمع والطاعة لولاة الأمر فقد ظن خطئًا، وذلك أن أخبار رسول الله ﷺ لا يجوز أن تتضاد، ونهيه وأمره لا يجوز أن يتناقض أو يتعارض، وإنما الأخبار الواردة بالسمع والطاعة لهم ما لم يكن خلافًا لأمر الله وأمر رسوله، فإذا كان خلافًا لذلك فغير جائز لأحد أن يطيع أحدًا في معصية الله ومعصية رسوله، **وبنحو ذلك قال عامة السلف**"[١].

وفي روايةٍ لحديث عباد بن الصامت مرفوعاً: ﴿وَأَنْ لَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ **إلا أَنْ يَأْمُرُوكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ بَوَاحًا**، فَمَا أُمِرْتَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ **فَاتَّبِعْ كِتَابَ اللَّهِ**﴾[٢]. وهذه الرواية مفسرة لحديث جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ، بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»، قَالَ: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا** عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٣]، فجاء تفسير الكفر البواح بطاعة المشرعين في معصية الله.

وَقال تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[الممتحنة ١٢]، قال ابن زيد في قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾:« إن رسول الله ﷺ نبيّه وخيرته من خلقه، ثم لم

[١] شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢١٥/٨

[٢] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٤٧٤٥ ورواه الالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة برقم ٢٣٠٣

[٣] رواه البخاري برقم ٧٠٥٦ ورواه مسلم برقم ٤٢

يستحلّ له أمر إلا بشرط، لم يقل لا يَعْصِينَكَ ويترك. حتى قال: فِي مَعْرُوفٍ فكيف ينبغي لأحد أن يُطاع في غير معروف وقد اشترط الله هذا على نبيه»[١].

المطلب الخامس: ضابط الفرق بين طاعة المشرِّعين في معصية اللّه وطاعة الشيطان.

إنَّ امتثال التكليف ـ المتضمن لتحليل الحرام أو تحريم الحلال أو إسقاط الواجب أو تغيير أحكام الوضع ـ إنما يقع ممن يصدُرُ عن مثله التكليف، أي ممن له سلطان على المكلف، وأما من لا سلطان له على المكلف فلا تكليف في أمره ويسمى طلبه التماساً أو دعاءً، لأن الأمر يكون من أعلى إلى أدنى لا من مساوي أو ممن هو أدنى[٢]، قال الخطيب البغدادي:" الْأَمْرُ هُوَ: قَوْلٌ يَسْتَدْعِي بِهِ الْقَائِلُ الْفِعْلَ **مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ** ـ إلى أن قال ـ وَمَا كَانَ مِنَ الْأَدْنَى لِلْأَعْلَى فَلَيْسَ بِأَمْرٍ كَقَوْلِنَا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَإِنَّمَا هُوَ مَسْأَلَةٌ وَرَغْبَةٌ، ـ وروى بسنده ـ عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي قَالَ: " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤] **وَلِأَنَّ السَّيِّدَ لَوْ قَالَ لِعَبْدِهِ: اسْقِنِي مَاءً فَلَمْ يَسْقِهِ اسْتَحَقَّ الذَّمّ**، وَلَوْ لَمْ يَقْتَضِ أَمْرُ السَّيِّدِ الْوُجُوبَ لَمَا اسْتَحَقَّ الْعَبْدُ الذَّمَّ عَلَيْهِ وَإِذَا وَرَدَ الْأَمْرُ مُطْلَقًا بِفِعْلِ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ"[٣].

---

[١] تفسير الطبري ٨٠/٢٨

[٢] قال الفتوحي في تعريف الأمر:" وَأَمَّا حَدُّهُ أَيْ حَدُّ الأَمْرِ فِي الاصْطِلاحِ فَهُوَ "اقْتِضَاءُ مُسْتَعْلٍ مِمَّنْ دُونَهُ فِعْلاً بِقَوْلٍ. إلى أن قال. قَالَ فِي شَرْحِ التَّحْرِيرِ: وَاعْتَبَرَ أَكْثَرُ أَصْحَابِنَا، مِنْهُمْ الْقَاضِي وَابْنُ عَقِيلٍ وَابْنُ الْبَنَّاءِ وَالْفَخْرُ إسْمَاعِيلُ وَالْمَجْدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ حَمْدَانَ وَغَيْرُهُمْ، وَنَسَبَهُ ابْنُ عَقِيلٍ فِي الْوَاضِحِ إلَى الْمُحَقِّقِينَ ـ وذكر طائفة ـ **الْعُلُوَّ. فَأَمْرُ الْمُسَاوِي غَيْرِهِ يُسَمَّى عِنْدَهُمْ الْتِمَاسًا، وَالأَدْوَنِ سُؤَالاً."**

وقال الفخر الرازي: **"الذي عليه المتكلمون: أنه لا يشترط علوولا استعلاء"**، وما هو ما جزم به ابن السبكي، ورجحه العضد، ولم تشترط المعتزلة وغيرهم الاستعلاء" شرح الكوكب المنير ١٢/٣

[٣] الفقيه والمتفقه ٢٢٠/١

والعمل بهذا التكليف الصادر من المشرعين يسمى طاعة وامتثالاً، أما الاستجابة لداعي الغواية سواءً كان من النفس الأمارة بالسوء أو الهوى أو الشيطان لا يسمى تكليفاً، كقوله تعالى:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾[يوسف ٥٣]، قال البغوي :﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ يَعْنِي: إن النفس كَثِيرَة الْأَمر بالسوء: السوء هَاهُنَا هُوَ الْمَعْصِيَة"[١]،وقال تعالى:﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف١٧]، وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[فاطر٦] عَنِ ابْنِ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ ﴾الآية، قال:« يدعوا حَزْبَهُ إِلَى مَعَاصِي اللَّهَ، وَأَصْحَابُ مَعَاصِي اللَّهِ أَصْحَابُ السَّعِيرِ وَهَؤُلاءِ حِزْبُهُ مِنَ الْإِنْسِ أَلا تَرَاهُ يَقُولُ: أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ قَالَ: وَالْحِزْبُ وِلايَةُ الَّذِينَ يَتَوَلَّاهُمْ وَيَتَوَلَّوْنَهُ»[٢]، فالشيطان حريص على إيقاع بني آدم معه في نار جهنم، فيُحسِّن لهم الكفر والمعاصي، ويَعِد ويُمنِّي كما قال تعالى:﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[النساء١٢٠].

ولما نقول أنَّ الشيطان لا سلطان له على المكلف أي: سلطان القهر والإلزام والإكراه على العمل وهو السلطان الذي يتعلق به التكليف، وهو الذي ينفيه عن نفسه عندما يقوم خطيباً يوم القيامة كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [إبراهيم ٢٢] عن

---

[١] تفسير البغوي ٣٩/٣

[٢] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٧٩٣٠

الحَسَـنِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَـالَ:« إِذَا كَـانَ يَـوْم الْقِيَامَـة، قـام إبلـيس خطيبًـا عَلَى منبر مِـنْ نـار فقـال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ ... إِلَـى قَوْلِـهِ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾قَـال: بناصري ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾، بطاعتكم إياي في الدُّنْيَا»[1].

وقـال الطبـري: ومعنـاه: ولكـن ﴿دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ يقـول: **إلا أن دعـوتكم إلى طـاعتي ومعصـية اللـه، فاسـتجبتم لـدعائي** ﴿فَلَا تَلُومُونِي ﴾، على إجـابتكم إيـاي ﴿وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم ﴾، عليهـا"[2]. " وَقَـالَ الْبَصْـرِيُّونَ: وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ الْيَـوْمِ الْحَـقِّ ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾أَيْ: تَسَـلُّطٍ عَلَـيْكُمْ بِإِظْهَـارِ حُجَّـةٍ عَلَى مَـا وَعَـدْتُكُمْ بِـهِ وَزَيَّنْتُـهُ لَكُـمْ ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾أَيْ: **إِلَّا مُجَـرَّدُ دُعَـائِي لَكُـمْ إِلَى الْغَوَايَـةِ وَالضَّـلَالِ بِـلَا حُجَّـةٍ وَلَا بُرْهَـانٍ، وَدَعْوَتُـهُ إِيَّـاهُمْ لَيْسَـتْ مِـنْ جِـنْسِ السُّـلْطَانِ حَتَّى تُسْـتَثْنَى مِنْـهُ**، بَـلِ الِاسْـتِثْنَاءُ مُنْقَطِـعٌ، أَيْ: لَكِـنْ دَعَـوْتُكُمْ فَاسْـتَجَبْتُمْ لِي، أَيْ: فَسَـارَعْتُمْ إِلَى إِجَـابَتِي وَقِيـلَ: **الْمُـرَادُ بِالسُّـلْطَانِ هُنَـا الْقَهْـرُ** أَيْ: **مَـا كَـانَ لِيَ عَلَـيْكُمْ مِـنْ قَهْـرٍ يَضْـطَرُّكُمْ إِلَى إِجَـابَتِي** وَقِيـلَ: هَـذَا الِاسْـتِثْنَاءُ هُـوَ مِـنْ بَـابِ: تَحِيَّـةُ بَيْـنِهِمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعٌ، مُبَالَغَـةً فِي نَفْيِـهِ لِلسُّـلْطَانِ عَـنْ نَفْسِـهِ كَأَنَّـهُ قَـالَ: إِنَّمَـا يَكُـونُ لِيَ عَلَـيْكُمْ سُـلْطَانٌ إِذَا كَـانَ **مُجَـرَّدُ الـدُّعَاءِ** مِـنَ السُّـلْطَانِ، وَلَـيْسَ مِنْـهُ قَطْعًـا فَـلَا تَلُومُـونِي بِمَـا وَقَعْـتُمْ فِيـهِ بِسَـبَبِ وَعْـدِي لَكُـمْ بِالْبَاطِـلِ وَإِخْلَافِي لِهَـذَا الْمَوْعِـدِ وَلُومُـوا أَنْفُسَـكُمْ بِاسْـتِجَابَتِكُمْ لِـي بِمُجَـرَّدِ الـدَّعْوَةِ الَّتِـي لَا سُـلْطَانَ عَلَيْهَـا وَلَا حُجَّةَ"[3].

ولـو كـان الشـيطان لـه سـلطان على النـاس بقهـرهم على الضـلالة ـ سـوى الـدعاء ـ لأضـل جميـع الخلـق عـن الهدايـة كمـا قـال تعـالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[النساء: 118] قـال الواحـدي:" يريـد أهـل النـار، وقـال: ﴿

[1] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٢٢٤٦

[2] تفسير الطبري ٥٦١/١٦

[3] فتح القدير ١٣٤/٣

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُم﴾ الآية، **ولو كان شيء من الضلالة إليه سوى الدعاء إليها لأضل جميع الخلق عن الهدى**"[١]، وقال ابن أبي زمنين:" ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾أَيْ: يُطِيعُونَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَطِيعَ **أَنْ يُكْرِهَهُمْ** ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أَيْ: بِاللَّهِ مُشْرِكُونَ"[٢].

وما أثبته الله ـ في مواضع من كتابه ـ من السلطان والأمر والطاعة للشيطان، فهو **حجته وتسليطه وولايته على أوليائه من المشركين دون الموحدين**، والقاعدة في الباب: أنَّ المثبت غير المنفي، ودل على ذلك آيات:

❁ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[الاسراء٦٥] ، قال أبو جعفر :" يقول تعالى ذكره لإبليس: إن عبادي الذين أطاعوني، فاتبعوا أمري وعصوك يا إبليس، ليس لك عليهم حجة"[٣].

❁ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل١٠٠] ، **عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ:** ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾**قَالَ:« حجته عَلَى الذين يتولونه وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ قَالَ: يعدلونه برب العالمين»**[٤].

[١] التفسير البسيط للواحدي ١٠٤/٧
[٢] تفسير ابن أبي زمنين ٤١٨/٢
[٣] تفسير الطبري ٤٧٦/١٧
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٢٦٥٥

❁ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَهُ: ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء١٤٤] قَالَ: «كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ» وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَالضَّحَّاكِ وَالسُّدِّيِّ، وَالنَّضْرِ بْنِ عَرَبِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ"[١].

❁ عَنْ سُفْيَانَ الثوري فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قَالَ:« ليس لَهُ سلطان عَلَى أن يحملهم عَلَى ذنب لا يغفر لَهُمْ»[٢].

❁ وقال الطبري: وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فإنه يعني بذلك: أن الشيطان ليست له حجة على الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله به وانتهوا عما نهاهم الله عنه﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: وعلى ربهم يتوكلون فيما نابهم من مهمات أمورهم﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يقول: **إنما حجته على الذين يعبدونه**، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾، يقول: والذين هم بالله مشركون"[٣].

والشيطان هو رأس الطواغيت وكل عبادة لغير الله في الأرض أو تشريع من دون الله إنما وقعت بتزيين الشيطان لأوليائه وطاعة أمره واتباع وحيه، ولا يوجد من الناس غالباً[٤]من يقصد عبادة الشيطان لذاته، بل الكل يفرّ عن عبادته ويتبرأ منها، وإنما يعبدون من دون الله أولياء وزين لهم الشيطان أعمالهم كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة٣٧]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء١١٧]، "أَيْ: هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وَحَسَّنَهُ لَهُمْ

[١] رواه ابن أي حاتم برقم ٦١٥١

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٢٦٥٤

[٣] تفسير الطبري ٢٩٤/١٧

[٤] إلا ما ظهر في هذا الزمان طائفة من البشر تعبد ذات الشيطان والله المستعان.

وَزَيَّنَهُ، **وَهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ إِبْلِيسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ**، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[يس٦٠] وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ادَّعَوْا عِبَادَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سَبَإ: ٤١]"[١]، وقال ابن أبي زمنين:" ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾لأنهم عبدُوا الْأَوْثَان بِمَا وسوس إِلَيْهِم الشَّيْطَان؛ فَأمرهمْ بعبادتهم فَإِنَّمَا عبدُوا الشَّيْطَان"[٢].

وطاعة المشركين للشيطان هي طاعة عبادة وهي الواردة في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[ياسين: ٦٠]، أخرج ابن الْمُنْذر عَن مَكْحُول فِي قَوْله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ قَالَ: إِنَّمَا عبَادَته طَاعَته"[٣]، وله عليهم سلطان وولاية كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل١٠٠]، ويأمرهم ويخوفهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران١٧٥]، فالكافر عبدٌ للشيطان يطيعه ويتولاه وينقاد لأمره ووحيه، فعن عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ، كَتَبَ إِلَى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ يَسْأَلُهُ عَنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، فَأَجَابَهُ فِيهَا:" تَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ: وَالدِّينُ الْعِبَادَةُ، فَإِنَّكَ لَنْ تَجِدَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ دِينٍ يَتْرُكُ عِبَادَةَ أَهْلِ دِينِهِ، ثُمَّ لَا يَدْخُلُ فِي دِينٍ آخَرَ إِلَّا صَارَ لَا دِينَ لَهُ، **وَتَسْأَلُ عَنِ الْعِبَادَةِ: وَالْعِبَادَةُ هِيَ الطَّاعَةُ**، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ وَفِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ فَقَدْ أَتَمَّ عِبَادَةَ اللَّهِ، وَمَنْ أَطَاعَ الشَّيْطَانَ فِي دِينِهِ

---

[١] تفسير بن كثير ٤١٥/٢

[٢] تفسير ابن أبي زمنين ٥٠/٤

[٣] الدر المنثور ٦٧/٧

وَعَمَلِـهِ فَقَـدْ عَبَـدَ الشَّـيْطَانَ، أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللَّـهَ قَـالَ لِلَّـذِينَ فَرَّطُـوا: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [ياسين: ٦٠] **وَإِنَّمَا كَانَتْ عِبَادَتُهُمُ الشَّيْطَانَ أَنَّهُمْ أَطَاعُوهُ فِي دِينِهِمْ**، فَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَهُمْ فَاتَّخَذُوا أَوْثَانًا أَوْ شَمْسًا أَوْ قَمَرًا أَوْ بَشَرًا أَوْ مَلَكًا يَسْجُدُونَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، **وَلَمْ يَظْهَرِ الشَّيْطَانُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ**، فَيَتَعَبَّدْ لَهُ، أَوْ يَسْجُدْ لَهُ، وَلَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُ فَاتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَمَّا جُمِعُوا جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ قَالَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ: ﴿ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ، **وقال تعالى**: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٨] **فَعُبِدَ عِيسَى وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ** دُونِ اللَّهِ فَلَمْ يَجْعَلْهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ، فَلَيْسَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ذَنْبٌ، وَذَلِكَ يَصِيرُ إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، فَيَجْعَلُهُمْ مَعَهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ حِينَ تَقَرَّبُوا مِنْهُمْ: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٩٨] **وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ حِينَ** سَأَلَهُمُ اللَّهُ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠] قَالَ: أَفَلَا تَرَى إِلَى عِبَادَتِهِمُ الْجِنَّ إِنَّمَا هِيَ أَنَّهُمْ أَطَاعُوهُ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، **فَيَصِيرُ الْعِبَادَةُ إِلَى أَنَّهَا طَاعَةٌ** "[1]، ومن صور عبادة الشيطان ما روي عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾[الجن: ٦] كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أُنْزِلُوا مَنْزِلًا قَالُوا: نَعُوذُ بِأَعَزِّ هَذَا الْمَكَانِ ﴿ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ قال يَقُولُ: «خَطِيئَةً وَإِثْمًا»"[2]

أما المؤمنون فلا سلطان للشيطان عليهم ولا حجَّة ولا ولاية، وقد يستزلُّهم ويغويهم في حالة غفلة أو ضعف أو شهوة، وهذا غاية ما يظفر به منهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا

[1] رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة برقم ٣٤٥

[2] تفسير عبد الرزاق برقم ٣٣٤٨

كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[آل عمران ١٥٥] وأرشد الله إلى طريق النجاة منه وأوضح حال المؤمن معه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف ٢٠١]، وبين النبي ﷺ هذا المعنى جلياً كما ورد عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[1]، **يعني أن الشيطان لما أيس من الموحدين الشرك الذي هو في الطاعة والعبادة رضي منهم بالتحريش أي ما دون ذلك**، فالذي يقع من المسلمين من المعاصي بسبب استزلال الشيطان كالتحريش وغيره لا يسمى شركاً في العبادة ولا شركاً في الطاعة، وإنما يسمى استجابة لمعصية وهو جنس المعاصي عموماً.

فاستجابة الموحد لداعي الغواية من النفس أو الهوى أو شياطين الإنس والجن يكون بحسب العمل، فمن أجاب إلى كفر فقد كفر ودخل في عبادة الشيطان، ومن أجاب إلى معصية ففعله معصية وهذا لا يدخل في شرك الطاعة الذي يُصرف للمشرعين من دون الله كما سبق بيانه، فارتكاب المعصية من المسلم لا يكون إلا استجابة لغواية أو وسوسة على مقتضى الهوى أو الاسترسال الطبيعي مع خواطر النفس والشيطان ثم العزم على الفعل، إلا إذا وصل إلى مرتبة استحلال المعصية فيكون قد اتخذ إلهه هواه إذا أحلَّ بتحليله وحرَّم بتحريمه فمن هنا فقط يكون الكفر، كما قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان ٤٣] .

أما شرك الطاعة فهو امتثال التكليف الصادر من المشرعين وقبول التلقي منهم في التحليل أو التحريم والدخول في العمل، ولا يشترط فيه الاستحلال لأن الاستحلال كفر مجرد لا يلزم أن تُصاحبه الطاعة، أي من استحل الحرام أو حرم الحلال كفر ولو لم يعمل أو يمتثل، أما طاعة

[1] رواه مسلم برقم ٦٥

المشرعين في المعصية فهي كفر عملي مجرد لا يشترط فيه اعتقاد الحل أو الحرمة، وهذا الذي يتخرج على معتقد أهل السنة والجماعة في باب الإيمان خلافاً لمن علق الكفر بالاستحلال فأصبحت الطاعة لغواً لا يضر دخولها أو خروجها كمناط للكفر، وهذا التأصيل فيه إلغاء لأحد أنواع الشرك بالله الذي هو شرك الطاعة.

المطلب السادس: الدخول في مؤسسات الطاغوت

وهنا بحث دقيق: إذ لا يكفي في الكفر بأنظمة الطواغيت في هذا الزمان اعتقاد بطلانها، بل يجب مفاصلتها واجتنابها، إذ الانقياد لهذا النظام بالدخول في مؤسساته الطاغوتية يُصادم الإسلام من كل وجه، إذ لا يخلو ذلك من طاعة المشرعين في معصية الله والاتباع لشريعة غير الله، وهي معنى العبادة لهم كما سبق بيانه، فإن الانقياد والخضوع لنظام وضعي بالدخول في مؤسساته وطاعة قوانينه والانقياد لها خروج من دين الله إلى دين طواغيت الأرض ... فإما الانقياد لأمر الله تعالى وترك الانقياد لغيره من الأنظمة الوضعية فهو الإسلام، أو الانقياد للطواغيت ونظام مُلكهم والدخول في مؤسساتهم فهو دين الجاهلية، ولا ينفع معه اعتقاد البطلان فإن الإسلام قول وعمل ونية ولا يجزئ أحدها عن الآخر كما سبق تقريره في أول الباب، ولا يَسلم للمرء دينه في هذا الزمان إلا باعتزال الأنظمة الجاهلية وعدم المشايعة لها بالعمل كما قال تعالى عن خليله إبراهيم: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم ٤٨]، فإن الخروج من الجاهلية باعتقاد بطلان أوضاعها والبراءة من أهلها وترك المتابعة والانقياد لنظامها الطاغوتي هو صحيح الإسلام الذي ينجوا به المرء من ظلمات الجاهلية وحمأة الكفر، وهو الذي تتحقق به العبودية لله عز وجل وحده دونما سواه بالخروج جُملةً من العبودية للبشر، أما إنْ كان في حياته منقاداً لنظام الطواغيت الذي استمداده من أهواء البشر فهو عبد للبشر لا لله تعالى.

واعلـم أن أنظمـة الطواغيـت قائمـة في الأرض على المحـادة للـه عـز وجـل والمحاربـة لدينـه وتعبيـد النـاس لغير اللـه، وغمسـهم في الشـرك والكفـر وزجهـم في الوثنيـة وردهـم إلى الجاهليـة، وتنشـئة الأجيـال على ديـن الديمقراطيـة وسـلخهم مـن ديـن الفطـرة، وسـجن وقتـل أهـل الصـلاح والإصـلاح وفتـنهم عـن ديـنهم وصـدهم عـن الـدعوة إلى الحـق، فهـذا النظـام لا يقـوم في الأرض إلا بقـوة تحميـه وجيـوش وشُـرَطٍ تَـذُودُ عنـه وتُقـيم أركانـه وتـدفع عنـه صـولة أهـل الحـق، وإن كـان حمايـة عـروش الطواغيـت يكـون بالحديـد والسـلاح، فهـو كـذلك بإضـفاء الشـرعية على مُلكهـم وتَصحيحِ مـذهبهم وأمـرِ العامـة بطـاعتهم وهـؤلاء هـم حَميرُ العلـم التـابعين للمؤسسـات الدينيـة المواليـة للنظـام، فـلا فـرق بـين الجنـدي في الثكنـات والجبهـات والإمـام الـذي يرتقـي المنبر ويـدعوا للطـاغوت بطـول العمـر والبركـات، فهـذا الأخير أشـدُ كفـرا وأكبر جُرْمـاً وإثمـاً وهـو في أسـفل الـدركات، وإن كـان النبـي ﷺ نهـى عـن العمـل تحـت إمـارة مـن يـؤخرون الصـلاة عـن وقتهـا ويقربـون شـرار النـاس فكيـف بأهـل الملـل المبـدلين لشـريعة اللـه، فعَـنْ أَبِـي سَـعِيدٍ، وَأَبِـي هُرَيْـرَةَ، قَـالَا: قَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ: ﴿لَيَـأْتِيَنَّ عَلَـيْكُمْ أُمَـرَاءُ يُقَرِّبُـونَ شِـرَارَ النَّـاسِ، وَيُـؤَخِّرُونَ الصَّـلَاةَ عَـنْ مَوَاقِيتِهَـا، فَمَـنْ أَدْرَكَ ذَلِـكَ مِـنْكُمْ فَـلَا يَكُـونَنَّ عَرِيفًا، وَلَا شُرْطِيًا، وَلَا جَابِيًا، وَلَا خَازِنًا﴾"[١].

وإنَّ هـذا النظـام الوضـعي يقـوم علـى المـال الـذي هـو عَصَـبُ السُـلطان، ولـذلك فالمؤسسـات الاقتصـادية الكبـرى التـي يقـوم عليهـا اقتصـاد الـدول[٢] تعـود نفقاتهـا علـى مـا يقـوم عليـه ديـن الطـاغوت في الأرض[٣]، فـإن ميزانيـة الجيـوش والسـجون والمـدارس والإعـلام وغيرهـا كبيـرة جـداً قـد لا يتحمَّلهـا اقتصـاد تلـك البلـدان إلا بالاسـتدانة مـن صـناديق الغـرب ... وكـذا المؤسسـات

[١] رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٤٥٨٦

٢ كمؤسسة أرامكوا في السعودية ونحوها.

[٣] قـال ابـن حـزم:" وَكَـذَلِكَ: مَـنْ سَـكَنَ بِـأَرْضِ الْهِنْـدِ، وَالسِّـنْدِ، وَالصِّـينِ، وَالتُّـرْكِ، وَالسُّـودَانِ وَالـرُّومِ، مِـنْ الْمُسْـلِمِينَ، فَـإِنْ كَانَ لَا يَقْـدِرُ عَلَى الْخُـرُوجِ مِـنْ هُنَالِـكَ لِثِقَـلِ ظَهْـرٍ، أَوْ لِقِلَّـةِ مَـالٍ، أَوْ لِضَـعْفِ جِسْـمٍ، أَوْ لِامْتِنَـاعِ طَرِيـقٍ، فَهُـوَ مَعْـذُورٌ. فَـإِنْ كَانَ هُنَاكَ مُحَارِبًا لِلْمُسْلِمِينَ **مُعِينًا لِلْكُفَّارِ بِخِدْمَةٍ، أَوْ كِتَابَةٍ**: فَهُوَ كَافِرٌ" المحلى ١٢/ ١٢٦

التربويــة والتعليميــة قائمــة علــى تنشــئة الأجيــال كفــار أصــليين علــى ديــن الديمقراطيــة، فعامــة هــؤلاء العــاملين في هــذه المؤسســات العلمانيــة الطاغوتيــة طــائعين منقــادين لهــا تجــري علــيهم أحكامهــا اختيــاراً، وهــم يعلمــون ســلفاً أن لهــذه المؤسســات شــرائع وأنظمــة ولــوائح وضــعية تخاطــب كافــة العــاملين في هــذه المؤسســات، ويُلزمــون بهــا ويخضــعون لهــا، ويعلمــون كــذلك أن مــن سَــنَّ هــذه التشــريعات وقــرر هــذه اللــوائح طائفــة مــن البشــر لــم يهتــدوا بهــدي اللــه، ولــم يــردوا أمــرهم إلى شــريعة اللــه، وإنمــا مــردهم إلى الأهــواء والمصــالح التي قــد تتفــق أحيانــاً مــع شــريعة اللــه، وكثيرا مــا تضــاد أحكــام اللــه وتــأمر بمعصــية اللــه، فهــم بــدخولهم في هــذه المؤسســات قــد عقــدوا معهــا عقــوداً فيهــا دلالــة ظــاهرة علــى قبــولهم للتكليــف ومتــابعتهم لنظــام كفــري وطــاعتهم للطواغيــت المشــرعين في أمــرهم ونهــيهم، فهــؤلاء ليســوا محــل نــزاع ولا يشــك في كفــرهم إلا مــن طمــس اللــه بصــيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم.



الباب الرابع

البراءة من الشرك والأقوام المشركة

الفصل الأول

بيان التلازم بين البراءة من الشرك[1] والبراءة من المشركين

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[الأنعام:٧٩]، بهذه الكلمات واجه إبراهيم الحنيف قومه بالدعوة إلى التوحيد: فأعلن فيهم البراءة من الشرك بقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ ، وجهر بالحنيفية وإفراد الله بالعبودية والتوجه للذي فطر السماوات والأرض بقوله: ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ ﴾ وصدع فيهم بالبراءة منهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ " أي: لست ممن يدين دينكم، ويتّبع ملّتكم أيُّها المشركون"[2]، لست منكم ولا أنتم مني، لكم دينكم وليَّ دين، أنتم على الشرك وأنا على الحنيفية، أنتم المشركون وأنا ومن اتبعنيَّ المسلمون.

---

[1] **الشرك:** قد عرفه النبي ﷺ بتعريف جامع: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ :" أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: **﴿أنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ﴾** رواه البخاري برقم ٤٤٧٧ ، وعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ سَأَلَهُ رَجُلٌ، عَنِ الشِّرْكِ؟ فَقَالَ: أَنْ تَجْعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ". رواه ابن أبي حاتم برقم ١٥٤٠٠، وقال السمعاني :"الْإِشْرَاك: هُوَ الْجمع بَين الشَّيْئَيْنِ فِي معنى، فالإشراك بِاللَّه: هُوَ أَن يجمع مَعَ الله غير الله فِيمَا لَا يجوز إِلَّا لله" تفسير السمعاني ٢/١٢١

[2] تفسير الطبري ١١/٤٨٨

إن القضية عند أصحاب الفطر السليمة جد واضحة بقدر صفاء الفطرة وانتفاء الغبش ... إذ لا يتم الدخول في دين الإسلام حتى تُتْرَكَ مِلَّةُ الشرك بمفاصلة الآلهة الباطلة وعابديها والبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله، والبراءة من الشرك لا تنفك عن البراءة من المشركين، لأن الله عز وجل جعل الميثاق والفطرة حجة على الإشراك به كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[الأعراف ١٨٢] ، قال ابن أبي زمنين: " ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ وجدناهم على ملةٍ فاتبعناهم"[١].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»[٢].

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ **قال:« الإسلام مُذ خلقهم الله من آدم جميعا، يقرّون بذلك، وقرأ:** ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ قال: فهذا قول الله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ بعد»[٣]، وعن مجاهد ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ قال:« الإسلام»[٤].

---

[١] تفسير ابن أبي زمنين ١٥٢/٢.

[٢] رواه مسلم برقم (٢٨٠٥)

[٣] رواه الطبري ٩٧/٢٠

[٤] نفس المصدر

ولا يُعـذر المشـرك بحـال[1] لأن الحجـة قائمـةٌ عليـه في كـل حـال، أي لا يقـع في الشـرع وُجـود شـرك اختيـاراً دون مشـرك، ولـيس في ديـن اللـه مشـرك مسـلم إلا في

---

[1] سـرد الأدلة من كتاب الله وسـنة رسـول الله ﷺ على عدم العذر بالجهل في الشـرك بالله تعالى و أنه لا فرق بين المعاند والجاهل ما يلي:

من كتاب الله:

۞ قـال تعـالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[الأعراف ٣٠]، قال الزجاج:" يدل على أن **قوماً ينتحلون الإسـلامَ ويزعمونَ أن من كان كافراً وهو لَا يعلم إنَّه كافر فليس بكافرٍ مُبْطِلُون لأمر نِحْلتِهِمْ**، لأن الله جل ثناؤُه قد أعلمنا أنهم يَحْسَـبون أنهمْ مهتدون، **ولا اختلاف بين أهل اللغة في أن الحُسْبَانَ ليس تأْويله غيرَ مَا يُعْلم من معنى حسب**" معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٣٣١

وقال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضـلالة، إنما ضـلوا عن سـبيل الله وجارُوا عن قصـد المحجة، باتخاذهم الشـياطين نُصـراء من دون الله، وظُهراء **جهلا منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق**، وأن الصـواب ما أتوه وركبوا، **وهذا من أبين الدلالة** على خطأ قول من زعمَ أن الله لا يعذّب أحدًا على معصـية ركبها أو ضـلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصـواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها. **لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسَبُ أنه هادٍ. وفريق الهدى، فَرْقٌ وقد فرَّق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية**" تفسير الطبري ١٢/ ٣٨٨

۞ **وقـال تعـالى**: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[التوبة: ٦]، قـال الطبري: يقـول -تعـالى ذكـره- لنبيـه وإن اسـتأمنك يـا محمـد مـن المشـركين الـذين أمرتـك بقتـالهم وقـتلهم بعـد انسـلاخ الأشـهر الحـرم أحـد ليسـمع كـلام اللـه منـك وهـو القـرآن الـذي أنزلـه اللـه عليـه ﴿فَأَجِرۡهُ﴾يقـول: فأمّنـه حتى يسـمع كـلام اللـه وتتلـوه عليـه ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾، يقـول: ثـم رده بعـد سـماع كـلام اللـه إن هـو أبى أن يسـلم ولـم يـتعظ بمـا تلوتـه عليـه مـن كـلام اللـه فيـؤمن إلى مأمنـه .... ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾، يقـول: تفعـل ذلـك بهـم مـن إعطائـك إيـاهم الأمـان ليسـمعوا القـرآن وردك ايـاهم إذا أبـوا الإسـلام إلى مـأمنهم مـن أجـل أنهـم: قـوم جهلـة لا يفقهـون عـن اللـه حجـة، ولا يعلمـون مـا لهـم بالإيمـان باللـه لـو آمنـوا، ومـا علـيهم مـن الـوزر والإثـم لتركهم الإيمـان باللـه " تفسير الطبري ١٤/ ١٣٨

وقـال البغـوي: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ﴾ فيمـا لـه وعليـه مـن الثـواب والعقـاب ... ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾أي: لا يعلمـون ديـن اللـه وتوحيـده فهـم محتـاجون إلى سـماع كـلام اللـه. قـال الحسـن: هـذه الآيـة محكمـة إلى قيـام السـاعة" تفسير البغوي٢/٣١٩.

۞ **وقوله تعالى**: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾[البينة: ١].

قـال البغـوي:" ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وهـم اليهـود النصـارى، وَالْمُشْـرِكِينَ، وَهُـمْ عَبَـدَةُ الْأَوْثَـانِ، ﴿مُنفَكِّينَ﴾مُنْتَهِـينَ عَـنْ كُفْـرِهِمْ وَشِـرْكِهِمْ وَقَـالَ أَهْـلُ اللُّغَـةِ زَائِلِـينَ مُنْفَصِـلِينَ، يُقَـالُ: فَكَكْـتُ الشَّـيْءَ فَانْفَـكَّ أَيِ انْفَصَـلَ، ﴿مُنفَكِّينَ﴾ لَفْظُـهُ مُسْـتَقْبَلٌ وَمَعْنَـاهُ الْمَاضِـي أَيْ حَتَّـى أَتَـتْهُمُ الحجـة الواضـحة، يعني مُحَمَّـدٍ ﷺ أتـاهم بـالقرآن فبـيّن لهـم

ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيمَنْ آمَنَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، **أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ حَتَّى أَتَاهُمُ الرَّسُولُ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَآمَنُوا فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ**" تفسير البغوي ٢٩٠/٥.

❁ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف١٧٩]، قال مجاهد: « ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾**قال: لا يفقهون بها شيئًا من أمر الآخرة** ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، **الهدى** ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾**الحقَّ، ثم جعلهم كالأنعام سواءً، ثم جعلهم شرًا من الأنعام، فقال:** ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، **ثم أخبر أنهم هم الغافلون**» رواه الطبري برقم ١٥٤٤٨ ، فعطل الله عنهم وسائل الإدراك وجعلهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل، وجعلهم من أهل الغفلة ومن أهل النار.

❁ **وقال تعالى:**﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الحج٩]، فجعل الله مصير الجاهل الذي يُضل الناس بغير علم نار جهنم، قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يخاصم في توحيد الله وإفراده بالألوهة بغير علم منه بما يخاصم به ﴿وَلَا هُدًى﴾يقول: وبغير بيان معه لما يقول ولا برهان" تفسير الطبري ٥٧٣/١٨

❁ **قوله تعالى** :﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المؤمنون١١٧]، قال يحي بن سلام ﴿لا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾: لا حجة له به" تفسير يحي بن سلام ٢٩٠/١ ، أي سماهم الله كافرين لعبادتهم غير الله بغير حجة ولا علم أي بجهل.

❁ **وقال تعالى:**﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[الروم٢٩]، قال الطبري:" **اتبعوا أهواءهم، جهلا منهم لحقّ الله عليهم**، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾يقول: فمن يسدّد للصواب من الطرق، يعني بذلك من يوفق للإسلام مَن أضلّ الله عن الاستقامة والرشاد" الطبري ٩٧/٢٠ ، وفي الآية دلالة أن الشرك قرين الجهل.

❁ **وقال تعالى:**﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[الحج ٧١]، قال أبو حفص سراج الدين الدمشقي:" ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجة ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ **عن جهل وليس لهم به دليل عقلي فهو تقليد وجهل**، والقول الذي هذا شأنه يكون باطلاً﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾،أي وما للمشركين من نصير مانع يمنعهم من عذاب الله" اللباب في علوم الكتاب ١٤٦/١٤، وفي الآية دلالة أن الشرك قرين الجهل.

❁ **وقال تعالى:**﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[العنكوت٨] قال السمعاني: " وَقَوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾إِنَّمَا قَالَ هَذَا؛ **لِأَن الشّرك كُله عَن جهل**، فَإِن الْعَالم لَا يُشْرك بِاللَّه" تفسير السمعاني ١٦٨/٤

❁ **وقال تعالى**: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[الزمر٦٤] ،قال حرب الكرماني في مسائله «قُلْتُ لِإِسْحَاقَ: الرَّجُلُ يَقُولُ لِلْمُشْرِكِ إِنَّهُ رَجُلٌ عَاقِلٌ؟ قَالَ: لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: لِأَنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عُقُولٌ» مسائل حرب ٨٨١/٢.

❁ **وقال تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[البقرة ١١٨] عَنِ الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَوْلُهُ: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ **قَالَ:« هُوَ قَوْلُ كُفَّارِ الْعَرَبِ وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوُ ذَلِكَ»** رواه ابن أبي حاتم ،١١٤١ وقال السمرقندي :" قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: **لا يعلمون توحيد الله تعالى، ومعناه: وقال الجهال من الناس- وهم الكفار-**" تفسير السمرقندي ٨١/١

❁ **وقال تعالى:** ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾[الكهف١٠٥].

قال الطبري:" **وهذا من أدَل الدلائل على خطأ قول من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته**، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، أن سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهب ضلالا وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم. ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يعلم، لوجب أن يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر الله عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه، كانوا مثابين مأجورين عليها، ولكن القول بخلاف ما قالوا، فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم بالله كفرة، وأن أعمالهم حابطة" تفسير الطبري ١٢٨/١٨

وعن أبي الطفيل، قال: قام ابن الكوّاء إلى عليّ، فقال: من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، قال: ويْلُك أهل حَروراء منهم" رواه ابن أبي حاتم ١٢٧/١٨.

وقال ابن منده: **ذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُخْطِئَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ ، عَزَّوَجَلَّ ووَحْدَانِيَّتِهِ كَالْمُعَانِدِ** قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ضَلَالَتِهِمْ وَمُعَانَدَتِهِمْ: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا فَقَالَ: كَفَرَةُ أَهْلُ الْكِتَابِ كَانَ أَوَائِلُهُمْ عَلَى حَقٍّ، فَأَشْرَكُوا بِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ وَابْتَدَعُوا فِي دِينِهِمْ، وَأَحْدَثُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ يَجْتَمِعُونَ فِي الضَّلَالَةِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى، وَيَجْتَهِدُونَ فِي الْبَاطِلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. وَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مِنْهُمْ أَهْلُ حَرُورَاءَ" التوحيد لابن منده ٣١٤/١

والاجتهاد في الأصول غير مقبول، والمخطئ في ذلك غير معذور بالإجماع، قال أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني:" ومن قول أهل السنة: أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، لأن الخوارج اجتهدوا في التأويل فلم يعذروا إذ خرجوا بتأويلهم عن الصحابة فسماهم عليه الصلاة والسلام مارقين من الدين، وجعل المجتهد في الأحكام مأجورا وإن أخطأ" الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ ص١٢١ وهذا إجماع على أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، فكيف بمن أداه اجتهاده إلى الشرك!!، قال اللالكائي «**أجمع أهل السنة و الجماعة على أنّه لا اجتهاد في مسائل الاعتقاد**، و أنه لا مجال للرأي وإعمال العقل فيها، و أنّه لا يسمع مسلم فيها إلا التسليم و الإتباع لعقيدة السلف الصالح، وأنّه من لم يسعه ما وسعهم فلا وسّع الله عليه» شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣١٥

❁ وقوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم٧]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَعْنِي:« الْكُفَّارُ، يَعْرِفُونَ عُمْرَانَ الدُّنْيَا، وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَّالٌ» تفسير بن كثير ٣٠٥/٦.

ومن السنة والأثر

❁ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» رواه مسلم ٢٦، وفيه دلالة أن من جهل التوحيد ومعنى لا إله إلا الله دخل النار، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى:﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا

مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[الزخرف٨٦] قال السمعاني :" وَقَوله: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾مَعْنَاهُ على الْقَوْل الأول: إِلَّا لمن شهد بِالْحَقِّ، وَهُوَ من شهد بِلَا إِلَه إِلَّا الله وَقَوله: ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ظَاهر الْمَعْنى، **وَمَعْنَاهُ: يشْهدُونَ عَن علم**" تفسير السمعاني ١٢٠/٥.

❁ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، **حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ**» رواه البخاري برقم ٤٩٢٠ ومعناه أن عبادة الأصنام كانت بعد ذهاب العلم وحلول الجهل فالشرك قرين الجهل ، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ" يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي خَفْقَةٍ مِنَ الدِّينِ، **وَإِدْبَارٍ مِنَ الْعِلْمِ**" رواه أحمد ١٤٩٥٤

❁ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، فقد بينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر». شرح السنة للبربهاري ٣٦/١

❁ وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾[الانفطار٦]فَقَالَ: «غَرَّهُ وَاللَّهِ جَهْلُهُ» رواه ابن أبي حاتم برقم ١٩١٧٤

❁ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «أَلَا لَا يقلدنَّ أَحَدُكُمْ دِينَهُ رَجُلًا، إِنْ آمَنَ آمَنَ، وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ، فَإِنَّهُ لَا أُسْوَةَ فِي الشر» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩ ١٦٦) برقم (٨٧٦٤ ٨٧٦٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١ ١٨٠): رجاله رجال الصحيح. فتأمل قوله وإن كفر كفر فجعل التقليد والمتابعة على الكفر كفر ولم يعذره بذلك.

❁ عن الْمُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَارَةَ بْنَ زَاذَانَ يَقُولُ: « بَلَغَنِي أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ، **فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ**، قَالَ: وَبَلَغَنِي أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنْتُمْ خُصَمَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » رواه عبد الله في السنة برقم ٨٥٣.

❁ وأخرج عبد بن حميد وَابْن جرير عَن قَتَادَة فِي قَوْله:﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾قَالَ: من بعد مَا أَرَاهُم الله من إحْيَاء الْمَوْتَى وَمن بعد مَا أَرَاهُم من أَمر الْقَتِيل ﴿ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ ﴾**ثمَّ عذر الله الْحِجَارَة وَلم يعْذر شقي ابْن آدم** فَقَالَ ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾" الدر المنثور ١٩٧/١.

ومن أقوال العلماء

❁ قال المروزي:" وَالْجَهْلُ بِاللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ كُفْرٌ قَبْلَ الْخَبَرِ وَبَعْدَ الْخَبَرِ" تعظيم قدر الصلاة ص ٥٢٠.

❁ وقَالَ الشَّافِعِيُّ:" لَوْ عُذِرَ الْجَاهِلُ، لِأَجْلِ جَهْلِهِ لَكَانَ الْجَهْلُ خَيْرًا مِنَ الْعِلْمِ إذْ كَانَ يَحُطُّ عَنْ الْعَبْدِ أَعْبَاءَ التَّكْلِيفِ وَيُرِيحُ قَلْبَهُ مِنْ ضُرُوبِ التَّعْنِيفِ، فَلَا حُجَّةَ لِلْعَبْدِ فِي جَهْلِهِ بِالْحُكْمِ بَعْدَ التَّبْلِيغِ وَالتَّمْكِينِ، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾" المنثور من القواعد ١٧/٢.

❁ وحكى أبو الحسين الملطي الإجماع على أن الجهل مناط مكفر فقال: "وَمعنى ذَلِك أَن معتزلة بَغْدَاد وَالْبَصْرَة وَجَمِيع أهل الْقبْلَة لَا اخْتِلَاف بَينهم أَن من شكّ فِي كَافِر فَهُوَ كَافِر لِأَن الشاك فِي الْكفْر لَا إِيمَان **لَهُ لِأَنَّهُ لَا يعرف كفرا من إِيمَان** فَلَيْسَ بَين الْأمة كلهَا الْمُعْتَزلَة وَمن دونهم خلاف أَن الشاك فِي الْكَافِر كَافِر" التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ٤٠/١

عقـول أحفـاد الجهـم، لأن الحنيـف غيـر المشـرك قـال تعـالى:﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج ٣١]، قـال أبـو بكـر الصـديق: «كـان النـاس يحجـون وهـم مشـركون فكـانوا يسـمونهم حنفـاء الحجـاج، فنزلـت﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ ﴾»[١].

وكـل مـن تلـبس بالشـرك مختـاراً يُسـمى مشـركاً في كـل أحوالـه عالمـاً كـان أو جـاهلاً، مُعانـداً كـان أو مُعرضـاً، متـأولاً كـان أو مُلَبَّسـاً عليـه يحسـب أنـه مـن المهتـدين، كـان قبـل الرسـالة أو بعـدها، حـديثُ عهـدٍ بإسـلام أو يعـيش في نائيـة، إذْ الحجـة قائمـة عليـه بـالفطرة والميثـاق وهـي لا تنفـك عنـه في جميـع هـذه الأحـوال، قـال تعـالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس] قـال الطبـري:" يقـول تعـالى ذكـره: فبـين لهـا مـا ينبغـي لهـا أن تـأتي أو تـذر مـن خيـر أو شـرّ أو طاعـة أو معصـية"[٢]، وعـن ابـن عبـاس، قولـه: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾يقـول: بـيَّن الخيـرَ والشـرَّ " وقـال :" علَّمهـا الطاعـة والمعصـية"[٣]، وقـال ابـن منـده :" ذِكْـرُ اسْـتِدْلَالِ مَـنْ لَـمْ تَبْلُغْـهُ الـدَّعْوَةُ وَلَـمْ يَأْتِـهِ رَسُـولٌ **قَـالَ اللَّـهُ تَعَـالَى مُخْبِرًا عَـنْ إِيمَـانِ إِبْـرَاهِيمَ عَلَيْـهِ السَّـلَامُ بِاللَّـهِ عَـزَّوَجَـلَّ قَبْـلَ الرِّسَـالَةِ:** ﴿ قَالَ يَـٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[٤].

وعليـه فـالبراءة مـن الشـرك تقتضـي حتمـاً البـراءة مـن المشـركين حيـث لا يُتصـوَّر شـرعا وجـود شـرك دون مشـرك، والأدلـة الـواردة في الأولى دالـة على

[١] أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ١٣٩١٦

[٢] تفسير الطبري ٢٤/٤٥٤

[٣] نفس المصدر

[٤] كتاب التوحيد ١/٣٠٦

الثانيــــة كقولـــــه تعـــــالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف ٢٨]، فهي في البراءة من العابدين ومما يعبدون وجاء تفصيلها في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة ٤]، فقدَّم البراءة من العابدين لأنها تتضمن البراءة مما يعبدون، فهي براءة من العامل وعمله ومن العابد وعبادته... إذاً فمفاصلةُ الشرك كله لا تتم إلا بالبراءة من أهله واعتقاد أنهم على دين باطل، فمن حقَّق هذه المفاصلة تحقق بقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وصاحبُ الفطرة السليمة لا يستطيع أن يَتصوّر أن يكون المرءُ على الحق وهو يرى الباطل حقاً، قال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[يونس ٣٢]، وكيف يكون المرء مُسلما وهو يرى المشركين على دينه؟ فهذا قطعاً لا يعرف الإسلام من الشرك ... وكيف لرجلٍ يجهلُ ابتداءً حقيقة الإسلام يكون معتنقاً له، وكيف يُعَدُّ من أهله وهو لا يعرف مدلوله ابتداءً، فالاعتقاد فرع عن المعرفة فإذا جهل حقيقة عقيدةٍ ما كيف يكون من المعتنقين لها ويُعَدُّ من أهلها؟ ... إنها واضحة عند أصحاب الفطر السليمة، وبهذا الوضوح كذلك تقررت في كتاب الله: إن الإسلام لا ينعقد إلا بالبراءة من المشركين كما سيأتي بيانه ـ بحول الله وقوته ـ.

وفي تقرير ذلك نقول أن النَّبي ﷺ بُعِثَ في قوم مشركين جاهليين أهلُ فترة وغفلة، فلما دعاهم إلى التوحيد قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص٥]، وقال فيهم تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾[الصافات٣٦] ، فالدعوة إلى التوحيد التي سبق تفصيلها في فصل ـ الاستسلام لله بالتوحيد ـ قُوبِلَت بالكفر والصَّدِ والعِناد، قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾[الأنعام٦٦]، وفي المقابل اصطفى الله أهل الهداية من السابقين الأولين فأجابوا داعيَّ الإسلام ... ولا شك أن الخارج من الجاهلية إلى الإسلام يرى قومه على ضلالة وأنهم على دين باطل وليسوا على شيء من الحق، وهذا المعنى أدركه عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفطرته حيث قَالَ: «كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ **النَّاسَ** عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ»[١]، وأدركه زيد بن عمر بن نفيل كذلك، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: «رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الكَعْبَةِ يَقُولُ: يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ، **وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ** عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي»[٢]، وأدركها غيرهم كما روى عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾ [الزمر ١٧]، قَالَ:« نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي ثَلاثَةِ نَفَرٍ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ. فِي زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، وَأَبِي ذَرٍّ الغفاري، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ.[٣]، وعن أَبِي الطُّفَيْلِ، حَدَّثَنِي سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ قَالَ: «كُنْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ جَيٍّ، وَكَانَ أَهْلُ قَرْيَتِي يَعْبُدُونَ الْخَيْلَ الْبُلْقَ، **وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ**» الحديث[٤].

---

[١] رواه مسلم برقم ٢٩٤

[٢] رواه البخاري برقم ٣٨٢٨، قال محمد بن إسحاق:" قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَمَّا زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ فَوَقَفَ فَلَمْ يَدْخُلْ فِي يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ، **وَفَارَقَ دِينَ قَوْمِهِ، فَاعْتَزَلَ الْأَوْثَانَ** وَالْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَالذَّبَائِحَ الَّتِي تُذْبَحُ عَلَى الْأَوْثَانِ وَنَهَى عَنْ قَتْلِ الْمَوْءُودَةِ ، وَقَالَ: أَعْبُدُ رَبَّ إبْرَاهِيمَ، وَبَادَى قَوْمَهُ بِعَيْبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ. سيرة ابن هشام ٢٢٥

[٣] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٨٣٨٠

[٤] رواه الطبري في المعجم الكبير برقم ٦٠٧٣

لـذلك قررنـا أن البراءة مـن المشـركين تُـدرَك بـالفطرة ومـن لـم يحقـق البراءة مـن المشـركين فهـو في مرتبـة المشـرك الـذي لـم يحقـق البراءة مـن الشـرك لـلتلازم بـين البـراءتين، فالمُوحـد ابتـداءً مُفَـارِقٌ لملـة الشـرك إلى ديـن الإسـلام، وهـذا يقتضـي منـه اعتقـاد بُطـلان مـا كـان عليـه والبراءة مـن قومـه واعتقـاد أنهـم على ديـن باطـل، وأنـه قـد فـارق دينهم إلى الـدين الحـق وهـذا القـدر يدركـه الموحـد بفطرته.

ولقـد كـان مشـركي قـريش يعلمـون أن هـذه الـدعوة المحمَّديـة تقتضـي تـرك عبـادة الآلهـة وتكفير الآبـاء وتسـفيه عقـول العابـدين كمـا روى ابـن إسـحاق في السـيرة قـال:" ثـم إن أبـا بكـر لقي رسـول اللـه ﷺ فقـال: **أحـق مـا تقـول قـريش يـا محمـد مـن تركـك آلهتنـا، وتسـفيهك عقولنـا وتكفيرك آباءنـا؟** فقـال رسـول اللـه ﷺ:﴿ يـا أبـا بكـر إنِّـي رسـول اللـه ونبيـه، بعثني لأبلـغ رسـالته وأدعـوك إلى اللـه بـالحق، فـو اللـه إنـه للحـق أدعـوك، إلى اللـه يـا أبـا بكـر، وحـده لا شـريك لـه، ولا يعبـد غيره، والمـوالاة على طاعتـه وأهـل طاعتـه، وقـرأ عليـه القـرآن، فلـم يفـر، ولـم ينكـر، فأسـلم وكفـر بالأصـنام، وخلـع الأنـداد، وأقـرَّ بحـق الإسـلام، ورجـع أبـو بكر وهو مؤمن مصدِّق﴾[1]

وهـذا المعنى جـاء واضحاً في كتـاب اللـه في غير مـا موضـع ومنـه سـورة الكـافرون الـتي سـماها النَّبي ﷺ: البراءة مـن الشـرك، فعَـنْ فَـرْوَةَ بْـنِ نَوْفَـلٍ، عَـنْ أَبِيـهِ: أَنَّ رَسُـولَ اللـهِ ﷺ قَـالَ: ﴿فَمَجِـيءُ مَـا جَـاءَ بِـكَ؟» قَـالَ: قُلْـتُ: جِئْـتُ يَـا رَسُـولَ اللـهِ لِتُعَلِّمَنِي شَـيْئًا أَقُولُـهُ عِنْـدَ مَنَـامِي، قَـالَ: " إِذَا أَخَـذْتَ مَضْـجَعَكَ فَـاقْرَأْ ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾[الكافرون: ١] ثُـمَّ نَـمْ عَلَـى خَاتِمَتِهَـا، **فَإِنَّهَـا بَـرَاءَةٌ مِـنَ الشِّـرْكِ** ﴾[2].

ووجـه الدلالـة أن سـورة الكـافرون مُفتَتَحَـةٌ ومُختَتَمَـةٌ بـالبراءة مـن الكـافرين ومـن دينهم فسـمَّاها النَّبي ﷺ بـراءة مـن الشـرك، قَـالَ الْقُتَيْبِيُّ:" وَذَلِـكَ أَنَّهُـمْ قَـالُوا: إِنْ سَـرَّكَ أَنْ نَـدْخُلَ فِي دِينِـكَ عَامًـا فَادْخُـلْ فِي دِينِنَـا عَامًـا، فَنَزَلَـتْ هَـذِهِ السُّـورَةُ: لَكُـمْ

[1] سيرة بن اسحاق ١/١٣٩

[2] رواه النسائي برقم ١٠٥٦٩

دِيــنُكُمْ الشَّــرَكُ، وَلِيَ دِيــنِ الْإِسْــلَامُ"[١]، وعَــنْ عَمْــرِو بْــنِ مَالِــكٍ، قَــالَ: كَــانَ أَبُــو الْجَوْزَاءِ يَقُولُ: «**أَكْثِرُوا قِرَاءَةَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَ ابْرَؤُوا مِنْهُمْ**»[٢].

والبراءة مــن الشــرك هي: تــرك الشــرك واعتقــاد عــدم أحقيــة الآلهــة الباطلــة للعبادة، وينقضها التلبُس بالشرك.

وأمــا البراءة مــن المشــركين فهي: مُفارقــة المشــركين في الــدين واعتقــاد أنهــم على ديــن باطــل، وينقضُــها أســلمة المشــركين واعتقــاد أنهــم معــذورون بالجهــل أو التأويل.

والــتلازم بينهمــا: يقتضــي أنــه لا يصــح تــرك الشــرك إلا باعتقــاد أن أهلــه على ديــن باطــل وعلــى غيــر ملَّــة إبــراهيم، ومــن ســمَّى المشــرك مســلماً فقــد ســمَّى الشــرك إســلاماً وهــو لا يعــرف الكفــر مــن الإســلام، وحكــى أبــو الحســين الملطي الإجمــاع علــى أن الجهــل منــاط مكفــر فقــال: "وَمعنى ذَلِــك أَن معتزلــة بَغْــدَاد وَالْبَصْـرَة وَجَمِيـع أهـل الْقبْلَـة لَا اخْـتِلَاف بَينهم أَن مـن شـكّ فِي كَافِر فَهُـوَ كَافِر لِأَن الشَّـاك فِي الْكفْـر لَا إِيمَـان لَـهُ **لِأَنَّهُ لَا يعـرف كفـرا مـن إِيمَـان** فَلَـيْسَ بَـين الْأمـة كلهَـا الْمُعْتَزلَــة وَمــن دونهــم خــلاف أَن الشَّــاك فِــي الْكَــافِر كَــافِر"[٣]، لا كمــا يدعيــه الجهميــة أن الجهــل عــذر مُبرّر بــل هــو منــاطٌ مُكفِّــر، قَــالَ أَبُــو سُــلَيْمَان: ســألت أبــا سَــلَمَة بــن شــبيب عَــنْ علــم الحلــواني، قَــالَ: يرمى في الحــش. ثــم قَــالَ أَبُــو سَــلَمَة: من لم يشهد بكفر الكافر فهو كافر"[٤].

[١] تفسير البغوي ٣١٨/٥

[٢] فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة ١٠٨/١

[٣] التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ٤٠/١

[٤] تاريخ بغداد ٣٧٧/٧

المطلب الأول: الأدلة الواردة في البراءة من الشرك

والآيات الواردة في البراءة من الشرك جاء في سياق تفسير كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وبيان حقيقة ملّة إبراهيم ودعوة الرُّسل أقوامهم إلى الإسلام، وهي كثيرة منها:

❁ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الزخرف ٢٨]، عن السديّ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ قال:« خلقني. وقوله: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾يقول تعالى ذكره: وجعل قوله: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ وهو قول: لا إله إلا الله، كلمة باقية في عقبه، وهم ذريّته، فلم يزل في ذريّته من يقول ذلك من بعده»[١].

فالكلمة الباقية هي لا إله إلا الله كما قال مجاهد وقتادة وغيرهم[٢]وفُسرت بالبراءة من الشرك وإفراد الله بالعبودية، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[النساء ٣٦]، وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[الأنعام ١٥١].

❁ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام ١٩]، وقال تعالى: في سياق قصة عاد من قول هود: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[هود٥٥]، قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره، عن قول قوم هود: أنَّهم قالوا له إذ

---

[١] تفسير الطبري ٢١/ ٥٨٩

[٢] نفس المصدر

نصح لهم ودعاهم إلى توحيد الله وتصديقه وخلع الأوثان والبراءة منها: لا نترك عبادة آلهتنا، وما نقول إلا أن الذي حملك على ذمّها والنّهي عن عبادتها، أنه أصابك منها خبَلٌ من جنونٌ"[1].

❁ **وقال تعالى**: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنبياء٥٣]، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ قَالَ: «عابدون. وفي قوله: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ أي عَلَى دين، وإنَّا متَّبِعوهم عَلَى ذَلِكَ»[2]، وفيه دلالة على أن الشرك ملَّة ودين ولا يصحُّ الإسلام إلا بالبراءة منه ومن أهله المعتنقين له، إذْ البراءة من الدين تقتضي البراءة من أهله وإلا لكانت لغواً.

❁ **وآية الممتحنة**: جمعت ما افترق في غيرها وبيَّنت صريح الملة الحنيفية وفسرت الكلمة الباقية ونصت على الأسوة الحسنة التي أُمرت هذه الأمة باتّباعها، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة ٤] ،قال أبو جعفر وقوله: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يقول: حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطّاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد، وقوله: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ يقول جلّ ثناؤه مخبرا عن قيل أنبيائه لقومهم الكفرة: كفرنا بكم، أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم ما تعبدون

[1] تفسير الطبري ١٥/٣٦١

[2] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٣٦٦٩

مـن دون اللـه أن تكـون حقًّـا، وظهـر بيننـا وبيـنكم العـداوة والبغضـاء أبـدًا **على كفـركم باللـه**، وعبـادتكم مـا سـواه، ولا صـلح بيننـا ولا هـوادة، ﴿ حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾، يقـول: حتى تُصـدّقوا باللـه وحـده، فتوحِّـدوه، وتفـرِّدوه بالعبـادة"[١]، وقـال البغـوي: "يَـأْمُرُ حَاطِبًـا وَالْمُـؤْمِنِينَ بِالِاقْتِـدَاءِ بِـإِبْرَاهِيمَ عَلَيْـهِ الصَّـلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّؤِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[٢].

وجاء في السنة

❁ عَـنْ أَبِي مَالِـكٍ، عَـنْ أَبِيـهِ، قَـالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللـهِ ﷺ، يَقُـولُ «مَـنْ قَـالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللـهُ، وَكَفَـرَ بِمَـا يُعْبَـدُ مَـنْ دُونِ اللـهِ، حَـرُمَ مَالُـهُ، وَدَمُـهُ، وَحِسَـابُهُ عَلَـى اللـهِ»[٣]، قـال عبـد الـرحمن بـن حسـن: "وأمـا قولـه ﷺ في الحـديث الصـحيح: «وكفـر بمـا يعبـد مـن دون اللـه»، فهـذا شـرط عظـيم لا يصـح قـول: لا إلـه إلاَّ اللـه إلاَّ بوجـوده، وإن لـم يوجـد لـم يكـن مـن قـال: لا إلـه إلاَّ اللـه معصـوم الـدم والمـال، ولأن هـذا هـو معنى: لا إلـه إلاَّ اللـه، فلـم ينفعـه القـول بـدون الإتيـان بـالمعنى الـذي دلَّ عليـه، مـن: **تـرك الشـرك والبراءة منه وممـن فعلـه**، فـإذا أنكـر عبـادة كل مـا يعبـد مـن دون اللـه وتبرأ منـه وعـادى مـن فعـل ذلـك، صـار مسـلمًا معصـوم الـدم والمـال، وهـذا معنى قـول اللـه تعـالى: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٥٦]"[٤].

❁ عَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ، قَـالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَـارِزًا يَوْمًـا لِلنَّـاسِ، فَأَتَـاهُ جِبْرِيلُ فَقَـالَ: مَـا الإِيمَـانُ؟ قَـالَ: «الإِيمَـانُ أَنْ تُـؤْمِنَ بِاللَّـهِ وَمَلاَئِكَتِـهِ، وَكُتُبِـهِ، وَبِلِقَائِـهِ، وَرُسُـلِهِ

[١] تفسير الطبري ٣١٧/٢٣

[٢] تفسير البغوي ٧١/٥

[٣] رواه مسلم برقم ٣٧

[٤] «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٢/ ٢٧، ٢٨).

وَتُـؤْمِنَ بِالْبَعْـثِ». قَـالَ: مَـا الإِسْـلاَمُ؟ قَـالَ: " **الإِسْـلاَمُ: أَنْ تَعْبُـدَ اللَّـهَ، وَلاَ تُشْـرِكَ بِـهِ شَيْئًا**، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ﴾[١].

❁ وعَـنْ إِسْـمَاعِيلَ بْـنِ سَـعِيدٍ، قَـالَ: سَـأَلْتُ أَحْمَـدَ عَـنِ الْإِسْـلَامِ، وَالْإِيمَـانِ؟ فَقَـالَ: «الْإِيمَـانُ قَـوْلٌ وَعَمَـلٌ، وَالْإِسْـلَامُ الْإِقْـرَارُ» قَـالَ: وَسَـأَلْتُ أَحْمَـدَ عَـنْ مَـنْ قَـالَ فِي الَّـذِي قَـالَ جِبْرِيـلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، إِذْ سَـأَلَهُ عَـنِ الْإِسْـلَامِ، فَقَـالَ لَـهُ: فَـإِذَا فَعَلْـتُ ذَلِـكَ فَأَنَـا مُسْـلِمٌ؟ فَقَـالَ نَعَـمْ، فَقَـالَ قَائِـلٌ: فَـإِنْ لَـمْ يَفْعَلُـوا الَّـذِي قَـالَ جِبْرِيـلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَـإِنَّهُمْ مُسْـلِمُونَ أَيْضًـا فَقَـالَ: «**هَـذَا مُعَانِـدٌ لِلْحَـدِيثِ**»[٢] وممـا جـاء في حـديث جبريل " **الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**".

❁ وعَـنْ جَرِيـرٍ قَـالَ: قُلْـتُ: يَـا رَسُـولَ اللـهِ، اشْـتَرِطْ عَلَـيَّ فَأَنْـتَ أَعْلَـمُ بِالشَّـرْطِ، قَـالَ: ﴿ أُبَايِعُـكَ عَلَـى أَنْ تَعْبُـدَ اللـهَ لَا تُشْـرِكُ بِـهِ شَـيْئًا، وَتُقِـيمَ الصَّـلَاةَ، وَتُـؤْتِيَ الزَّكَـاةَ، وَتَنْصَحَ الْمُسْلِمَ، **وَتَبْرَأَ مِنَ الْمُشْرِكِ**﴾[٣].

وقـال البربهـاري:" ولا نخـرج أحـدا مـن أهـل القبلـة مـن الإسـلام حتى يـرد آيـة مـن كتـاب اللـه، أو يـرد شـيئا مـن آثـار رسـول اللـه ﷺ، أو يـذبح لغيـر اللـه، أو يصـلي لغيـر اللـه، **فـإذا فعـل شـيئا مـن ذلـك فقـد وجـب عليـك أن تخرجـه مـن الإسلام**"[٤].

المطلب الثاني: الأدلة الواردة في البراءة من المشركين

وبمثـل هـذا الوضـوح والتنصـيص في الدلالـة كـذلك جـاءت الأدلـة الـواردة في البراءة من المشركين ومنها:

❁ **قال تعالى**: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام١٤] وقـال تعـالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام:٧٩]، وقولـه

---

[١] رواه البخاري برقم ٥٠

[٢] رواه الخلال في السنة برقم ١٠٩٦

[٣] رواه أحمد برقم ١٩٢٣٣

[٤] شرح السنة للبربهاري ٦٤

تعالى: ﴿ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[الممتحنة ٤] الآية، فهذه براءة الأنبياء من المشركين، ، فالبراءة من الشرك تقتضي البراءة من المشركين والبراءة من الأوثان تقتضي البراءة من عابديها كما سبق بيانه في آية الممتحنة، ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾[مريم ٤٨]،فقدَّم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم وكقوله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾[الكهف ١٦]. فأشار إلى اعتزالهم واعتزال ما يعبدون من دون الله، وقال تعالى: ﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[يونس١٠٥]، قال أبو جعفر: ويعني بقوله: ﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ﴾، أقم نفسك على دين الإسلام،﴿ حَنِيفٗا ﴾ مستقيمًا عليه، غير معوَجّ عنه إلى يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ، ولا عبادة وثن ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ يقول: ولا تكوننَّ ممن يشرك في عبادة ربِّه الآلهة والأندادَ، فتكون من الهالكين"[١].

وقال تعالى: ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾[الشورى١٥]، قال البغوي:" أَيْ: نَحْنُ بُرَآءُ مِنْكُمْ"[٢]، وقال تعالى:﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[يونس٤١]، قال السمعاني :" قَوْله: ﴿أَنتُم

[١] تفسير الطبري ٢١٢/١٥

[٢] تفسير الطبري١٩٦/٧

بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾هـذا مثـل قَوْلـه: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ومثل قَوْله تَعَالَى: ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾"[1].

فتقـرَّر بـذلك أنَّـه لا يصحُّ إسـلام المـرء حتى يحقِّـق البراءة مـن الشـرك والمشـركين بدلالـة النُّصـوص المفسـرة لكلمـة التوحيـد، وبإجمـاع جميـع أهـل السـنة والجماعـة مـن الصحابة والتـابعين ومـن بعـدهم، كمـا حكى الإجمـاع عبـد الـرحمن بـن حسـن حيـث قـال: "أجمـع العلمـاء سـلفًا وخلفًـا مـن الصحابة والتـابعين والأئمـة، وجميـع أهـل السـنة: أن المـرء لا يكـون مسـلمًا إلاَّ بـالتجرد مـن الشـرك الأكبر، **والبراءة منـه وممـن فعلـه**، وبغضـهم ومعـاداتهم بحسـب الطاقـة والقدرة، وإخلاص الأعمال كلها لله"[2].

وإذا تحقَّـق الـتلازم بـين الشـرك والمشـرك تحقَّـق الـتلازم بـين البـراءة مـن الشـرك والبـراءة مـن المشـرك، فـلا إلـه إلا اللـه ركنهـا البـراءة مـن الشـرك والمشـركين ومـن لـم يـأت بهـا لا يصـح إسـلامه ولـيس مـن أهـل لا إلـه إلا اللـه، وهي نفسـها البـراءة مـن الأديـان المتضـمنة البـراءة مـن الـدين الباطـل وعُبَّـادِه المشـركين كمـا قـال إسـحاق بـن منصـور الكوسـج: قُلْـتُ لإسـحاقَ: إذا جَـاء رجـلٌ مـن أهـلِ الذِّمَّـةِ فَقـال: اعـرضْ عليَّ الإسـلامَ؟ قَـالَ: فـإِنَّ السـنةَ في ذَلِـكَ أَنْ يعـرض عليـه أن يقـولَ: أشـهد أن لا إلـه إلا اللَّـه، وأشـهد أنَّ محمَّـدًا رسـولُ اللَّـهِ، وأقـرَّرتُ بكلِّ مـا جـاء مِن عنـدِ اللَّـهِ **وبرئـتُ مـن كلِّ ديـنٍ سـوى ديـنِ الإسـلامِ**، فهـذا العـرض التـام الـذي اجتمـع العلمـاءُ على قبـول ذَلِـكَ، وصـيروه دخـولًا في الإسـلام **وبـراءة مـن الشـركِ**، فـإنِ اقتصـرَ العـارضُ على المشـركِ الإسـلام على شـهادةِ أن لا إلـه إلا اللَّـه، وأنَّ محمـدًا رسـولُ اللَّـهِ [فهـذا] دخـول في الإسـلام، **إذا كـان ذَلِـكَ على معنى الـدخول في الإسـلام** كمـا قَـالَ النبيُّ ﷺ حيـث دخـل مـدراس اليهـود فعـرض

[1] تفسير السمعاني ٣٨٥/٢

[2] الدرر السنية: (١١/ ٥٤٥).

على اليهوديّ الإسلام قدر هذا، فلما قَالَ ومات اليهودي، قَالَ النبيُّ ﷺ: "صَلُّوا على أخيكم". فإنَّما احتطنا أَنْ يكونَ الذي يعرض على الذميّ الإسلامَ، يعرضُ عليه الخصال الأربع، كي لا يكون اختلافًا من العلماءِ"[1].

وعَنْ سُلَيْمِ أَبِي عَامِرٍ: «أَنَّ وَفْدَ الْحَمْرَاءِ أَتَوْا عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يُبَايِعُونَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَعَلَى مَنْ وَرَاءَهُمْ، فَبَايَعَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَيَصُومُوا، **وَيَدَعُوا عِيدَ الْمَجُوسِ**، فَلَمَّا قَالُوا: نَعَمْ، بَايَعَهُمْ »[2].



[1] مسائل الكوسج" ٣٣٧٠

[2] السنة للخلال برقم ١١٠٢

الفَصْلُ الثَّانِي

أنواع الأدلة الواردة في تكفير المشركين

قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام ١٢٢] قال ابن عباس: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾، يعني:« من كان كافرًا فهديناه ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾، يعني بالنور: القرآنَ، من صدَّق به وعمل به﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾، يعني: بالظلمات، الكفرَ والضلالة»[1].

إنَّ التوحيد يُنشئُ في القلبِ حياةً بعد موت، وفي البصيرةِ نوراً بعد ظُلمة، نورٌ يبدو تحت أشعته كلُ شيء على حقيقتهِ في ميزان العقيدة الصحيحة، التي تُصنِّفُ الناس بين مؤمن وكافر... إنها رؤية جديدة لم تكن قَبْلَ هذِه الحياة لذلك القلب الذي نوَّرَهُ اللهُ بِنُور الإيمان، فَيكْشِفُ له ظاهرَ الناس ومَعالمَ الطريق وسواءَ السبيل ... إن هذا القلب الذي نوَّرَهُ اللهُ بِنورِ التوحيد لا يجد حرجاً في تكفير من كفرهم الله عزَّ وجل ولو كانت الأرض كلها، إذا كان يسير بهذا النور وقلبه ينبض بهذه الحياة، فهو متبعٌ لكتاب ربه على بينةٍ من أمره فلا يترك اليقين إلى وساوس الشياطين، ولا يميل عن ملة إبراهيم إلى أهواء المخلوقين، وله في أبيه إبراهيم الأُسوة الحسنة لما قال: «يَا سَارَةُ: لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ»"[2] وعن ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل ١٢٠] قَالَ:« كَانَ عَلَى الإِسلام

[1] تفسير الطبري برقم ١٣٨٤٢

[2] رواه البخاري برقم ٣٣٥٨

ولم يكن في زمانه مِنْ قَوْمِهِ أحد عَلَى الإسلام غيره، فلذلك قَالَ الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾»[١]، وعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: «كَانَ مؤمنًا وحده والناس كفار كلهم»[٢].

وفي هذا الفصل سوف نُقيم أنواع الأدلة على كفر المشركين بين العين والجنس والقرى والأقوام فنقول:

المطلب الأول: تكفير المعين

وهو تكفير المشركين بأعيانهم، والله عز وجل في كتابه الكريم كفَّر أعياناً بأسمائهم كأبي لهب وامرأته كما في قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾، وكفَّر فرعون وهامان وجنودهما كما في قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَاطِـِٔينَ ﴾[القصص٨]، وكفَّر أعيانا بأوصافهم كالوليد بن المغيرة، كما روي عَنْ مُجَاهِدٍ في قوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾[القلم١٠]، قَالَ:« نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ..»[٣]، والأخنس بن شريق كما قال السُّدِّيِّ في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾[البقرة٢٠٤]: «نَزَلَتْ فِي الأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ الثَّقَفِيِّ، وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي زُهْرَةَ»[٤].

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٢٦٨١

[٢] رواه ابن أبي حاتم في تفيره برقم ١٢٦٨٢

[٣] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٩٠٣١

[٤] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٩٠٣١

وكفَّر اللهُ عيناً مشاعةً تلبَّست بوصف الشرك كقوله: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاًۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[الزمر٨]، قال السمعاني: "قَالَ أهل التَّفْسِير: نزلت هَذِه الْآيَة فِي أبي حُذَيْفَة بن الْمُغيرَة بن عبد الله المَخْزُومِي، وَقيل: فِي كل كَافِر"[١] ، وقوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[المؤمنون١١٧]، قال البغوي:" ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾، أَيْ: لَا حُجَّةَ ولا بيّنة له به لِأَنَّهُ لَا حُجَّةَ فِي دَعْوَى الشِّرْكِ"[٢].

والله عز وجل أطلق تكفير المعين ممن أشرك بالله تعالى، ولم يقيده بالتعريف والبيان فضلاً عن إقامة الحجة وفهمها وإزالة الشبهة وكشفها، ومن قيده ـ كالجراجسة والمداخلة ـ بذلك يحتاج إلى دليل ولا دليل إلا التحكُّم والتجهُّم، بل منهج القرآن: تكفير من أشرك بالله مطلقا سواءً أكانت عيناً أو جنساً أو قوماً وليس في النصوص شروط وموانع في هذا الباب ـ الشرك بالله ـ، بل من وقع في الشرك وقع الشرك عليه وكان مشركاً بالله تعالى، ويلزم من قال بالتعريف للمشركين أن يقول بالتعريف لليهود والنصارى والمجوس ولا يكفرهم إلا بعد التعريف لأنَّ الكل فاقدٌ للإسلام وهذا ظاهر جداً بالاعتبار إذ كلها ملل غير الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[الحج١٧]، قال قَتَادَة: «الصابئون قوم يعبدون الملائكة ويصلون القبلة ويقرؤون الزبور وَالْمَجُوسَ عبدة الشمس والقمر والنيران، وأما الَّذِينَ أَشْرَكُوا فهم عبدة الأوثان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾قَالَ: الأديان ستة:

[١] تفسير القرآن للسمعاني ٤/٤٦٠

[٢] تفسير البغوي ٣/٣٧٨

فخمسة للشيطان، ودين لله عز وجل»[1]، فما الفرق بين ملة وملة إلا التحكُّم والهوى، قال تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾[القمر ٤٣]، قال الربيع بن أنس في قوله: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾: «كفار هذه الأمة»[2].

أما الانتساب إلى الإسلام مع البقاء على ملَّة الشرك واستدامته وعدم اجتناب الطَّاغوت وطاعته ولا البراءة من المشركين وتكفيرهم، لا يصير به المرء مسلماً فتكون بذلك دعوى لا تُصحح إسلامهم ولا يترتب عليها أحكامٌ في دين الله عزو جل، وهو انتسابٌ لا اعتبار له في الشرع، وأهله هم من أهل الشرك وملَّة الكفر سواءً بسواء، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[التوبة ١١] عَنِ الرَّبِيعِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يَقُولُ: «تَوْبَتُهُمْ خَلْعُ الأَوْثَانِ وَعِبَادَتِهَا »، وعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَوْلُهُ: «فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَمْ تَقْتُلْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ»، وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ: «فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ»[3].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[طه: ٨٢] ، قال شَمِرِ بْنِ عَطِيَّةَ: «لِمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ، وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَدَّى الْفَرَائِضَ ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾قَالَ: «لِلسُّنَّةِ»[4].

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[آل عمران٦٧] عن عامر، قال: «قالت اليهود: إبراهيم على ديننا

[1] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٣٨٠٧

[2] تفسير الطبري ٦٠١/٢٢

[3] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٩٢٧٢ و٩٢٧٣

[4] رواه الالكائي في شرح أصول الاعتقاد برقم ٧٣

وقالت النصارى: هو على ديننا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾الآية، فأكذبهم الله، وأدحض حجتهم يعني: اليهودَ الذين ادّعوا أن إبراهيم ماتَ يهوديًّا». وعن الربيع مثله"[1].

فنسبة اليهود والنصارى وعُبَّاد الأوثان أنفسهم إلى ملَّة إبراهيم لم يصحّح دينهم، ولا اعتبار له في الأسماء ولا في الأحكام، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[آل عمران٨٣]، قال البغوي:" قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ اخْتَلَفُوا **فَادَّعَى كُلُّ وَاحِدٍ أَنَّهُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ** وَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَضَى النَّبِيُّ ﷺ بينهم أن: «كِلَا الْفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ دِينِ إبراهيم عليه السلام، وأن دينه الإسلام» ، فَغَضِبُوا وَقَالُوا: لَا نَرْضَى بِقَضَائِكَ وَلَا نَأْخُذُ بِدِينِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾، قرأ أهل الْبَصْرَةِ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ يَبْغُونَ بِالْيَاءِ لِقَوْلِهِ **تَعَالَى**: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالتَّاءِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم ﴾،﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ ﴾: **خَضَعَ وَ انْقَادَ**"[2].

وقوله تعالى:{ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران ٢٠] ، قال **البغوي قَوْلُهُ تَعَالَى**:﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾، أَيْ: خَاصَمُوكَ يَا مُحَمَّدُ فِي الدِّينِ، **وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قالوا: ألسنا عَلَى مَا سَمَّيْتَنَا بِهِ يَا محمد و إنما الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ نَسَبٌ، وَالدِّينُ هُوَ الْإِسْلَامُ وَنَحْنُ عَلَيْهِ**؟. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾، أَيِ: انْقَدْتُ لِلَّهِ وَحْدَهُ

[1] رواه الطبري برقم ٧٢١١

[2] تفسير البغوي ٤٦٥/١

بِقَلْبِي وَلِسَانِي وَجَمِيعِ جَوَارِحِي، وَإِنَّمَا خُصَّ الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان، وَفِيهِ بَهَاؤُهُ فَإِذَا خَضَعَ وَجْهُهُ للشيء فقد خَضَعَ لَهُ جَمِيعُ جَوَارِحِهِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ أَخْلَصْتُ عَمَلِي لِلَّهِ، ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أَيْ: وَمَنِ اتَّبَعَنِي فأسلم كَمَا أَسْلَمْتُ ... وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ﴾، يَعْنِي: الْعَرَبَ أَأَسْلَمْتُمْ، لَفْظُهُ اسْتِفْهَامٌ وَمَعْنَاهُ أَمْرٌ، أي: وأسلموا، كَمَا قَالَ: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [الْمَائِدَةِ: ٩١]، أَيِ: انْتَهُوا، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ **فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: أَسْلَمْنَا**، فقال لليهود: أتشهدون أن عزيزا عبده ورسوله؟ فَقَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ [أَنْ يَكُونَ عزيز عليه السلام عبدا]، وَقَالَ لِلنَّصَارَى: أَتَشْهَدُونَ أَنَّ عِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ وَعَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؟ قَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ عِيسَى عَبْدًا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾، أَيْ: تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ الْهِدَايَةُ، ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، عَالِمٌ بِمَنْ يُؤْمِنُ وَبِمَنْ لَا يُؤْمِنُ"[١].

ومن السنة عَنْ بَهْزٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أُولَاءِ، وَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى أَنْ لَا آتِيَكَ، وَلَا آتِيَ دِينَكَ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ بِمَ بَعَثَكَ رَبُّنَا إِلَيْنَا؟ قَالَ: «بِالْإِسْلَامِ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا آيَةُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ **أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَتَخَلَّيْتُ**، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَكُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُشْرِكٍ يُشْرِكُ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا، أَوْ يُفَارِقُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ» الحديث[٢]، قال الطحاوي تعليقا على هذا الحديث :" **وَكَانَ التَّخَلِّي هُوَ تَرْكُ كُلِّ الْأَدْيَانِ إِلَى اللهِ ثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَتَخَلَّ مِمَّا سِوَى الْإِسْلَامِ ، لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ دُخُولَهُ فِي الْإِسْلَامِ**"[٣].

---

[١] تفسير البغوي ٤٢٢/١)

[٢] رواه أحمد برقم ٢٠٠٣٧

[٣] شرح معاني الآثار ٣١٦/٣

المطلب الثاني: تكفير الجنس والنوع

وهم أفراد كثيرون متفقون في الحقيقة غير محصورين بعدد محدود يجمعهم وصف معين تحت حكم واحد، وهو من التكفير بالعموم كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[إبراهيم ٣٠] وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾[البينة ١]، وقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾[الكهف ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[غافر ١٤] ، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[غافر ٨٥]. وغيرها من الآيات التي فيها تكفير المشركين بالعموم بقوله﴿ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وهو جمع محلى بأل، "والْجَمْعَ الْمُعَرَّفَ تَعْرِيفَ الْجِنْسِ يُفِيدُ الْعُمُومَ وحُكي اتفاقاً عند الأصوليين"[1].

وأكثر الأدلة الواردة في تكفير المشركين هي من هذا الصنف، أي تكفير لعموم من أشرك مطلقاً بلا حصر ولا قيد، وامتثال أمر الله في قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[الكافرون١]. يكون بتكفير من كفره الله من عموم المشركين وأعيانهم، فمن كفَّر وصفاً في الذهن وتوقف في تنزيل الكفر على المعين إلا بشروط ما أنزل الله بها من سلطان، أو كفَّر عينا أو وصفاً وتوقف في العموم، لم يحقّق تكفير المشركين الذي أمر الله به.

[1] انظر البحر المحيط في أصول الفقه ٤/١٢٣

المطلب الثالث: تكفير القرى والأقوام والديار

وهو تكفير قوم يسكنون في قريةٍ من القُرى أو دار من الدُور، وهو من التكفير بالعموم ولكنه محصور في أهل قرية بعينها، كعاد وثمود ومدين وغيرها، كما قال تعالى في ختام القصص في سورة الأعراف: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾[الأعراف١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[يونس٩٨]، وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[الكهف٥٩]، قال أبو جعفر:" يقول تعالى ذكره: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا، فكفروا بالله وآياته،﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ يعني ميقاتاً وأجلاً حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به"[١].

فالسياقات التي فيها إطلاق التكذيب والتكفير وردت بلفظ العموم لأهل القرى والمدن "والعرب تسمي كل مدينة قرية"[٢]، كقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء١٠٥] وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء١٢٣] وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء١٤١]، قال ابن عطية:" أسند كَذَّبَتْ إلى «القوم» وفيه علامة التأنيث من حيث القوم في **معنى الأمة والجماعة**"[٣]، وقال تعالى في قوم قريش ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ

[١] تفسير الطبري ٥٤/١٨

[٢] تفسير الطبري ٥٤٣/٨

[٣] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٣٧/٤

عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾[الأنعام٦٦]، وقصّ في الفتية قولهم ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾[الكهف١٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾[النمل٢٤]، فهذا الهدهد كفَّر الملكة وقومها لما رأى مشهداً من مشاهد عبادة غير الله، فكان الهدهد أفقه من حمير العلم في زماننا، قال عبد الرحمن بن حسن :" فحدَّث الهدهد سليمان ـ عليه السلام ـ بما رآهم يفعلونه من السجود لغير الله، والسجود نوع من أنواع العبادة، فليت أكثر الناس عرفوا من الشرك ما عرفه الهدهد فأنكروه وعرفوا الإخلاص فالتزموه، وبالله التوفيق، فسبحان من غرس التوحيد في قلب من شاء من خلقه، وأضلَّ من شاء عنه بعلمه وحكمته وعدله!!."[1].

وتكفير القرى هو تكفير لعموم أهل القرية، إذ المقصود بالقرى أهلها كما في قوله: ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[يوسف٨٢]، قال البغوي:" أَيْ: أَهْلَ الْقَرْيَةِ وَهِيَ مِصْرُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى مِصْرَ كَانُوا ارْتَحَلُوا مِنْهَا إِلَى مِصْرَ"[2] ، فالسؤال موجه لأهلها كما أن الهلاك يتوجه لأهلها كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[الأحقاف٢٧]، قال الطبري: :﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ﴾ أيها القوم من القُرَى ما حول قريتكم، كحجر ثمود وأرض سدوم ومأرب ونحوها، فأنذرنا أهلها بالمَثُلات، وخرّبنا ديارها، فجعلناها خاوية على عروشها"[3].

[1] رسائل وفتاوى عبد الرحمان بن حسن ٣١/١

[2] تفسير البغوي ٥٠٨/٢

[3] تفسير الطبري ١٣٢/٢٢

فالمقصود من الخطاب الشرعي هم أهل الدار وأصحاب القرى كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾[النساء٧٦] وقوله تعالى: ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الأعراف١٤٥] وقوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[ياسن١٤]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[النمل٤٣]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[النساء٧٥] قال الأزهري: " ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ أي: «الْمُشرك أَهلهَا»[١].

فالأسماء الشرعية كالفاسقين والظالمين والكافرين تتوجه لأهل القرى لا للشجر والحجر والبنيان، قال ابن رجب: " وَلَيْسَ الذَّمُّ رَاجِعًا إِلَى مَكَانِ الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ الْأَرْضُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ مِهَادًا وَسَكَنًا، وَلَا إِلَى مَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَعَادِنِ، وَلَا إِلَى مَا أَنْبَتَهُ فِيهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالزَّرْعِ، وَلَا إِلَى مَا بَثَّ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَلَهُمْ بِهِ مِنَ الِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ صَانِعِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَإِنَّمَا الذَّمُّ رَاجِعٌ إِلَى أَفْعَالِ بَنِي آدَمَ الْوَاقِعَةِ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ غَالِبَهَا وَاقِعٌ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ، بَلْ يَقَعُ عَلَى مَا تَضُرُّ عَاقِبَتُهُ، أَوْ لَا تَنْفَعُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]"[٢].

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على صحة إطلاق الكفر على عموم أهل قرى وديار الكفر، وهذا الإطلاق باعتبار الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا، وهذا الإطلاق هو منطوق القرآن كما في قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ

[١] تفسير السمعاني ٤٤٧/١

[٢] جامع العلوم والحكم ١٨٧/٢

إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[العنكبوت٣٢]، قال أبو جعفر:" يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم للرسل من الملائكة إذ قالوا له: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ **فلم يستثنوا منهم أحدا إذ وصفوهم بالظلم:** ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾، وليس من الظالمين، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له، فقالت الرسل له: ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ من الظالمين الكافرين بالله منك، وإن لوطا ليس منهم، بل هو كما قلت من أولياء الله"[١].

فإطلاق الكفر على عموم القرى الكافرة وإن كان فيها خصوص الموحدين هو إطلاق صحيح بنص القرآن كما في آية العنكبوت، وفي قولة تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾[الأعراف١٤٨]، وليس كلهم اتخذوا العجل فقد قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾[طه٩١] ، قال ابن عباس: لما قال القوم﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾أقام هارون فيمن تبعه من المسلمين ممن لم يُفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾[طه٩٤] وكان له هائبا مطيعا"[٢].

---

[١] تفسير الطبري ٣٢/٢٠

[٢] تفسير الطبري ٣٥٩/١٨

وإطلاق الكفر على عموم القرى والديار لا يتناول القلة المُستعلِنة بدينها[1] المخالفة لما عليه القوم من كفر وشرك، لظهور أمرها كالرُسل وأتباعهم الذين فاصلوا أقوامهم في الدين، فالقلة الظاهرة ناجية كما في قوله تعالى: ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾[العنكبوت٣٢]، وغيرها من الآيات، فهي ظاهرةٌ ناجيةٌ لا تجري عليها أحكام الكفار، **وإن كان إطلاق الكفر يشمل ظاهراً القلة المستخفية بدينها في دور الكفر**، فهذه يتناولها الأحكام في الدنيا، ومنها العذاب الدنيوي الذي قد يجري على الكثرة الكافرة، أي: تجري عليها أحكام الكثرة حُكماً ويحاسبون في الآخرة على نيَّاتهم، وقد بيَّنت السنة هذا غاية البيان ونصَّت على أن عموم العذاب لمن كفر وعصى ولمن سكت وأظهر الموافقة ولم يُظهر المخالفة، فهو شامل للبر والفاجر والكافر والمؤمن بلا استثناء، ومن ذلك حديث عائشةَ رضي الله عنها، قالت: قالَ رسول الله ﷺ: ﴿يغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ» قَالَتْ: قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟! قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيّاتِهِم﴾ [2]، وفي رواية مسلم «فقلنا: إن الطريق قد يجمع الناس، قال: نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل» وقوله: «ومن ليس منهم» أي في الكفر والقصد بتخريب الكعبة عطفٌ على أسواقهم، قال الطيبي: أي من لا

---

[1] الفرق بين القلة المستعلنة بدينها والقلة المستخفية بدينها

ونقول أنَّ بينهما فروق في الأسماء والأحكام باعتبار الظاهر:

۞ فالقلة الظاهرة بدينها في ديار الكفر: هي طائفة مسلمة ظاهراً لا تجري عليها أحكام الكفار في الدنيا للتمييز بينها وبين المشركين وهي في الآخرة ناجية من العذاب السرمدي.

۞ أما القلة المستخفية في ديار الكفر: هي طائفة تجري عليها أحكام الكفار وتلحق بالكثرة الكافرة في الأسماء والأحكام في الدنيا باعتبار الظاهر لعدم التمييز بينها وبين عموم المشركين وهي في الآخرة ناجية من العذاب السرمدي.

۞ ويجتمعان في النجاة في الآخرة باعتبار حقيقة الأمر، ويفترقان في الدنيا في الأسماء والأحكام باعتبار الظاهر.

[2]رواه الْبُخَارِيّ برقم ٢١١٨ ورواه مسلم برقم ٢٨٨٤

يقصد تخريب الكعبة بل هم الضعفاء والأسارى، وقَوْلُه: «يبعثون على نياتهم»، يَعْنِي: من كَانَ مِنْهُم مُخْتَارًا تقع الْمُؤَاخَذَة عَلَيْهِ، وَمن كَانَ مكْرها ينجو. وفي رواية مسلم «يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى»[١].

فيكون العذاب في الدنيا عاماً على ظاهرهم، ويكون الحساب في الآخرة على الباطن والنيات وحقيقة أمرهم.

وعن ابْنَ عُمَرَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :﴿ إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ﴾[٢]، "ومَن مِن صيغ العموم، فالمعنى أن العذاب يُصيب حتى الصالحين منهم، وعند الإسماعيلي من طريق أبي النعمان عن ابن المبارك: «أصاب به من بين أظهرهم» فلا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب أو العقاب بل يجازى كل أحد بعمله على حسب نيته وهذا من الحكم العدل لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة وأما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيرًا لما قدموه من عمل سيئ كترك الأمر بالمعروف ... وجنح بن أَبِي جَمْرَةَ إِلَى أَنَّ الَّذِينَ يَقَعُ لَهُمْ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِ سُكُوتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ **وَأَمَّا مَنْ أَمَرَوَنَهَى فَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَا يُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ بَلْ يَدْفَعُ بِهِمُ الْعَذَابَ وَيُؤَيِّدُهُ** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص٥٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الأنفال٣٣]،وَيَدُلُّ عَلَى تَعْمِيمِ الْعَذَابِ لِمَنْ لَمْ يَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَاطَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾[النساء١٤٠] "[٣]

قال ابن قتيبة: "فَأَمَّا عِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا هُوَ أَتَى، فَيَعُمُّ وَيَنَالُ الْمُسِيءَ وَالْمُحْسِنَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً

[١] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤٨٥/٩

[٢] رواه البخاري برقم ٧١٠٨ ومسلم برقم ٢٨٧٩

[٣] فتح الباري ٦٣/١٣

﴾[الأنفال٢٥] يُرِيدُ: أَنَّهَا تَعُمُّ، فَتُصِيبُ الظَّالِمَ وَغَيْرَهُ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم٤١]، وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلَكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ فَقَالَ: "نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ" وَقَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَرَّقَ أُمَّةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلَّهَا، وَفِيهِمُ الْأَطْفَالُ والبهائم، بذنوب الْبَالِغين ...... ثم قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وَقَدْ رَأَيْنَا بِعُيُونِنَا، مَا أَغْنَى عَنِ الْأَخْبَارِ، فَكَمْ مِنْ بَلَدٍ فِيهِ الصَّالِحُونَ وَالْأَبْرَارُ وَالْأَطْفَالُ وَالصِّغَارُ، أَصَابَتْهُ الرَّجْفَةُ، فَهَلَكَ بِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُسِيءُ وَالْمُحْسِنُ، وَالطِّفْلُ وَالْكَبِيرُ كَـ "قومس" و "مهرجان "و "قذق" و "الرّيّ"، وَمُدُنٍ كَثِيرَةٍ مِنْ مُدُنِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ؛ وَهَذَا شَيْءٌ يَعْرِفُهُ، كُلُّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ، وَإِنِ اخْتَلَفُوا"[١].

وقد رد في السنة كذلك إطلاق الكفر بالعموم على دور الكفر ومنها حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالأَبْوَاءِ، أَوْ بِوَدَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ: «هُمْ مِنْهُمْ»[٢]، وقال الأحنف بن قيس:« إنما كان السبي والغنيمة على الكفار الذين دارهم دار كفر **والكفر لهم جامع ولذراريهم**»[٣].

وقال إسحاق: "فلو ترك النبيّ ﷺ الناس ولم يبين لهم حكم الأطفال لم يعرفوا المؤمنين منهم من الكافرين، لأنهم لا يدرون ما جبل كل واحد منهم عليه حين أخرج من ظهر آدم، فبين النبي ﷺ حكم الطفل في الدنيا بأن "فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِهِ ويُمَجِّسَانِهِ" يقول: أنتم لا تعرفون ما طبع عليه في الفطرة الأولى، ولكن حكم الطفل في الدنيا حكم أبويه، فاعرفوا ذلك بالأبوين، فمن كان

[١] تأويل مختلف الحديث ٣٦٣/١

[٢] رواه البخاري برقم ٣٠١٢

[٣] تاريخ دمشق ٣١٩/٢٤

صغيرًا بين أبوين كافرين ألحق بحكمهما، ومن كان صغيرًا بين أبوين مسلمين ألحق بحكمهما، وأما إيمان ذلك وكفره مما يصير إليه فعلم ذلك إلى اللَّه، وبعلم ذلك فُضِّل الخضر على موسى، إذْ أطلعه اللَّه عليه في ذلك الغلام وخصه بذلك العلم.

قال: ولقد سئل ابن عباس عن ولدان المسلمين والمشركين فقال: حسبك ما اختصم فيه موسى والخضر، واحتج إسحاق أيضًا بحديث عائشة ـ حين مات صبي من الأنصار بين أبوين مسلمين ـ فقالت عائشة: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة فرد عليها النبي ﷺ فقال: "مَهْ يَا عَائِشَةُ! وما يُدرِيكِ؟ إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا"[1]، قال إسحاق: هذا الأصل الذي يعتمد عليه أهل العلم"[2].

وقال ابن قتيبة قَالُوا: حَدِيثَانِ مُخْتَلِفَانِ "فِي ذَرَارِيّ الْمُشْرِكِينَ"، قَالُوا: رُوِّيتُمْ أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَرَارِيُّ الْمُشْرِكِينَ تَطَؤُهُمْ خَيْلُنَا فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ عِنْدَ الْغَارَةِ، قَالَ: "هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ"؛ قَالُوا: ثُمَّ رُوِّيتُمْ أَنَّهُ بَعَثَ سَرِيَّةً فَقَتَلُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إنْكَارًا شَدِيدًا؛ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ ذَرَارِيُّ الْمُشْرِكِينَ؛ قَالَ: "أَو لَيْسَ خياركم، ذَرَارِي الْمُشْركين؟ " قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ اخْتِلَافٌ؛ لِأَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ، أَعْلَمَهُ أَنَّ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ تَطَؤُهُمْ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ عِنْدَ الْغَارَةِ، فَقَالَ: "هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ".

يُرِيدُ: أَنَّ حُكْمَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حُكْمُ آبَائِهِمْ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ، وَكَانَتِ الْغَارَةُ، وَوَقَعَتِ الْفُرْصَةُ فِي الْمُشْرِكِينَ، فَلَا تَكُفُّوا مِنْ أَجْلِ الْأَطْفَالِ؛ لِأَنَّ حُكْمَهُمْ حُكْمُ آبَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَعَمَّدُوا قَتْلَهُمْ.

ثُمَّ أَنْكَرَ فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي عَلَى السَّرِيَّةِ، قَتْلَهُمُ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ، لِأَنَّهُمْ تَعَمَّدُوا ذَلِكَ لِشِرْكِ آبَائِهِمْ، فَقَالَ: "أَوَلَيَس خِيَارُكُمْ ذَرَارِيَّ الْمُشْرِكِينَ"؛ يُرِيدُ: فَلَعَلَّ فِيهِمْ مَنْ يُسْلِمُ إِذَا بَلَغَ وَيحسن إِسْلَامه"[3].

---

[1] رواه الإمام أحمد ٦/ ٤١، ومسلم (٢٦٦٢).

[2] "التمهيد" ١٨/ ٨٤ - ٨٨.

[3] تأويل مختلف الحديث ١/٣٨٤

وبهذا التقرير تبيَّن أن الله كفَّر أعيان المشركين وأجناسهم وأقوامهم وقُراهم فخصَّ وقيَّد وأطلق وعمَّ وكُلها واردة في القرآن، وإطلاق الكفر على عموم ديار الكفر مع العلم بوجود أعيان مسلمة مستخفية لا تخلوا منهم الديار إطلاق صحيح بنص القرآن خلافا لأصحاب الورع البارد الذين يؤسلمون ديار الكفر بحجة الورع عن لحوق اسم الكفر بالقلة الموحدة المستخفية لعدم التمييز.

وبهذا يتبيَّن أن المسلم يحقق البراءة من المشركين بتكفيرهم وعداوتهم وبغضهم، ويتحقَّق امتثال أمر الله عزَّ وجلَّ بتكفير من كفرهم الله من أعيان الكفار وأجناسهم وأقوامهم سواء، فإن توقف في تكفير أحد هذه المُتعلَّقات مع وجودها في الخارج تخلَّف هذا الأصل العظيم وكان الخلل في التوحيد، فمن أسلم أعيان المشركين أو أقوامهم أو صحح دينهم أو توقف فيهم فهذا لم يحقق البراءة منهم.

الفَصْلُ الثَّالِث

بيان الأصل في الدور

لم يُنْقَل خلافٌ بين السلف أن الدار داران: دار كفر وإسلام، وضابط الفرق بينهما هو علو الأحكام، فإن كان السلطان لله فالدار دار اسلام وإن كان السلطان للطّواغيت فالدار دار كفر، ولا خلاف بين الفقهاء في ماهية دار الكفر، قال الإمام مالك: «كانت مكة دار كفر لأن أحكام الجاهلية ظاهرة يومئذ»[١]، وعند الحنابلة هي: "الدَّارُ التي تَغلبُ فيها أحكامُ الكفر"[٢]، "وكَانَ يَقُول أحمد: الدَّار إذا ظهر فِيهَا القَوْل بِخلق الْقُرْآن وَالْقدر وَمَا يجْرِي مجْرى ذَلِك فَهِيَ دَار كفر"[٣]، وقال عبد الله أبو بطين: "قال الأصحاب: الدار داران، دار إسلام ودار كفر، فدار الإسلام: هي التي تجري أحكام الإسلام فيها، وإن لم يكن أهلها مسلمين، وغيرها دار كفر"[٤].

وقال الماوردي الشافعي في دار الكفر هي: "الدار التي لا يثبت للمسلمين عليها يد"[٥]، وقال الكاساني الحنفي: "تصير الدار دار كفر بظهور أحكام الكفر فيها"[٦]، وقال عبد القاهر البغدادي:" كل دار ظهرت فيه دعوة الإسلام من أهله بلا خفير ولا مجير ولا بذل جزية ونفذ فيها حكم المسلمين على أهل الذمَّة إن كان فيهم ذمِّي ولم يقهر أهل البدعة فيها أهل السنة فهي دار

[١] المدونة الكبرى ٣/٢٣

[٢] المبدع ٣/٣١٣، والانصاف ٤/١٢١

[٣] العقيدة رواية أبي بكر الخلال ١/١٣٤

[٤] مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»، القسم الثالث من الجزء الأول: (ص ٦٥٥).

[٥] الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٩١.

[٦] بدائع الصنائع ٧/١٣٠.

الإسـلام ـ إلى أن قـال ـ وإذا كـان الأمـر على ضـد مـا ذكرنـاه في الـدار فهي دار الكفر"[١].

والمطَّرد في كتـاب اللـه وسـنة رسـوله ﷺ وواقـع الـديار في القـرون الثلاثـة ومـن بعـدهم أن دار الكفـر أهلهـا كفـار سـواء أكـانوا مُحـاربين أو مُعاهـدين، قـال ابْـنِ عَبَّـاس: « كَـانَ المُشْـرِكُونَ عَلَـى مَنْـزِلَتَيْنِ مِـنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالمُـؤْمِنِينَ: كَـانُوا مُشْـرِكِي أَهْـلِ حَـرْبٍ، يُقَـاتِلُهُمْ وَيُقَاتِلُونَـهُ، وَمُشْـرِكِي أَهْـلِ عَهْـدٍ، لاَ يُقَـاتِلُهُمْ وَلاَ يُقَاتِلُونَـهُ»[٢]، وقـال ابـن قدامـة:" فَأَمَّـا دَارُ الْحَـرْبِ، فَـلَا نَحْكُـمُ بِإِسْـلَامِ وَلَـدِ الْكَـافِرَيْنِ فِيهَـا بِمَوْتِهِمَـا، وَلَا مَـوْتِ أَحَـدِهِمَا؛ **لِأَنَّ الـدَّارَ لَا يُحْكَـمُ بِإِسْـلَامِ أَهْلِهَـا**، وَكَـذَلِكَ لَـمْ نَحْكُـمْ بِإِسْـلَامِ لَقِيطِهَـا"[٣]، وفي المقابـل دار الإسـلام أهلهـا مسـلمين قـال ابـن رجب:" إذْ الْأَصْلُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ الْإِسْلَامُ"[٤].

ودار الممتنعـين عـن شـريعة مـن الشـرائع هي دار حـرب بإجمـاع الفقهـاء قـال في شـرح "الإقنـاع": أجمـع العلمـاء على أن كـل طائفـة ممتنعـة عـن شـريعة مـن شـرائع الإسـلام، فإنـه يجـب قتالهـا حتى يكـون الـدين كلـه للـه، **كالمحـاربين وأولى**"[٥].

وتكـون الـدار دار كفـر ولـو كـان فيهـا طائفـةٌ مـن المسـلمين مسـتخفين بالإسـلام وهـذا باتفـاق الفقهـاء قـال ابـن سحمان:" بـل الَّـذِي اتّفـق عَلَيْـهِ الْعلمَـاء أَنَّهَـا ـ مكـة ـ بِـلَاد كفـر وَحـرب وَلَـو كَـانَ فِيهَـا أنَـاس مُسـلمُونَ مسـتخفون أَو ظَـالِمُونَ لأَنْفُسِـهِمْ بِالْإِقَامَةِ فِي دَار الْكفْر غير مظهرين لدينهم كَمَا هُوَ مَعْرُوف مَشْهُور"[٦].

وقـال: أبـو إسـحاق الصـفَّار البخـاري:" وكـل دار كانـت الغلبـة فيهـا لأهـل الاعتـزال كعسـكر مكـرم، أو بقعـة غلـب عليهـا الخـوارج كجبـال عمـان ورسـاتيق سجسـتان،

[١] أصول الدين لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي ص ٢٧٠

[٢] صحيح البخاري برقم ٥٢٨٦

[٣] المغني ٩/١٩

[٤] القواعد لابن رجب ١/٣٤٥

[٥] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١٠/ ٣٠٩

[٦] كشف الأوهام والالتباس عن تشبيه بعض الأغبياء من الناس ١/ ٩٤

أو غلب عليها مذهب القرامطة مثل هجر والقاهرة في باب مصر؛ فإن كان أهل السنة فيها مستضعفين لا يمكنهم المقام فيها إلا بإخفاء مذهبهم أو على ذمة أو جزية فتلك الدار دار كفر ويجب قتال أهلها، **وكل من يوجد في تلك الدار فهو كافر إلا من ظهر الإسلام منه بيقين**"[1].

المطلب الأول: الأدلة على أن دار الكفر أهلها كفار

ومن النصوص التي ورد فيها الإشارة إلى أن الأصل في دار الحرب كُفر أهلها إلا من أظهر من الإيمان ظاهراً معتبراً، وتحقق بصفته ما يلي:

❁ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[النساء٩٤]، قال ابْنِ عَبَّاسٍ:« لَقِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلا مَعَهُ غَنِيمَةٌ لَهُ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فقتلوه وأخذوا غنيمة، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾»[2].

فالآية نزلت في الصحابة الذين خرجوا في سرية وقتلوا الرجل الذي ألقى عليهم الإسلام وساقوا غنمه لغلبة الظن أنه قال كلمة يتقي بها سيوف المسلمين فعاتبهم الله على العمل بالأصل ـ في أن دار الكفر هي دار إباحة للدم والمال ـ وترك العمل بالظاهر ـ إلقاء السلام الذي هو ظاهر معتبر في هذه الدار ـ الذي يرفع هذا الأصل، وأمرهم بالتبيُّن حين ظهور علامة الإسلام، وفي هذه الصورة تعارض الأصل والظاهر فيُقدَّم الظاهر لقوله تعالى:﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ أي لست مؤمنا لإلحاقه بدار الحرب واستصحاب الأصل في كفر أهلها وعدم اعتبار الظاهر.

---

[1] تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد ج ٢ ص ٧٣٥ و ٧٣٦

[2] تفسير ابن أبي حاتم برقم ٥٨٢٥

❁ وقال تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤۡمِنَةٍ ﴾[النساء٩٢]، وهذا النص يُقرر أن الأصل لا ديَّة ولا كفَّارة إذا كان القتل من قوم عدو لكم أي: في دار حرب، ولذلك استثنى المؤمن بقوله:﴿ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ ﴾ ليختصَّ بالكفَّارة دون غيره من قومه، وفي هذه دلالة واضحة على أن دار الحرب وهي في قوله ﴿ قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ ﴾ كفارٌ تباح دماؤهم وأموالهم لا ديَّة ولا كفَّارة في قتيلهم إلا من ثبتت له صفة الإيمان، وكما يقول أهل الأصول: الاستثناء معيار العموم.

قال سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ في قَوْلَهُ: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ ﴾ **يَعْنِي** مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ يَعْنِي الْمَقْتُولَ قَالَ: نَزَلَتْ فِي مِرْدَاسِ بْنِ عَمْرٍو وَكَانَ أَسْلَمَ، وَقَوْمُهُ كُفَّارٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ فَقَتَلَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ خَطَأً، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَلا دِيَةَ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ أَهْلُ الْحَرْبِ، وَرُوِيَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ، وَعِكْرِمَةَ، وَالشَّعْبِيِّ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوُ ذَلِكَ"[١]، " وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ قَتَادَةُ: **هُوَ الْمُسْلِمُ يَكُونُ فِي الْمُشْرِكِينَ فَيَقْتُلُهُ الْمُؤْمِنُ وَلَا يَدْرِي** فَفِيهِ عِتْقُ رَقَبَةٍ وَلَيْسَ فِيهِ دِيَةٌ وَهَذَا على أنه يُقْتَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ إلَى دَارِ الْإِسْلَامِ - إلى أن قال - وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: مَنْ أَقَامَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ وَإِنْ انْتَحَلَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ يَقْدِرُ على التحويل إلَى الْمُسْلِمِينَ **فَأَحْكَامُهُ أَحْكَامُ الْمُشْرِكِينَ**"[٢].

❁ وقال تعالى:﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾[غافر٢٨]، فقيَّدَهُ بصفة الإيمان لأنه لو نُسب إلى قوم آل فرعون بلا قيد لكان منهم كقوله: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾[غافر٤٦].

❁ وقال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ

[١] رواه ابن ابي حاتم في تفسيره برقم ٥٧٩٨

[٢] أحكام القرآن للجصاص ٢١٧/٣

فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[الفتح٢٥]، والشاهد في الآية أنه تعالى قيَّد الرجال والنساء بصفة الإيمان ليخرجوا من عموم قوله ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ثم قال ﴿ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ ﴾،" لاختلاطهم بالمشركين وهم يكتمون الإيمان فيجرى عليهم حكم الكفار من القتل ﴿ أَن تَطَـُٔوهُمۡ ﴾ تبعا لقومهم، وروى الطبري بسنده عن ابن إسحاق:" ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ فتخرجوا ديَّته، **فأما إثم فلم يحسبه عليهم**، والصواب أنها الكفَّارة واختاره الطبري فقال: "وإنما المعنى: فتصيبكم من قبلهم معرّة تُعرّون بها، يلزمكم من أجلها كفّارة قتل الخطأ"[١].

وقوله: ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ ينفي علم المكلَّف بالإيمان الباطن الذي يدرأ القتل لظاهر الكفر كما سبق في آية النساء، ومن رحمة الله بهؤلاء المؤمنين أن كفَّ الله عنهم القتال وقال: ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾فكفَّ القتال لعدم التمييز بين الكفار والمسلمين ﴿ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي لو تميَّزوا لسلطنَّاكم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعاً.

وفي هذه الآية أعظم دلالة على أن المؤمن الذي يكتم إيمانه بين القوم الكافرين يجري عليه حكم القوم في علم المكلف، لأنه لا يستطيع أن يميز بينه وبين قومه المشركين لكونه يستخفي بإيمانه، فهو تبعٌ لقومه في علم المكلف وهو الذي يتعلق به التكليف إذ لم يؤمر بالتنقيب عن البواطن.

ويؤيد هذا ما رواه مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حِينَ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ:« يَا عَبَّاسُ افْدِ نَفْسَكَ وَابْنَ أَخِيكَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ جَحْدَمٍ أَخَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ فَإِنَّكَ ذُو مَالٍ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا وَلَكِنَّ الْقَوْمَ اسْتَكْرَهُونِي. قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلامِكَ. إِنْ يَكُ مَا تَذْكُرُ حَقًّا فَاللَّهُ يُجْزِيكَ بِهِ.

[١] تفسير الطبري ٢٢/٢٣٩

فَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا. فَافْدِ نَفْسَكَ»[1] وهنا استصحب فيه النبي ﷺ الأصل وهو حكم قومه الذين خرج معهم، ولم يعتبر قوله: "إني كنت مسلماً" ودعواه للاستكراه، إذْ هو ظاهرٌ غير معتبر في هذه الصورة.

❁ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[الممتحنة ١٠]، قال الطبري وقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾يقول: الله أعلم بإيمان من جاء من النساء مهاجرات إليكم، وقوله: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ ﴾يقول: فإن أقررن عند المحنة بما يصحّ به عقد الإيمان لهنّ، والدخول في الإسلام، فلا تردوهنّ عند ذلك إلى الكفار"[2].

وقال السمعاني:" فَإِن قَالَ قَائِل: كَيفَ التَّوْفِيق بَين قَوْله: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ ﴾وَبَين قَوْله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ ؟ وَالْجَوَاب عَنهُ: أَن معنى قَوْله: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ ﴾ أَي: إِيمَان الْإِقْرَار والامتحان، كأنهن أقررن بِالْإِيمَان، وحلفن عِنْد الامتحان"[3].

فالأمر بالامتحان للتحقق من الإيمان الظاهر لقدومهن من دار الكفر والانتقال من الأصل في الدار القادمين منها إلى الظاهر المُناط به الحكم: ﴿ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ ﴾ أي ما يتعلق به علم المكلف، بإظهارها مخالفة القوم الكافرين، أما الباطن فأمره إلى الله كما في قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ ولا يتعلق به التكليف، وعليه فالنص فيه استصحاب لحكم القوم لمن خرج

[1] الطبقات الكبرى ٤/ ١٠
[2] تفسير الطبري ٣٢٨/٢٣
[3] تفسير السمعاني ٤١٨/٥

منهم يريد الإسلام إلى دار الإسلام، وفيه أن الظاهر المعتبر في هذه الصورة هو ما يحصل به الامتحان، وهو إظهار المخالفة للقوم الكافرين، قال ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أَنَّهُ سُئِلَ بِمَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْتَحِنُ النِّسَاءَ؟ قَالَ: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ حَلَّفَهَا عُمَرُ رضي الله عنه بِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ رَغْبَةً بِأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتِ الْتِمَاسَ دُنْيَا، وَبِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ إلا حُبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ»[١].

وفي هذه الأدلة كفاية لمن أنار الله قلبه بنور الوحي، أما من ألقى السمع لطواغيت العلم في هذا الزمان أظلَمَ قَلْبُهُ فصار مستودعاً للشبهات والاعتذارات فضَّلَ ضلالا مبيناً، وأما الدار المركبة التي ابتدعها المتأخرون فهي محدثة وليست قسيمة للدارين ولم يعرفها السلف بل استقرَّ وفاقهم على الدارين، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»[٢].

ونقول أنَّ دار الإسلام إذا ظهر عليها الكفار فإما مآلها إلى الكفر بسكون أهلها وعدم المناجزة والدفع واستحبابهم الحياة الدنيا وإيثارهم المسكن والمتاع والخلود إلى الأرض، وبالتالي يدخلون في طاعة الطواغيت واتباع شرائع الكافرين فتجري عليهم أحكام الكفَرة ظاهراً، وإما يُقاتِلون الكُفار حتى يفتح الله بينهم وبين عدوِّهم بالحق فإن ظهروا أعادوا السلطان لله وإن دُحِروا خرجوا وانحازوا إلى المسلمين، قال ابْنَ عُيَيْنَةَ: «أَتَدْرُونَ مَا مَثَلُ الْعِلْمِ؟ مَثَلُ الْعِلْمِ مِثْلُ دَارِ الْكُفْرِ، وَدَارِ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ تَرَكَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْجِهَادَ جَاءَ أَهْلُ

---

[١] تفسير ابن أبي حاتم برقم ١٨٨٦٧

[٢] رواه البخاري برقم ٢٦٩٧ ومسلم ١٧١٨

الْكُفْـرِ فَأَخَـذُوا الْإِسْـلَامَ، وَإِنْ تَـرَكَ النَّـاسُ الْعِلْـمَ صَـارَ النَّـاسُ جُهَّـالًا»[١]، وَقَـالَ الْحَسَـنُ بْـنُ صَـالِحٍ:" مَـنْ أَقَـامَ فِي أَرْضِ الْعَـدُوِّ وَإِنْ انْتَحَـلَ الْإِسْـلَامَ وَهُـوَ يَقْـدِرُ على التحويـل إِلَـى الْمُسْـلِمِينَ فَأَحْكَامُـهُ أَحْكَـامُ الْمُشْـرِكِينَ وَإِذَا أَسْـلَمَ الْحَرْبِـيُّ فَأَقَـامَ بِـبِلَادِهِمْ وَهُـوَ يَقْـدِرُ عَلَـى الْخُـرُوجِ فَلَـيْسَ بِمُسْـلِمٍ يُحْكَـمُ فِيـهِ بِمَـا يُحْكَـمُ عَلَـى أَهْـلِ الْحَرْبِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ"[٢].

وقـال ابـن حـزم:" وَلَـوْ أَنَّ كَـافِرًا مُجَاهِـدًا غَلَـبَ عَلَـى دَارٍ مِـنْ دُورِ الْإِسْـلَامِ، وَأَقَـرَّ الْمُسْـلِمِينَ بِهَـا عَلَـى حَـالِهِمْ، إلَّا أَنَّـهُ هُـوَ الْمَالِـكُ لَهَـا، الْمُنْفَـرِدُ بِنَفْسِـهِ فِي ضَـبْطِهَا، وَهُـوَ مُعْلِـنٌ بِـدِينٍ غَيْرِ الْإِسْـلَامِ **لَكَفَـرَ بِالْبَقَـاءِ مَعَـهُ كُلُّ مَـنْ عَاوَنَـهُ، وَ أَقَـامَ مَعَـهُ - وَإِنْ ادَّعَى أَنَّهُ مُسْلِمٌ** - لِمَا ذَكَرْنَا"[٣].

والـديار اليـوم قـد مـرَّ عليهـا عقـود متواليـة منـذ أن غزاهـا الكفـار وعلاهـا قـانون الغـرب، والجيـل الـذي حصـل فيـه التركيـب كمـا زعـم جماعـة الترقيـع والتركيـب قـد انـدثر مـن غـابر الزمـان، فمتى تنتهي صلاحية التركيـب وتنقضـي مـدة "الكفـر الطـارئ" عنـدهم؟، قـال ابـن قدامـة:" وَأَمَّـا مَـنْ حَـدَثَ بَعْـدَ الـرِّدَّةِ، فَهُـوَ مَحْكُـومٌ بِكُفْـرِهِ، لِأَنَّـهُ وُلِـدَ بَـيْنَ أَبَـوَيْنِ كَـافِرَيْنِ، وَيَجُـوزُ اسْـتِرْقَاقُهُ؛ لِأَنَّـهُ لَـيْسَ بِمُرْتَـدٍّ. نَـصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ"[٤].

فالنـاس اليـوم في انسـلاخ مـن الـدين وانصـهار في الكفـر المبـين، حتى أنـك لا تفـرق بـين شـوارع سوسـة وبـاريس، وشـوارع الربـاط ومدريـد، ولا يـزال طواغيـت العلـم يُصـححون إسـلام هـذه الأقـوام ويسـمونهم المسـلمين فحسـبنا اللـه ونعـم الوكيل.



[١] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢٨١/٧

[٢] أحكام القرآن للجصاص ٢١٦/٣

[٣] المحلى ١٢٦/١٢

[٤] المغني ١٧/٩

الفصل الرابع

الظاهر المعتبر في الدور

بعد تأصيل الإسلام في دار الإسلام والكفر في دار الكفر بالأدلة، وتقرير أن هذا الأصل لا يُرفَعُ إلا بظاهرٍ مُعتبرٍ يُصار إليه، فالأصلُ يُستصحب في الدور والظاهر المعتبر يَرفعُ هذا الأصل عند التعارض، لأنه أقوى منه في الدلالة في هذا الباب، والمراد بالأصل هو القاعدة المستمرة والاستصحاب، وهنا هو حكم الدار إسلاماً وكفراً، قال ابن قدامة:" **لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي دَارٍ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِهَا**، يَثْبُتُ لَهُ حُكْمُهُمْ مَا لَمْ يَقُمْ عَلَى خِلَافِهِ دَلِيلٌ"[١]، **وأما الظاهر** فهو ما يحصل بالمشاهدة أو السماع، وقد تكلم الفقهاء في تعارض الأصل والظاهر في مسائل عدة في الفروع قال ابن رجب:" الْقَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالْخَمْسُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ: إذَا تَعَارَضَ الْأَصْلُ وَالظَّاهِرُ فَإِنْ كَانَ الظَّاهِرُ حُجَّةً يَجِبُ قَبُولُهَا شَرْعًا كَالشَّهَادَةِ وَالرِّوَايَةِ وَالْإِخْبَارِ فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْأَصْلِ بِغَيْرِ خِلَافٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ بَلْ كَانَ مُسْتَنِدُهُ الْعُرْفُ أَوْ الْعَادَةُ الْغَالِبَةُ أَوْ الْقَرَائِنُ أَوْ غَلَبَةُ الظَّنِّ وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَتَارَةً يُعْمَلُ بِالْأَصْلِ وَلَا يُلْتَفَتُ إلَى الظَّاهِرِ، وَتَارَةً يُعْمَلُ بِالظَّاهِرِ وَلَا يُلْتَفَتُ إلَى الْأَصْلِ، وَتَارَةً يُخَرَّجُ فِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ"[٢].

ثم ذكر فروعاً للقاعدة منها مجهول الحال فقال:" وَمِنْهَا: لَوْ وُجِدَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ مَيِّتٌ مَجْهُولُ الدِّينِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ عَلَامَةُ السَّلَامِ وَلَا الْكُفْرِ أَوْ تَعَارَضَ فِيهِ عَلَامَةُ السَّلَامِ وَالْكُفْرِ صَلَّى عَلَيْهِ. نَصَّ عَلَيْهِ فَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ خَاصَّةً فَمِنْ الْأَصْحَابِ مَنْ قَالَ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَالْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ لَا

---

[١] المغني ٢/٤٠٠

[٢] القواعد لابن رجب ٣٣٨/١

يُصَلَّى عَلَيْهِ وَيُدْفَنُ وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى تَعَارُضِ **الْأَصْلِ وَالظَّاهِرِ إِذْ الْأَصْلُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ الْإِسْلَامُ** وَالظَّاهِرُ فِي هَذَا الْكُفْرُ، وَلَوْ كَانَ الْمَيِّتُ فِي دَارِ الْكُفْرِ فَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الْإِسْلَامِ صُلِّيَ عَلَيْهِ وَإِلَّا فَلَا نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ سَعِيدٍ **وَهَذَا تَرْجِيحٌ لِلظَّاهِرِ عَلَى الْأَصْلِ** هَاهُنَا كَمَا رَجَّحَهُ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى وَلَمْ يُرَجِّحْ الْأَصْحَابُ هُنَا الْأَصْلَ كَمَا رَجَّحُوهُ ثُمَّ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْأَصْلَ قَدْ عَارَضَهُ أَصْلٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي كُلِّ مَوْلُودٍ أَنَّهُ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ"[1].

والذي نروم تحقيقه في هذا الفصل: ما هو حدُّ الظاهر المعتبر الذي يصار إليه عند تعارض الأصل والظاهر:

إن من السَّدَاد في هذه المسائل الدقيقة لمن تَعنَّ بالتحقيق فيها: أن يُدقق النظر في فقه الواقع الذي نزلت فيه النصوص، والعمل الذي كان عليه الصحابة، فإن قطع النصوص عن واقعها لَهُو مَدعاةٌ إلى الحِيدَةِ بها إلى غير تنزيلها، وهو نظرٌ في المسألةِ كَكُلٍ من زاويةٍ ضيقة ومن نصوص بعينها في وقائع خاصة مُجردة عن ما ورد من النصوص في الباب عموماً، فيؤدي حتماً إلى ضَربِ النصوص بعضها ببعض ممن قَصُرَ نَظَرُهُ عن الإحاطة بجملة الأدلة وحُرِمَ الفهم الصحيح فضاق صدره بما ضاق به علمه فخَبطَ خبطةً عشواء ونسبَ إلى الشرع ما ليس منه، فنسأل الله الهداية والرشاد والفقه والسداد، قال الشاطبي:" فَكَثِيرًا مَا تَرَى الْجُهَّالَ يَحْتَجُّونَ لأنفسهم بأدلة فَاسِدَةٍ، وبأدلة صَحِيحَةٍ **اقْتِصَارًا بِالنَّظَرِ عَلَى دَلِيلٍ مَا، واطِّراحاً لِلنَّظَرِ فِي غيرهِ من الأدلة الأُصولية، أو الفروعية الْعَاضِدَةِ لِنَظَرِهِ، أَو الْمُعَارَضَةِ لَهُ**، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يدَّعي الْعِلْمَ يَتَّخِذُ هَذَا الطَّرِيقَ مَسْلَكًا، وَرُبَّمَا أفتى بِمُقْتَضَاهُ، وَعَمِلَ عَلَى وَفْقِهِ **إذا كَانَ له فيه غرض**"[2].

لقد كان الصحابة في مكة قبل الهجرة قِلةً بين كثرةٍ مُشركة، في دار كفر يُفتن فيها عن دينه من لا عُصبة له ولا جِوار... كان الإسلام غريباً وحامله

[1] القواعد لابن رجب ٣٤٥/١

[2] الاعتصام ٨/٢

طريداً، وقريشٌ قد استعلنت بعدائها للإسلام وأهله... وفي مثل هذه الدار وبين هؤلاء القوم لا يحكم بإسلام العين إلا من تكلم بالإسلام وأظهره وفارق دين قومه المشركين، وهذا الظاهر يتميز به المسلمُ عن المشرك وتحصل به المفاصلة للجاهلية، وهو خلافُ ما أظهره القوم من الشرك واتباع دين الآباء وإنكار النبوة، وهو الظاهر المعتبر الذي يَرفع الأصل المتقرر في مثل هذه الدار ـ مكة ـ... فعن هشام بن عروة، عن أبيه: أن عبد الملك بن مروان كتبَ إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إليّ تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فنعم النبيُّ! ونعم السيد! ونعم العشيرة! فجزاه الله خيرًا، وعرّفنا وجهه في الجنة، وأحيانَا على ملته، وأماتنا عليها، وبعثنا عليها، وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يَبْعُدوا منه أوّلَ ما دعاهم إليه، **وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم**، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال، أنكر ذلك ناسٌ واشتدّوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه، إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنةً شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم»[١].

ولقد كان العرب في ذلك الحين يعرفون معنى لا إله إلا الله ويعلمون مدلولها، وهو إفراد الله بخصائصه في الألوهية والربوبية والحاكمية والاتباع، وأنها تقتضي خلع الأرباب والأنداد ومفارقة دين الآباء والأجداد كما روى ابن إسحاق قال: "ثم إن أبا بكر لقي رسول الله ﷺ فقال: **أحقٌّ ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءنا؟** [٢].

---

[١] رواه ابن أبي حاتم ١٦٠٨٣

[٢] سيرة بن اسحاق ١٣٩/١

إن هـذه كلمـة التوحيـد بـين هـؤلاء القـوم في تلـك الـدار كـان قائلهـا يخـرج مـن دينــه ويفاصــل قومــه ويستســلم للــه بالتوحيــد والانقيــاد والطاعــة والاتبــاع ... فكـان المسـلم يقولهـا معتقـداً لمعناهـا الـذي يعرفـه مـن لغـة العـرب وواقـع الحـال فيصير بهـا مؤمنـاً، والمشـرك يجحـد لفظهـا لمـا يجحـده مـن معناهـا الـذي يعرفـه مـن لغـة العـرب وواقـع الحـال فيصير بـه جاحـداً مكـذبا ... فتمـايز الصـفان وبانـت السـبيلان بكلمــة التوحيــد، فكــان الظــاهر المعتبـر في التمييـز بـين المسـلمين والمشــركين ــ فـي دارِ كفـرٍ أهلُهـا وثنيـين لا يتكلمـون بالإسـلام ــ هـو النطـق بالشـهادتين مـع العلـم بمعناهـا ومـا تتضـمنه مـن البراءة مـن الشـرك وأهلـه، قـال البغـوي في قـول النبي ﷺ: ﴿أُمِـرْتُ أَنْ أُقَاتِـلَ النَّـاسَ حَتَّى يَقُولُـوا: لَا إِلَـهَ إِلا اللَّـهُ، فَـإِذَا قَـالُوا: لَا إِلَـهَ إِلا اللَّـهُ، عَصَـمُوا مِنِّي دِمَـاءَهُمْ وَأَمْـوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّهَـا، وَحِسَـابُهُمْ عَلَى اللَّـهِ﴾[١]، وَقَوْلُـهُ: " حَتَّى يَقُولُـوا: لَا إِلَـهَ إِلا اللَّـهُ "، **أَرَادَ بِـهِ عَبَـدَةَ الأَوْثَـانِ** دُونَ أَهْلِ الْكِتَـابِ، لأَنَّهُـمْ يَقُولُـونَ: لَا إِلَـهَ إِلا اللَّـهُ، ثُـمَّ لَا يُرْفَـعُ عَـنْهُمُ السَّـيْفُ حَتَّى يُقِـرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ"[٢].

أمـا الشـعائر المشـتركة فهي غير معتبرة في هـذه الـدار فقـد كـان المشـركون يطوفـون بالبيـت ويحجُّـون ويتصـدَّقون ويصـومون وينـذرون ويعمـرون المسـجد الحـرام ويفكـون العـاني وهي مـن بقايـا ملَّـة إبـراهيم التي ينتسـبون إليهـا، وهـو ظـاهرٌ غير معتبر لعـدم اختصاصـه بطائفـةٍ مُعينـة، فعـن ابـن عبـاس في قولـه: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَاخِرِ ﴾، قـال العبـاس بـن عبـد المطلـب حـين أُسـر يـوم بـدر:« لـئن كنـتم سـبقتمونا بالإسـلام والهجـرة والجهـاد، لقـد كنـا نعمـر المسـجد الحـرام، ونسـقي الحـاج، ونفـك العـاني! قـال اللـه: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾، إلـى قولـه: ﴿ٱلظَّالِمِين ﴾، يعـني أن ذلـك كـان في الشـرك، ولا أقبـل مـا كـان في الشـرك»[٣]. وهـذه الشـعائر التي تفـاخر بهـا

---

[١] رواه البخاري برقم ٢٥ ورواه مسلم برقم ٢٢

[٢] شرح السنة للبغوي ١/٦٦.

[٣] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٦٥٥٨

العباس غير معتبرة شرعاً مع ظهور الشرك بالله تعالى، وهي كذلك غير معتبرة في التمييز بين المؤمن والكافر لكونها مشتركة بينهما وبذلك تصير مفرَّغة عن الدلالة.

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا زَيْنَبُ، فَرَآهَا لاَ تَكَلَّمُ، فَقَالَ: «مَا لَهَا لاَ تَكَلَّمُ؟» قَالُوا: حَجَّتْ مُصْمِتَةً، قَالَ لَهَا: ﴿تَكَلَّمِي، فَإِنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ، **هَذَا مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ**﴾[١]. وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: ﴿كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ **تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ**﴾ " الحديث[٢] وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ عُمَرَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: ﴿ كُنْتُ نَذَرْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ، قَالَ: فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ﴾[٣] وغير ذلك من الشعائر[٤]، وقال حمد بن عتيق: "فإن يكن قد غركم أنّهم يصلّون أو يحجّون أو يصومون ويتصدّقون، فتأمّلوا الأمر من أوله، وهو أنّ التّوحيد قد تقرر في مكّة بدعوة إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السّلام - ومكث أهل مكّة عليه مدّة من الزّمان، ثمّ إنّه فشا فيهم الشّرك بسبب عمرو بن لُحي، وصاروا مشركين، وصارت البلاد بلاد شرك، مع أنّه قد بقي معهم أشياء من الدّين، وكما كانوا يحجّون ويتصدّقون على الحاج وغير الحاج"[٥].

وكذلك من كان في دار قوم أهل كتاب فالظاهر المعتبر في الحكم على الأعيان بالإسلام هو النطق بالشهادتين وأن عيسى عبد الله ورسوله وأن محمد ﷺ بُعث للناس كافة، واعتقاد ما تضمنته الشهادة من إفراد الله بالطاعة والتشريع وعدم اتخاذ الأرباب في الحاكمية والاتباع كما يفعله أهل الكتاب بالأحبار والرهبان، وهذا المعنى يجب أن يَنطِقَ به لتتحقق المفاصلة لأنه ليس بعربي يفهم من الشهادة هذه المعاني التي يفهما أهل القرن الأول والتي لا تصح ولا تنعقد الشهادة إلا بها، قال الشافعي :" فعلى كل مسلم أن

---

[١] رواه البخاري برقم ٣٨٣٤

[٢] رواه البخاري برقم ٢٠٠٢

[٣] رواه البخاري برقم ٢٠٣٢

[٤] وكانوا يذكرون الله وَقَالَ صَيْفِيُّ بْنُ عَامِرٍ، وَهُوَ أَبُو قَيْسِ بْنُ الْأَسْلَتِ الْخَزْرَجِيُّ - وَهُوَ جَاهِلِيٌّ - يَعْنِي قُرَيْشًا: قُومُوا فَصَلُّوا رَبَّكُمْ وَتَعَوَّذُوا ... بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ " أخبار مكة للأزرقي ١٤٩/١

[٥] مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٧٤٤/١

يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يَشْهَد به أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، ويتلوَ به كتابَ الله، وينطق بالذكر فيما افتُرِض عليه من التكبير، وأُمر به من التسبيح، والتشهد، وغيرِ ذلك"[١].

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، فِي قِصَّةِ وُرُودِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ مِنْ جِهَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْحِيرَةَ وَمُحَاوَرَةِ هَانِئِ بْنِ قَبِيصَةَ إِيَّاهُ فَقَالَ خَالِدٌ: **أَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى أَنْ تَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَتُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَتُقِرُّوا بِأَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ** عَلَى أَنَّ لَكُمْ مِثْلَ مَا لَهُمْ وَعَلَيْكُمْ مِثْلَ مَا عَلَيْهِمْ. فَقَالَ هَانِئٌ: وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ذَلِكَ فَمَهْ؟ قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ أَدَّيْتُمُ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ. قَالَ: فَإِنْ أَبَيْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ وَطِئْتُكُمْ بِقَوْمٍ الْمَوْتُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَيْكُمْ. فَقَالَ هَانِئٌ: أَجِّلْنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ فَنَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ الْقَوْمُ غَدَا هَانِئٌ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَجْمَعَ أَمْرُنَا عَلَى أَنْ نُؤَدِّيَ الْجِزْيَةَ فَهَلُمَّ فَلْأُصَالِحْكَ. فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: فَكَيْفَ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ عَرَبٌ تَكُونُ الْجِزْيَةُ وَالذُّلُّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ الْقِتَالِ وَالْعِزِّ؟ فَقَالَ: نَظَرْنَا فِيمَا يُقْتَلُ مِنَّا فَإِذَا هُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَنَظَرْنَا إِلَى مَا يُؤْخَذُ مِنَّا مِنَ الْمَالِ فَقَلَّمَا نَلْبَثُ حَتَّى يُخْلِفَهُ اللهُ لَنَا، قَالَ: فَصَالَحَهُمْ خَالِدٌ عَلَى تِسْعِينَ أَلْفًا"[٢].

وقَالَ الشَّافِعِيُّ: وَالْإِقْرَارُ بِالْإِيمَانِ وَجْهَانِ: فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَوْثَانِ وَمَنْ لَا دِينَ لَهُ يَدَّعِي أَنَّهُ دِينُ نُبُوَّةٍ وَلَا كِتَابَ فَإِذَا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْإِيمَانِ وَمَتَى رَجَعَ عَنْهُ قُتِلَ.

(قَالَ) : وَمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ فَهَؤُلَاءِ يَدَّعُونَ دِينَ مُوسَى وَعِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا وَقَدْ بَدَّلُوا مِنْهُ وَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِيهِمَا الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكَفَرُوا بِتَرْكِ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِ دِينِهِ مَعَ مَا كَفَرُوا بِهِ مِنْ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ قَبْلَهُ فَقَدْ قِيلَ لِي إنَّ فِيهِمْ مَنْ

[١] الرسالة ٤٧/١

[٢] رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم ١٨٦٤٧ ، قال ابن دقيق العيد :"فَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ أَهْلُ عِلْمٍ، وَمُخَاطَبَتُهُمْ لَا تَكُونُ كَمُخَاطَبَةِ جُهَّالِ الْمُشْرِكِينَ، وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ فِي الْعِنَايَةِ بِهَا وَالْبُدَاءَةُ فِي الْمُطَالَبَةِ بِالشَّهَادَتَيْنِ: لِأَنَّ ذَلِكَ أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ فُرُوعِهِ إِلَّا بِهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُوَحِّدٍ عَلَى التَّحْقِيقِ. كَالنَّصَارَى . فَالْمُطَالَبَةُ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ الشَّهَادَتَيْنِ عَيْنًا، وَمِنْ كَانَ مُوَحِّدًا . كَالْيَهُودِ . فَالْمُطَالَبَةُ لَهُ: بِالْجَمْعِ بَيْنَ مَا أَقَرَّ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَبَيْنَ الْإِقْرَارِ بِالرِّسَالَةِ. وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ. الَّذِينَ كَانُوا بِالْيَمَنِ. عِنْدَهُمْ مَا يَقْتَضِي الْإِشْرَاكَ، وَلَوْ بِاللُّزُومِ **يَكُونُ مُطَالَبَتُهُمْ بِالتَّوْحِيدِ لِنَفْيِ مَا يَلْزَمُ مِنْ عَقَائِدِهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ: أَنَّ مَنْ كَانَ كَافِرًا بِشَيْءٍ، مُؤْمِنًا بِغَيْرِهِ: لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِمَا كَفَرَ بِهِ**

هُوَ مُقِيمٌ عَلَى دِينِهِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَيَقُولُ لَمْ يُبْعَثْ إِلَيْنَا فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ أَحَدٌ هَكَذَا **فَقَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ لَمْ يَكُنْ هَذَا مُسْتَكْمِلَ الْإِقْرَارِ بِالْإِيمَانِ حَتَّى يَقُولَ وَإِنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ حَقٌّ أَوْ فَرْضٌ وَ أَبْرَأُ مِمَّا خَالَفَ دِينَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - أَوْ دِينَ الْإِسْلَامِ فَإِذَا قَالَ هَذَا فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِقْرَارَ بِالْإِيمَانِ فَإِذَا رَجَعَ عَنْهُ اُسْتُتِيبَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ"[1].

وقال السرخسي:" ذَكَرَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ. فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَاتِلُ عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ قَوْمٌ لَا يُوَحِّدُونَ اللَّهَ، فَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى إسْلَامِهِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ إذَا أَقَرَّ بِخِلَافِ مَا كَانَ مَعْلُومًا مِنْ اعْتِقَادِهِ، لِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إلَى الْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ الِاعْتِقَادِ لَنَا، فَنَسْتَدِلُّ بِمَا نَسْمَعُ مِنْ إقْرَارِهِ عَلَى اعْتِقَادِهِ. **فَإِذَا أَقَرَّ بِخِلَافِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ اعْتِقَادِهِ اسْتَدْلَلْنَا بِهِ عَلَى أَنَّهُ بَدَّلَ اعْتِقَادَهُ**. وَعَبَدَةُ الْأَوْثَانِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِاَللَّهِ تَعَالَى. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾وَلَكِنْ كَانُوا لَا يُقِرُّونَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وَقَالَ فِيمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾، مَنْ قَالَ مِنْهُمْ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَقَدْ أَقَرَّ بِمَا هُوَ مُخَالِفٌ لِاعْتِقَادِهِ **فَلِهَذَا جُعِلَ ذَلِكَ دَلِيلَ إيمَانِهِ** فَقَالَ: «أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ»..

وَعَلَى هَذَا الْمَانَوِيَّةُ وَكُلُّ مَنْ يَدَّعِي إلَهَيْنِ، إذَا قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَذَلِكَ دَلِيلُ إسْلَامِهِ.

فَأَمَّا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى هُمْ يَقُولُونَ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَلَا تَكُونُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ دَلِيلَ إسْلَامِهِمْ. وَهُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا لَا يُقِرُّونَ بِرِسَالَتِهِ. فَكَانَ دَلِيلُ

---

[1] الأم ١٨٢/٦

الْإِسْلَامِ فِي حَقِّهِمْ الْإِقْرَارَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. عَلَى مَا رُوِيَ عَنْهُ «أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى جَارِهِ الْيَهُودِيِّ يَعُودُهُ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَنَظَرَ الرَّجُلُ إلَى أَبِيهِ فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ أَبَا الْقَاسِمِ. فَشَهِدَ بِذَلِكَ وَمَاتَ، فَقَالَ ﷺ -: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْتَقَ بِي نَسَمَةً مِنْ النَّارِ. ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: لُوا أَخَاكُمْ» .

قَالَ: فَأَمَّا الْيَوْمَ بِبِلَادِ الْعِرَاقِ فَإِنَّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ رَسُولٌ إلَى الْعَرَبِ، لَا إلَى بَنِي إسْرَائِيل وَيَتَمَسَّكُونَ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ فَمَنْ يُقِرُّ مِنْهُمْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِ مَعَ ذَلِكَ، أَوْ يُقِرَّ بِأَنَّهُ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ. حَتَّى **إذَا قَالَ الْيَهُودِيُّ أَوْ النَّصْرَانِيُّ: أَنَا مُسْلِمٌ أَوْ أَسْلَمْت لَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ.** لِأَنَّهُمْ لَا يَدَّعُونَ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْمُسْلِمَ هُوَ الْمُسْتَسْلِمُ لِلْحَقِّ الْمُنْقَادُ لَهُ، وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْحَقَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ. فَلَا يَكُونُ مُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظِ فِي حَقِّهِمْ دَلِيلَ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِ مَعَ ذَلِكَ.

كَذَلِكَ لَوْ قَالَ: بَرِئْت مِنْ الْيَهُودِيَّةِ وَلَمْ يَقُلْ مَعَ ذَلِكَ: دَخَلْت فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ، لِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَبْرَأَ مِنْ الْيَهُودِيَّةِ وَدَخَلَ فِي النَّصْرَانِيَّةِ. فَإِنْ قَالَ مَعَ ذَلِكَ: وَدَخَلْت فِي الْإِسْلَامِ فَحِينَئِذٍ يَزُولُ هَذَا الِاحْتِمَالُ. وَقَالَ بَعْضُ مَشَايِخِنَا: إذَا قَالَ: دَخَلْت فِي الْإِسْلَامِ، يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ وَإِنْ لَمْ يَتَبَرَّأْ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ. لِأَنَّ فِي لَفْظِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى دُخُولٍ حَادِثٍ مِنْهُ فِي السَّلَامِ، وَذَلِكَ غَيْرُ مَا كَانَ عَلَيْهِ. **فَتَضَمُّنُ هَذَا اللَّفْظُ التَّبَرِّي مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ.**

وَلَوْ قَالَ الْمَجُوسِيُّ: أَسْلَمْت، أَوْ أَنَا مُسْلِمٌ، يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ. لِأَنَّهُمْ لَا يَدَّعُونَ هَذَا الْوَصْفَ لِأَنْفُسِهِمْ وَيَعُدُّونَهُ شَتِيمَةً بَيْنَهُمْ يَشْتُمُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِهِ وَلَدُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلَ الْإِسْلَامِ فِي حَقِّهِ"[1].

ننتقل إلى واقع آخر: وهو بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وقيام دولة الإسلام التي آوى إليها المهاجرون المستضعفون، واستعلنت فيها شعائر الإسلام وقامت فيها شرائعه، فالأصل في هذه الدار الإسلام كما قال ابن

[1] شرح السير الكبير ١/١٥٢

رجب:" إِذْ الْأَصْلُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ الْإِسْلَامُ"[١]، ولا يُنتَقَلُ عن هذا الأصل إلا بظهور الكفر بالله كقوله تعالى: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾، ولقوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[٢]، والحكم على الأعيان في دار الإسلام بالإسلام لأن دار الإسلام لا تُقِرُ مُرتداً على ردته، وأما شعائر المسلمين فقد كانت خاصة بهم في ذلك الحين فمن فعلها من وثني أو كتابي قد يُحكم عليه بالإسلام على قول بعض الفقهاء[٣] واستدلوا بما ورد عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: كَتَبَ

---

[١] القواعد لابن رجب ٣٤٥/١

[٢] رواه البخاري برقم ٦٩٢٢

[٣]<u>**اعتبار الشعائر عند بعض الفقهاء بقيد الاختصاص:**</u>

اعتبر بعض الفقهاء كالحنابلة وغيرهم شعيرة الصلاة للحكم بالإسلام **بقيد الاختصاص دون الاشتراك بين طوائف الكفر**؛ قال السرخسي:" وَعَنْ سَلَمَةَ قَالَ: سَأَلْت الشَّعْبِيَّ عَنْ الصَّبِيِّ مَتَى يُصَلَّى عَلَيْهِ؟ قَالَ: إذَا صَلَّى فَصَلُّوا عَلَيْهِ. وَتَأْوِيلُ هَذَا فِيمَا إذَا لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ الْإِقْرَارُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُ صَلَّى مَعَ الْمُسْلِمِينَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ الْحُكْمُ بِإِسْلَامِهِ عِنْدَنَا، **لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يُصَلُّونَ بِالْجَمَاعَةِ عَلَى هَيْئَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَإِظْهَارِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِعْلًا يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ إظْهَارِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ قَوْلًا، فَيَصِيرُ بِهِ مُسْلِمًا**، حَتَّى إذَا رَجَعَ عَنْ الْإِسْلَامِ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ إنْ كَانَ رَجُلًا. وَأَمَّا إذَا صَلَّى وَحْدَهُ لَمْ يُحْكَمْ بِإِسْلَامِهِ إلَّا فِي رِوَايَةٍ رَوَاهَا دَاوُد بْنُ رَشِيدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ إذَا صَلَّى إلَى قِبْلَةِ الْمُسْلِمِينَ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ اسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا» .

فَأَمَّا إذَا صَامَ أَوْ أَدَّى الزَّكَاةَ أَوْ حَجَّ لَمْ يُحْكَمْ بِإِسْلَامِهِ فِي ظَاهِرِ الرِّوَايَةِ. وَفِي رِوَايَةِ دَاوُد بْنِ رَشِيدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ: إذَا حَجَّ الْبَيْتَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُونَ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ؛ لِأَنَّهُ ظَهَرَ مِنْهُ فِعْلٌ مَا **يَخْتَصُّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ**، فَيُجْعَلُ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى إسْلَامِهِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ" شرح السير الكبير ١٥٥/١.

فترى أن تعليل الحكم بالإسلام لمن تلبس بالشعائر مداره على الاختصاص وبه حكم الحنابلة كذلك، قال ابن قدامة:" فَصْلٌ: وَإِذَا صَلَّى الْكَافِرُ، حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ، سَوَاءٌ كَانَ فِي دَارِ الْحَرْبِ أَوْ دَارِ الْإِسْلَامِ أَوْ صَلَّى جَمَاعَةً أَوْ فُرَادَى، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: إنْ صَلَّى فِي دَارِ الْحَرْبِ، حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ، وَإِنْ صَلَّى فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، لَمْ يُحْكَمْ بِإِسْلَامِهِ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ صَلَّى رِيَاءً وَتَقِيَّةً. وَلَنَا أَنَّ مَا كَانَ إسْلَامًا فِي دَارِ الْحَرْبِ كَانَ إسْلَامًا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، كَالشَّهَادَتَيْنِ، وَلِأَنَّ الصَّلَاةَ رُكْنٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْإِسْلَامُ، فَحُكِمَ بِإِسْلَامِهِ بِهِ كَالشَّهَادَتَيْنِ. وَاحْتِمَالُ التَّقِيَّةِ وَالرِّيَاءِ، يَبْطُلُ بِالشَّهَادَتَيْنِ. وَسَوَاءٌ كَانَ أَصْلِيًّا أَوْ مُرْتَدًّا. وَأَمَّا سَائِرُ الْأَرْكَانِ، مِنْ الزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ، فَلَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ بِهِ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَحُجُّونَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَنَعَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ.» وَالزَّكَاةُ صَدَقَةٌ، وَهُمْ يَتَصَدَّقُونَ.

وَقَدْ فَرَضَ عَلَى نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ مِنْ الزَّكَاةِ مِثْلَيْ مَا يُؤْخَذُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَصِيرُوا بِذَلِكَ مُسْلِمِينَ، وَأَمَّا الصِّيَامُ فَلِكُلِّ أَهْلِ دِينٍ صِيَامٌ، وَلِأَنَّ الصِّيَامَ لَيْسَ بِفِعْلٍ، إنَّمَا هُوَ إمْسَاكٌ عَنْ أَفْعَالٍ مَخْصُوصَةٍ فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ، وَقَدْ يَتَّفِقُ هَذَا مِنْ الْكَافِرِ، كَاتِّفَاقِهِ مِنْ الْمُسْلِمِ، وَلَا عِبْرَةَ بِنِيَّةِ الصِّيَامِ؛ لِأَنَّهَا أَمْرٌ بَاطِنٌ لَا عِلْمَ لَنَا بِهِ، **بِخِلَافِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا أَفْعَالٌ تَتَمَيَّزُ عَنْ أَفْعَالِ الْكُفَّارِ، وَيَخْتَصُّ بِهَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ**، وَلَا يَثْبُتُ الْإِسْلَامُ حَتَّى يَأْتِيَ بِصَلَاةٍ يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ صَلَاةِ الْكُفَّارِ، مِنْ اسْتِقْبَالِ قِبْلَتِنَا، وَالرُّكُوعِ، وَالسُّجُودِ، وَلَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ الْقِيَامِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُومُونَ فِي صَلَاتِهِمْ" المغني ٢٣/٩

فاعتبروا الصلاة في الحكم بالإسلام لكونها من خصائص المسلمين ولم يعتبروا الحج والصيام مع كونها من الشعائر لاشتراكها وعدم اختصاصها.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ: ﴿مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكُمُ الْمُسْلِمُ، لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ﴾[1]، وغيرها من الأحاديث في هذا الباب.

ومما يؤيد هذا الأصل ويستدل به في الباب: الشروط العمرية على أهل الذمة في دار الإسلام للتمييز بينهم وبين المسلمين لئلا تجري عليهم أحكام المسلمين، لأنهم إذا تُركوا اختلطوا بالمسلمين ووقع الاشتباه فألزموا بالغِيار، وجاء في الشروط :"وَأَنْ نُلْزِمَ زِيَّنَا حَيْثُمَا كُنَّا وَأَلَّا نَتَشَبَّهَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي لُبْسِ

" **وَخالف الْمَالِكِيَّةُ وَبَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ** فقالو: لاَ يُحْكَمُ بِإِسْلاَمِ الْكَافِرِ بِمُجَرَّدِ صَلاَتِهِ، **لأَنَّ الصَّلاَةَ مِنْ فُرُوعِ الإِسْلاَمِ،** فَلَمْ يَصِرْ مُسْلِمًا بِفِعْلِهَا، كَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ، وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِل النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُول اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا" الدسوقي على الشرح الكبير ١ / ٣٢٥.

"وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ فِي الْكَافِرِ يُوجَدُ عِنْدَ الدَّرْبِ فَيَقُولُ: جِئْتُ مُسْتَأْمِنًا أَطْلُبُ الْأَمَانَ: هَذِهِ أُمُورٌ مُشْكِلَةٌ، وَأَرَى أَنْ يُرَدَّ إلَى مَأْمَنِهِ، وَلَا يُحْكَمُ لَهُ بِحُكْمِ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّ الْكُفْرَ قَدْ ثَبَتَ لَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاعْتِقَادَ الْفَاسِدَ الَّذِي كَانَ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ الْفَاسِدُ قَدْ تَبَدَّلَ بِاعْتِقَادٍ صَحِيحٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ الصَّحِيحُ، **وَلَا يَكْفِي فِيهِ أَنْ يَقُولَ: أَنَا مُسْلِمٌ، وَلَا أَنَا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَنْ يُصَلِّيَ** حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ الْعَاصِمَةِ الَّتِي عَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ الْحُكْمَ بِهَا عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: «أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». فَإِنْ صَلَّى أَوْ فَعَلَ فِعْلًا مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ وَهِيَ: الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ عُلَمَاؤُنَا، وَتَبَايَنَتْ الْفِرَقُ فِي إسْلَامِهِ، وَقَدْ حَرَّرْنَاهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ. وَنَرَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا بِذَلِكَ، ـ إلي أن قال ـ وَهِيَ: وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي قَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يُكَلَّفُ الْكَلِمَةَ، فَإِنْ قَالَهَا تَحَقَّقَ رَشَادُهُ، وَإِنْ أَبِي تَبَيَّنَ عِنَادُهُ وَقُتِلَ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: {فَتَبَيَّنُوا} [النساء: ٩٤] أَيْ الْأَمْرَ الْمُشْكِلَ، أَوْ تَثَبَّتُوا وَلَا تَعْجَلُوا، الْمَعْنَيَانِ سَوَاءٌ؟ فَإِنْ قَتَلَهُ أَحَدٌ فَقَدْ أَتَى مَنْهِيًّا عَنْهُ، لَا يَبْلُغ فِدْيَةً وَلَا كَفَّارَةً وَلَا قِصَاصًا" أحكام القرآن لابن عربي ٦٠٧/١.

وورد في الآثار أنَّ في آخر الزمان يصلي أقوام لا خلاق لهم فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ ، قَالَ: «تَذْهَبُ السُّنَّةُ سُنَّةً كَمَا يَذْهَبُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً وَآخِرُ الدِّينِ الصَّلَاةُ وَلَيُصَلِّيَنَّ قَوْمٌ وَلَا خَلَاقَ لَهُمْ» البدع والنهي عنها ١٢٨/٢

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ إِلَّا لَحِقَ بِالشَّامِ، وَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْتَمِعُونَ فِي الْمَسَاجِدِ لَيْسَ فِيهِمْ مُؤْمِنٌ» السنة للخَلَّال برقم ١٣٠٨ ، ويستأنس بها على أن الصلاة تصير في آخر الزمان شعيرة مشتركة.

والدلالة إذا اشتركت تفرَّغت عن الاختصاص والتمييز فلا اعتبار لها وهذا متقرر عند الفقهاء قَال ابْنُ نُجَيْمٍ: "الأَصْل أَنَّ الْكَافِرَ مَتَى فَعَل عِبَادَةً فَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي سَائِرِ الأَدْيَانِ لاَ يَكُونُ بِهَا مُسْلِمًا، كَالصَّلاَةِ مُنْفَرِدًا، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ الَّذِي لَيْسَ بِكَامِلٍ، وَالصَّدَقَةِ، وَمَتَى فَعَل مَا اخْتَصَّ بِشَرْعِنَا، وَلَوْ مِنَ الْوَسَائِل كَالتَّيَمُّمِ. وَكَذَلِكَ مَا كَانَ مِنَ الْمَقَاصِدِ أَوْ مِنَ الشَّعَائِرِ، كَالصَّلاَةِ بِجَمَاعَةٍ وَالْحَجِّ الْكَامِل وَالأَذَانِ فِي الْمَسْجِدِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، يَكُونُ بِهِ مُسْلِمًا، وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي الْمُحِيطِ وَغَيْرِهِ" الدر المختار ١ / ٧٣٦٤، ٣ / ٣٩٠، والمغني ٢ / ٢٠١.

[1] رواه ابن أبي شيبة برقم ٣٢٦٣٤ واللفظ له وأصله في البخاري برقم ٣٩١ وقوله: (أكل ذبيحتنا) تنويه باليهود الذين لا يأكلون ذبيحة المسلمين.

قَلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ وَلَا فِي مَرَاكِبِهِمْ" قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرِيُّ فِي سِيَاقِ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ اسْتِعْمَالِ الْغِيَارِ لِأَهْلِ الْمِلَلِ الَّذِينَ خَالَفُوا شَرِيعَتَهُ صَغَارًا وَذُلًّا وَشُهْرَةً وَعَلَمًا عَلَيْهِمْ؛ لِيُعْرَفُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي زِيِّهِمْ وَلِبَاسِهِمْ وَلَا يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ: " وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى الْأَمْصَارِ أَنْ تُجَزَّ نَوَاصِيَهُمْ، وَأَلَّا يَلْبَسُوا لُبْسَةَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُعْرَفُوا "[1].

ووجه إيراد المسألة هنا هو بيان أن الأصل في دار الإسلام هو الإسلام، لذلك احتاج عمر رضي الله عنه إلى التميز بين أهل الذمة والمسلمين، وكذلك فيها بيان أنَّ الظاهر المعتبر لأهل الذمة في دار الإسلام هو **المغايرة** في اللباس والمركب وإلزامهم بذلك ونهيهم عن الاشتراك مع المسلمين في زي أو مركب أو خصيصة لئلا تجري عليهم أحكام المسلمين خطأً لعدم التمييز، فدلَّ على أن الظاهر المعتبر للقلة المخالفة لدين القوم هو ما تظهر به المخالفة ولا يكون فيه اشتراك، وهذا كأصل في الباب أن: **الظاهر المعتبر في قوم هو ما تتحقق به المغايرة لهم.**

ننتقل إلى واقع آخر: بعد وفاة النبي ﷺ وارتداد العرب، ففي مثل هذا الواقع ما هو الظاهر الذي اعتبره الصحابة للحكم بإسلام العين في هذه الدور الممتنعة؟ وبصيغة أخرى: ما هو الظاهر المعتبر للحكم بالإسلام على القلة المستخفية بإيمانها في دار الحرب؟ هل هو إظهار الشعائر كالأذان والصلاة والحجاب وغيرها، أو إظهار خلاف ما أظهره القوم من كفر وشرك والبراءة مما أحدثوه من ذلك كما أظهرت القلة المؤمنة من الرسل وأتباعهم خلاف ما أظهره الأقوام الكافرة من الشرك والكفر وكان ذلك قبل نزول الشرائع؟ وهذا هو محل النزاع:

فنقول أنَّه إذا تعارض إظهار الشعائر مع ظهور الشرك وعلو أحكامه ومشاهده، والامتناع عن بعض الشرائع فضلاً عن تبديل الشريعة وإماتتها،

[1] أحكام اهل الذمة ٣/١٢٣٦

يقدم الأخير الذي هو الظاهر الأقوى ولا اعتبار للشعائر المشتركة في هذه الصورة لعدم الاختصاص، ويدل عليه الكتاب والسنة والإجماع.

المطلب الأول: الأدلة على أن الظاهر المعتبر في دور الكفر هو إظهار مخالفة ما عليه القوم من كفر وشرك

والدليل القطعي من كتاب الله على أن الظاهر المعتبر في دور الكفر هو إظهار مخالفة ما عليه القوم من كفر وشرك: هو الظاهر الذي أتت به القلة المؤمنة من الرسل وأتباعهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [يونس ٧٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [هود٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس١٠٦].

وقـــــال تعـــــالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف ١٤]، وغيـر ذلـك مـن الآيـات فـي قصـص الأنبياء وعباده الصالحين.

فمـن أظهـر المخالفـة لـدين قومـه في مثـل هـذه الـديار وبـين هـؤلاء الأقـوام يُحكـم لـه بالإسـلام، أمـا مـن كـان مسـتخفياً بدينـه فيجـري عليـه مـا يجـري على الكثرة لعدم إظهاره للظاهر الذي يتعلق به الحكم.

والـدليل مـن السـنة: حـديث معاويـة بـن الحكـم السـلمي قـال:﴿ قلـتُ يـا رسـولَ اللـهِ إنـه كانـت لي جاريـةٌ تَرْعَـى قِبَـلَ أُحُـدٍ والجَوَّانِيَّـةِ وإنـي أطَّلِعُهـا يومًـا إطِّلاعـةً فوجـدتُ الـذئبَ قـد ذهـب منها بشـاةٍ وأنَـا مـن بني آدمَ آسَـفُ لِما يأسـفونَ فَصَـكَكْتُها صَـكًّا فعَظُـم ذلـك على النبيِّ قـال قلـتُ يـا رسـولَ اللـهِ أَعتِقُهـا قـال: ادعُهـا إليَّ فقـال لهـا أيـن اللـهُ؟ قالـت: في السـماءِ قـال: ومـن أنَـا، قالـت: رسـولُ اللـهِ قال: اعتِقْها فإنها مؤمنةٌ﴾[١].

وفي وجـه الدلالـة نقـول أنَّ الأصـل في الرقيـق الكفـر حتى يثبـت خـلاف ذلـك بأمـارات الإيمـان ومخالفـة الكفـر الـذي اشـتهر بـه قـومهم وكـان سـبباً في رقهـم، قـال الشـنقيطي. " وسـبب الملـك بـالرق: هـو الكفـر، ومحاربـة اللـه ورسـوله ﷺ"[٢].

وقَـالَ أَبُـو سَـعِيدٍ الـدارمي: "أَلَا تَـرَى أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ جَعَـلَ أَمَـارَةَ إِيمَانِـهَا مَعْـرِفَتَـهَا أَنَّ اللَّـهَ فِي السَّـمَاءِ؟"[٣]، والامتحـان دليـل علـى أن الأصـل في مـن امـتُحن على الإيمـان أنـه فاقـد لـه كمـا سـبق معنـا في المهـاجرات مـن دار الكفـر إلـى دار الإسـلام فـي قولـه: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ

[١] رواه مسلم برقم: ١١٩٩

[٢] أضواء البيان (٣/٣٨٧)

[٣] الرد على الجهمية للدارمي، صفحة ٤٦

بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾[الممتحنة:١٠]، والنبي ﷺ امتحن الجارية بمسائل من أصل الإيمان وجعل أمارة إيمانها معرفتها أن الله في السماء، ولم يمتحنها بما يُبنى عليه الدين من الشرائع، فلم يقل لها هل تشهدين الصلاة ونحو ذلك، لأن الأصل في الرقيق الشرك والكفر والمخالفة لأصل الدين، وعليه فالحكم بإسلام من استفاض عنهم الكفر قوماً كانوا أو طائفة أو فرداً لا يكون إلا بالإتيان بأصل الإيمان الذي عُلم أنّ كُفرهم مُتفرّع عنه والتصريح به، وفي هذا تفنيد للذين جعلوا الشعائر دليلاً على صحّة أصل الإيمان أو احتمال صحّته في قوم عُلم منهم يقينا على وجه الإستفاضة جهلهم به و نقضهم للشهادتين، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: "فَفِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي السَّمَاءِ دُونَ الْأَرْضِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا فَأُعْتِقَ لَمْ يَجُزْ فِي رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، إِذْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ. **أَلَا تَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ أَمَارَةَ إِيمَانِهَا مَعْرِفَتَهَا أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ**؟"[١]، وقال:" فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ عَرْشِهِ، فَوْقَ سَمَوَاتِهِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْ إِلَهَهُ الَّذِي يَعْبُدُ"[٢].

والدليل من الإجماع: هو إجماع الصحابة في دور الردة بعد وفاة النبي ﷺ حيث أنهم لم يعتبروا شهادة أن لا إله إلا الله والصلاة والصيام والآذان وغيرها من الشعائر في هذه الدور، ونفس الدليل الذي يَستدل به من يحكم بالشعائر استدل به أبي بكر على عدم اعتبار الشعائر في مثل هذه الدور وأجرى عليهم أحكام الكفار، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا شَهِدُوا **وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا**، فَقَدْ

[١] الرد على الجهمية للدارمي، صفحة ٤٦

[٢] الرد على الجهمية للدارمي، صفحة ٤٦

حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ **إِلَّا بِحَقِّهَا** لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ ﴾[1].

فقد استدل أبو بكر بقوله "إِلَّا بِحَقِّهَا" فقال: «وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ **فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ** وَاللَّهِ إِنْ مَنَعُونِي عِقَالا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَوَ اللَّهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»[2].

ومن يقول أنَّ قومنا أهل قبلة ولا يصح تكفيرهم، فنقول أنَّ أهل القبلة ليس فيهم مشركين ولا طواغيت، وكيف يكون قومنا أهل قبلة وهم غارقين في الشرك والكفر، فعن وَهْبٍ يَعْنِي ابْنَ مُنَبِّهٍ قَالَ:« سَأَلْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَلْ فِي الْمُصَلِّينَ مِنْ طَوَاغِيتَ؟ قَالَ:« لَا، وَسَأَلْتُهُ هَلْ فِيهِمْ مُشْرِكٌ؟ قَالَ: لَا»[3].

والذي استقر عليه إجماع الصحابة: التكفير والقتال وعدم اعتبار ظاهر الشهادة والشعائر في مثل هذه الدور، وحكى الإجماع أبو عبيد القاسم بن سلام في سياق استدلاله أن العمل ركن في الإيمان فقال: " وَالْمُصَدِّقُ لِهَذَا جِهَادُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى مَنْعِ الْعَرَبِ الزَّكَاةَ كَجِهَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الشِّرْكِ سَوَاءً، لَا فَرْقَ بَيْنَهَا فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ، وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ، وَاغْتِنَامِ الْمَالِ، فَإِنَّمَا كَانُوا مَانِعِينَ لَهَا غَيْرَ جَاحِدِينَ بِهَا"[4].

وقال الجصاص:" وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ - ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾- دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ أَوَامِرِ رَسُولِهِ ﷺ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْإِسْلَامِ سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ فِيهِ أَوْ مِنْ جِهَةِ تَرْكِ الْقَبُولِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ التَّسْلِيمِ **وَذَلِكَ يُوجِبُ صِحَّةَ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ**

---

[1] رواه أحمد برقم ١٣٠٥٦ وإسناده صحيح.

[2] رواه البخاري برقم ١٤٠٠ ومسلم برقم ٢٠

[3] المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية برقم ٢٩٩٧

[4] الايمان ١٧/١

الصَّحَابَةُ فِي حُكْمِهِمْ بِارْتِدَادِ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَتْلِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَضَاءَهُ وَحُكْمَهُ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ"[١].

فقد كان مانعي الزكاة مظهرين للشعائر ممتنعين من إقامة الشرائع فقال أبو بكر رضي الله عنه: «وَأَمَّا مَنِ ارْتَدَّتْ مِنْ هَؤُلاءِ الْعَرَبِ، فَمِنْهُمْ مَنْ لا يُصَلِّي وَقَدْ كَفَرَ بِالصَّلاةِ، **وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّي وَقَدْ مَنَعَ الزَّكَاةَ**، وَلا وَاللَّهِ يَا أَبَا حَفْصٍ مَا أُفَرِّقُ بَيْنَ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ لأَنَّهُمَا مَقْرُونَتَانِ»[٢]، فأجرى عليهم الصحابة أحكام الكفر ولم يعتبروا بالشعائر وجاهدهم أبو بكر بالمه

اجرين والأنصار أي بجميعهم، قال في مختصر السيرة:" ولم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا خرج"[٣]. **فكان إجماعاً** على عدم اعتبار الشعائر الظاهرة في هذه الدور عند استعلان الكفر والشرك والامتناع عن أداء الشرائع، فالشعائر في مثل هذه الدور لا تقوى على إثبات الإسلام لتخلف الأصل الذي تُصحَحُ به الأعمال، كحال دار بني حنيفة التي آمنت بمسيلمة الكذاب رسولاً بعد محمد ﷺ فأسقط عنهم الزكاة، ولكنهم ما زالوا يصلون ويصومون، فهل الشعائر صححت لهم إسلاماً؟ .. قطعاً لا.

وممن حكى الإجماع من المتأخرين ابن تيمية حيث قال:" وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ بَعْدَهُمْ عَلَى قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَإِنْ كَانُوا يُصَلُّونَ الْخَمْسَ وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُبْهَةٌ سَائِغَةٌ، فَلِهَذَا كَانُوا مُرْتَدِّينَ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ عَلَى مَنْعِهَا، وَإِنْ أَقَرُّوا بِالْوُجُوبِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ"[٤].

وقال محمد بن عبد الوهاب:" ومن أعظم ما يحل الإشكال في مسألة التكفير والقتال عمن قصد اتباع الحق، **إجماع الصحابة على قتال مانعي الزكاة، وإدخالهم في أهل الردة، وسبي ذراريهم**، وفعلهم فيهم ما صح عنهم، وهو أول قتال وقع في الإسلام على من ادعى أنه من المسلمين. فهذه أول وقعة وقعت في

[١] أحكام القرآن للجصاص ١٨١/١

[٢] الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني ٥١/١

[٣] مختصر السيرة١ /٢٥٧

[٤] الفتاوى الكبرى ٥٤١/٣

الإسلام على هذا النوع، أعني المدعين للإسلام، وهي أوضح الوقعات التي وقعت من العلماء عليهم من عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى وقتنا هذا"[١].

وقال:" الدليل السادس: قصة بني عبيد القداح فإنهم ظهروا على رأس المائة الثالثة. فادعى عبيد الله أنه من آل علي بن أبي طالب من ذرية فاطمة، وتزيا بزي أهل الطاعة والجهاد في سبيل الله، فتبعه أقوام من البربر من أهل المغرب، وصار له دولة كبيرة في المغرب ولأولاده من بعده، ثم ملكوا مصر والشام، وأظهروا شرائع الإسلام وإقامة الجمعة والجماعة. ونصبوا القضاة والمفتين. لكن أظهروا الشرك ومخالفة الشريعة، وظهر منهم ما يدل على نفاقهم وشدة كفرهم. **فأجمع أهل العلم: أنهم كفار، وأن دارهم دار حرب، مع إظهارهم شعائر الإسلام**، وفي مصر من العلماء والعباد أناس كثير، وأكثر أهل مصر لم يدخل معهم فيما أحدثوا من الكفر، ومع ذلك أجمع العلماء على ما ذكرناه، حتى إن بعض أكابر أهل العلم المعروفين بالصلاح قال لو أن معي عشرة أسهم لرميت بواحد منها النصارى المحاربين. ورميت بالتسعة بني عبيد"[٢].

وقال: **"وأجمع العلماء كلهم** على كفر المختار - مع إقامته شعائر الإسلام - لما جنى على النبوة"[٣].

وقال أبو محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبّان: "وكان أبو محمد شديد التنقيص لهم والتنفير عنهم ـ بني عبيد ـ قال بعض أصحابه: كنت معه يوماً بالمنستير، وكان يوم عاشوراء، فلما رأى بكى، فقيل له ما يبكيك؟ فقال والله ما أخشى عليهم من الذنوب، لأن مولاهم كريم، **وإنما أخشى أن يشكّوا في كفر بني عبيد، فيدخلوا النار**"[٤].

وحكى الإجماع حمد بن عتيق في جوابه لمن ناظره في حكم أهل مكّة وما يقال في البلد نفسه فقال:

---

[١] مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد ١م٣٠٣

[٢] مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ٥١/١

[٣] نفس المصدر

[٤] ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٢٥٢/٦

"وأمّا إذا كان الشّرك فاشياً، مثل: دعاء الكعبة والمقام والحطيم، ودعاء الأنبياء والصّالحين، وإفشاء توابع الشّرك، مثل: الزّنا والرّبا وأنواع الظّلم، ونبذ السّنن وراء الظّهر، وفشو البدع والضّلالات، وصار التّحاكم إلى الأئمّة الظّلمة ونواب المشركين، وصارت الدّعوة إلى غير القرآن والسّنة، وصار هذا معلوماً في أيّ بلد كان، فلا يشكّ من له أدنى علم أنّ هذه البلاد محكوم عليها بأنّها بلاد كفر وشرك، لا سيّما إذا كانوا معادين أهل التّوحيد، وساعين في إزالة دينهم، وفي تخريب بلاد الإسلام، وإذا أردت إقامة الدّليل على ذلك وجدت القرآن كلّه فيه، **وقد أجمع عليه العلماء، فهو معلوم بالضّرورة عند كلّ عالم**"[1].

الآثار وفهم الصحابة الأخيار:

ومما يستأنس به في الاستدلال في أن الظاهر المعتبر في الدور التي طرأت عليها الردة والكفر هو خلاف ما أظهره القوم وصاروا إليه من كفر سواء من الشرك في الألوهية أو الحاكمية أو النبوة أو غيرها ما يلي:

❁ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ:« ارْتَدَّ عَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ، فَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ فَقَالَتْ: إِنْ كَانَ عَلْقَمَةُ كَفَرَ، فَإِنِّي لَمْ أَكْفُرْ أَنَا وَلَا وَلَدِي ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلشَّعْبِيِّ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِهِمْ، يَعْنِي بِأَهْلِ الرِّدَّةِ»[2]، فظاهر الرواية أن أبو بكر ألحق الذراري بأهل الردة إلا من ثبت إسلامه بالبراءة مما وقع فيه أهل الردة من كفر.

❁ ومثله ما روي عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ ، قَالَ:« أَخَذَ بِالْكُوفَةِ رِجَالٌ يُفْشُونَ حَدِيثَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، فَكَتَبَ فِيهِمْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَكَتَبَ عُثْمَانُ أَنِ اعْرِضْ عَلَيْهِمْ دِينَ الْحَقِّ وَشَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَمَنْ قَبِلَهَا وَتَبَرَّأَ مِنْ مُسَيْلِمَةَ فَلَا تَقْتُلْهُ وَمَنْ لَزِمَ دِينَ

[1] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٩/٢٦١

[2] مصنف بن أبي شيبة برقم ٣٢٧٣٢

مُسَـيْلِمَةَ فَاقْتُلْـهُ، فَقَبِلَهَـا رِجَـالٌ مِـنْهُمْ فَتُرِكُـوا وَلَـزِمَ دِيـنَ مُسَـيْلِمَةَ رِجَـالٌ فَقُتِلُـوا»[١]،

قـال محمـد ابـن عبـد الوهـاب:" **واذكـر إجمـاع الصحابة على قتـل أهـل مسجد الكوفـة، وكفـرهم وردتهـم**، لمـا قـالوا كلمـة في تقريـر نبـوة مسـيلمة، ولكـن الصحابة اختلفـوا في قبـول تـوبتهم لمـا تـابوا، والمسـألة في صحيح البخـاري وشرحه، في الكفالة."[٢].

❁ ومنهـا قصـة خالـد مـع مالـك بـن نـويرة قـال محمـد بـن سـلّام:« وَتقـول بَنـو تَمِـيم إِنَّـه لمـا هجـم عَلَـيْهِم خَالِـد قَـالَ مـن أَنْـتُم قَـالُوا الْمُسـلمُونَ قَـالَ وَنحـن الْمُسـلمُونَ فَمَـا بَـال السِّـلَاح قَـالُوا ذعرتمونـا قَـالَ فضـعوا السِّـلَاح، والمجتمـع عَلَيْهِ أَن خَالِدا حاوره وراده وَأَن مَالِكًا سمح بِالصَّلَاةِ والتوى بِالزَّكَاةِ.

فَقَـالَ خَالِـد: أمـا علمـت أَن الصَّـلَاة وَالزَّكَـاة مَعًـا لَا تقبـل وَاحِـدَة دون الْأُخْـرَى؟ قَـالَ قـد كَـانَ يَقُـول ذَلِـك صَـاحبكُم، قَـالَ: وَمَـا تـرَاهُ لَـك صـاحبا وَاللـه لقـد هَمَمْـت أَن أضْـرب عُنُقـك، ثـمَّ تحـاولا فَقَـالَ لَـهُ خَالِـد إِنـي قَاتلـك، قَـال: وبـذا أَمـرك صَـاحبك قَالَ وَهَذِه بعد وَالله لَا أقيلك"[٣].

وقـال الواقـدي: " قَـالَ: ثُـمَّ قَـدَّمَ خَالِـدٌ مَالِـكَ بْـنَ نُـوَيْرَةَ لِيَضْـرِبَ عُنُقَـهُ، فَقَـالَ مَالِـكٌ: أَتَقْتُلُنِي وَأَنَـا مُسْـلِمٌ أُصَـلِّي الْقِبْلَـةَ، فَقَـالَ لَـهُ خَالِـدٌ: لَـوْ كُنْـتَ مُسْـلِمًا لَمَـا مَنَعْـتَ الزَّكَـاةَ وَلا أَمَـرْتَ قَوْمَـكَ بِمَنْعِهَـا، وَاللَّـهِ لَمَـا قِلْـتَ بِمَـا فِي مَنَامِـكَ حَتَّـى أَقْتُلَكَ"[٤].

❁ ومنهـا قصـة مجاعـة مـع خالـد ابـن الوليـد: قـال الواقـدي: "وَسَـارَ خَالِـدٌ بِمَـنْ مَعَـهُ مِـنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنْصَـارِ، حَتَّى إِذَا تَقَـارَبَ مِـنْ أَرْضِ الْيَمَامَـةِ نَـزَلَ إِلَى جَنْـبِ وَادٍ مِـنْ أَوْدِيَتِهَـا، ثُـمَّ بَعَـثَ بِجَمَاعَـةٍ مِـنْ أَصْحَابِهِ يَزِيـدُونَ عَلَى مِـائَتَيْ فَـارِسٍ، وَقَـالَ لَهُـمْ: سِـيرُوا فِي هَـذِهِ الْـبِلادِ فَـأْتُونِي بِكُـلِّ مَـنْ قَـدَرْتُمْ عَلَيْـهِ، فَسَـارُوا فَـإِذَا هُـمْ بِرَجُـلٍ

---

[١] شرح معاني الآثار برقم ٥١٠٦

[٢] الدرر السنية ٦٨/١٠

[٣] طبقات فحول الشعراء ٢٠٧/١

[٤] كتاب الردة ١٠٧/١

مِنْ أَشْرَافِ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ مُجَّاعَةُ بْنُ مُرَارَةَ وَمَعَهُ ثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ رَجُلا مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ. قَالَ: فَدَنَا منهم المسلمون، قَالُوا: "مَنْ أَنْتُمْ"، قَالُوا: "نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ" ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: "فَلا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكُمْ عَيْنًا يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ" ، ثُمَّ أَحَاطُوا بِهِمْ فَأَخَذُوهُمْ، وَجَاءُوا بِهِمْ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، حَتَّى أَوْقَفُوهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ خَالِدٌ: "يَا بَنِي حَنِيفَةَ، مَا تَقُولُونَ فِي صَاحِبِكُمْ مُسَيْلِمَةَ" ، فَقَالُوا: "نَقُولُ إِنَّهُ شَرِيكُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي نُبُوَّتِهِ"، فَقَالَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ سَارِيَةُ بْنُ عَامِرٍ: "يَا أَبَا سُلَيْمَانَ، وَلَكِنِّي لا أَقُولُ ذَلِكَ"، قَالَ خَالِدٌ: "يَا مُجَّاعَةُ، مَا تَقُولُ فِيمَا يَقُولُ أَصْحَابُكَ هَؤُلاءِ"، فَقَالَ مُجَّاعَةُ: "أَقُولُ إِنِّي قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ وبها رسول الله ﷺ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُهُ أَنا وَصَاحِبِي هَذَا سَارِيَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَلا وَاللَّهِ مَا غَيَّرْنَا وَلا بَدَّلْنَا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَنَا بُدٌّ مِنْ مُدَارَاةِ مُسَيْلِمَةَ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلادِنَا" . قَالَ: فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: "فَاعْتَزِلْ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ هَذَا نَاحِيَةً مِنْ هَؤُلاءِ الْكُفَّارِ"، ثم قدم خالد بقية القوم فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ صَبْرًا، ثُمَّ عَمِدَ إِلَى مُجَّاعَةَ، فَقَالَ مُجَّاعَةُ: "أَيُّهَا الأَمِيرُ، إِنِّي لَمْ أَزَلْ مُسْلِمًا، وَأَنَا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ أَمْسِ، وَقَدْ رَأَيْتُكَ عَجِلْتَ عَلَى هَؤُلاءِ الْقَوْمِ بِالْقَتْلِ، وَأَنَا وَاللَّهِ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِي مِنْكَ، وَلَكِنْ أَيُّهَا الأَمِيرُ إِنْ كَانَ رَجُلٌ كَذَّابٌ خَرَجَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَادَّعَى مَا ادَّعَى، فَلَيْسَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ الْبَرِيءَ بِأَمْرِ السَّقِيمِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الإسراء١٥] أُخرى قَالَ خَالِدٌ: فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمَا، وَلَكِنْ أَقِيمَا فِي عَسْكَرِي وَلا تَبْرَحَا حَتَّى أَنْظُرَ عَلَى مَا يَنْصَرِمُ أَمْرِي وَأَمْرُ بَنِي حَنِيفَةَ"[١].

وفي الاكتفاء:" فقال خالد: **يا مجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس، وكان رضاك بأمر هذا الكذاب، وسكوتك عنه و أنت أعز أهل اليمامة، وقد بلغك مسيري، إقرارا له، ورضى بما جاء به**، فهلا أبليت عذرا، فتكلمت فيمن تكلم، فقد تكلم ثمامة بن أثال فرد وأنكر، وقد تكلم اليشكري، فإن قلت أخاف قومي، فهلا عمدت إليّ تريد لقائي، أو كتبت إليّ كتابا أو بعثت إليّ رسولا، وأنت

[١] الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني ١١٩/١

تعلم أنى قد أوقعت بأهل بزاخة، وزحفت بالجيوش إليك. فقال مجاعة: إن رأيت يا ابن المغيرة أن تعفو عن هذا كله فعلت. فقال خالد: قد عفوت عن دمك، ولكن في نفسي من تركك حوجا بعد، فقال مجاعة: أما إذا عفوت عن دمى فلا أبالي"[١].

قال حمد بن عتيق: "وليس المراد بإظهار الدين: أن يُترك الإنسان يصلي ولا يقال له اعبد الأوثان! فإن اليهود والنصارى لا ينهون من صلى في بلدانهم ولا يكرهون الناس على أن يعبدون الأوثان؟! بل المقصود: أن إظهار الدين هو: التصريح للكفار بالعداوة كما احتج خالد بن الوليد على مجاعة بأنه سكت ولم يظهر البراءة كما أظهرها ثمامة واليشكري، والقصة معروفة في السير، فما لم يحصل التصريح للمشركين بالبراءة منهم ومن دينهم لم يكن إظهار الدين حاصلاً"[٢].

❁ومما يُستأنس به من الآثار في واقعة الردة ما روي في تاريخ الإسلام: " عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ بُزَاخَةَ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ، خَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِّيَةٍ أَوْ حِطَّةٍ مُخْزِيَةٍ، فَقَالُوا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَمَّا الْحَرْبُ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا الْحِطَّةُ الْمُخْزِيَةُ؟ قَالَ: تُؤْخَذُ مِنْكُمُ الْحَلْقَةُ وَالْكُرَاعُ وَتُتْرَكُونَ أَقْوَامًا تَتْبَعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ، وَتُؤَدُّونَ مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا وَلَا نُؤَدِّي مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ، **وتَشْهَدُونَ أَنَّ قتلانا في الجنّة وأن قتلاكم فِي النَّارِ**، وَتَدُونَ قَتْلَانَا وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَّا قَوْلُكَ «تَدُونَ قَتْلَانَا» فَإِنَّ قَتْلَانَا قُتِلُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا دِيَاتَ لَهُمْ. فَاتُّبِعَ عُمَرُ، وَقَالَ عُمَرُ فِي الْبَاقِي: نِعْمَ مَا رَأَيْتَ"[٣].

❁ وأخرج الطحاوي في مشكل الآثار بسنده إلى سَلَمَةَ بْنِ نُعَيْمٍ قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ، فَلَمَّا شَدَدْنَا عَلَى الْقَوْمِ جَرَحْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا وَقَعَ قَالَ: **اللهُمَّ عَلَى مِلَّتِكَ، وَمِلَّةِ رَسُولِكَ، وَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا عَلَيْهِ**

---

[١] الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء ١٢٠/٢

[٢] الدفاع (ص١٦)

[٣] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ٣٢/٣

مُسَيْلِمَةُ، فَعَقَدْتُ فِي رِجْلِهِ خَيْطًا، وَمَضَيْتُ مَعَ الْقَوْمِ، فَلَمَّا رَجَعْتُ نَادَيْتُ: مَنْ يَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ؟ فَمَرَّ بِي أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالُوا: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ زَمَنَ عُمَرَ، فَحَدَّثْتُهُ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنْتَ، اذْهَبْ فَإِنَّ عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ الدِّيَةَ، وَعَلَيْكَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ "[١].

❁ ومن الآثار ما نقله ابن كثير قال: "وَقَدْ قُتِلَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ -المضيّح- رَجُلَانِ كَانَا قَدْ أَسْلَمَا وَمَعَهُمَا كِتَابٌ مِنَ الصِّدِّيقِ بِالْأَمَانِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ، وَهُمَا عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ أَبِي رِهْمِ بْنِ قِرْوَاشٍ، قَتَلَهُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ، وَالْآخَرُ لَبِيدُ بْنُ جَرِيرٍ، قَتَلَهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ. فَلَمَّا بَلَغَ خَبَرُهُمَا الصِّدِّيقَ وَدَاهُمَا، وَبَعَثَ بِالْوَصَاةِ بِأَوْلَادِهِمَا، وَتَكَلَّمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي خَالِدٍ بِسَبَبِهِمَا، كَمَا تَكَلَّمَ فِيهِ بِسَبَبِ مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ. فَقَالَ لَهُ الصِّدِّيقُ: **كَذَلِكَ يَلْقَى مَنْ يساكن أَهْلَ الْحَرْبِ فِي دِيَارِهِمْ**، أَيِ الذَّنْبُ لَهُمَا فِي مُجَاوَرَتِهِمَا الْمُشْرِكِينَ، وَهَذَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ ﴿أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مَنْ سَاكَنَ الْمُشْرِكَ في داره﴾ وفي الحديث الآخر ﴿لا ترى نَارُهُمَا﴾ أَيْ لَا يَجْتَمِعُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي مَحَلَّةٍ وَاحِدَةٍ"[٢].

❁ "ووقع في كتاب المتفق والمختلف: أن مذهب الإمام مالك أن أمارات الكفر إذا ظهرت في بلاد يصير حكمها حكم دار الحرب، وقد سبق أن هؤلاء الكفرة جعلوا أمارات الكفر شعارا فيما بينهم، ونحن تنزلنا إلى أنهم في دراهم كالكفرة الأصلية **حكما بلا خلاف**، ومن خرج من بلادهم إلى بلادنا فلا بد من بيان حاله، فإن صدر عنه ما يكفر به أجرينا مقتضى كفره، أو لا فلا.

فإن قلت يحتمل أن يكون بينهم من المسلمين رجالا أو يكون في أيديهم من أموالهم شيئا؟ قلت: لا فرق بينهم وبين سائر الحربيين في ذلك الاحتمال.

فإن قلت: يتلفظون بالشهادتين، قلت: لا بد مع ذلك من استبرائهم عما كفروا به كما قرره جمهور الفقهاء. والحال أنهم لا يستبرؤون عما كفروا به ولو

---

[١] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ٣/٣٢

[٢] البداية والنهاية ٦/٣٥١

قطعوا إربا إربا، على أنهم بمثابة الزنادقة كما سبق نقلاً عن أبي زرعة الرازي"[١].

وخلاصة القول أن من ينزل حديث: "مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا"[٢] على هذا واقع الناس اليوم فقد أعظم الفرية على الله عزَّ وجل، وخالف إجماع الصحابة وحاد عن فهم السلف واتبع غير سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء١١٥].

المطلب الثاني: سنة التبيُّن

المتقرر عند السلف أن من انتسب إلى الإسلام ثم أظهر الكفر بالله تعالى، لا يقبل منه إلا الرجوع من الباب الذي خرج منه سواءً كان فرداً أو قوماً، وإن كنا عند ظهور بعض العلامات والأمارات ـ وإن لم ترتق إلى كونها دلالة ظاهرة تُدَافِعُ الأصل ـ في بعض الأحوال كالضرب في الأرض بالجهاد في سبيل الله نستصحب حكم الكفر ونتبين منه عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[النساء٩٤]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمِقْدَادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ، فَأَظْهَرَ إِيمَانَهُ فقتلته، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ»[٣].

---

[١] مختصر اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ١/ ٢٠

[٢] رواه ابن أبي شيبة برقم ٣٢٦٣٤ واللفظ له وأصله في البخاري برقم ٣٩١ وقوله: (أكل ذبيحتنا) تنويه باليهود الذين لا يأكلون ذبيحة المسلمين. (ذمة) هي الأمن والعهد وذمة الله أمانه وضمانه وقد يراد بها الذمام وهو الحرمة. (تحقروا الله) تغدروا به وتنقضوا عهده

[٣] صحيح البخاري برقم (٦٨٦٦).

وهـذه الصـورة ـ صـورة آيـة النسـاء ـ يكفـي فيهـا النطـق بالشـهادتين أو القـول أنـا مسـلم أو إلقـاء السـلام كمـا جـاء في الروايـات، فهـي مـن شـعار الإسـلام ومـن خصـائص المسـلمين بـين الـوثنيين حينـذاك، حيـث أنَّ عُبَّـاد الأصـنام لـم يكونـوا قـد تكلمـوا بالإسـلام كمـا مـا سـبق بيانـه، وهـو فهـم السـلف كمـا ورد عَـنْ قَتَـادَةَ، فِي قَوْلِـهِ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[النساء: ٩٤] **قَـالَ:« لِأَنَّ تَحِيَّـةَ الْمُسْلِمِينَ السَّلَامُ، بِهَا يَتَعَارَفُونَ، وَيَلْقَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»**[١].

وتُحمـل النصـوص الـواردة في الكـفِّ عـن الإغـارة عنـد سـماع شـعار الإسـلام كالأذان على سـنة التبـيُّن كمـا روى المـروزي بسـنده عَـنْ طَلْحَـةَ بْـنِ عُبَيْـدِ اللَّـهِ بْـنِ عَبْـدِ الـرَّحْمَنِ بْـنِ أَبِـي بَكْـرٍ الصِّـدِّيقِ رَضِـيَ اللَّـهُ عَـنْهُمْ أَنَّ أَبَـا بَكْـرٍ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ كَـانَ مِـنْ عَهْـدِهِ إِلَى جُيُوشِـهِ فِي الـرِّدَّةِ: «إِذَا غَشَـيْتُمْ دَارًا مِـنْ دُورِ الْعَـرَبِ فَسَـمِعْتُمْ أَذَانًـا لِلصَّـلَاةِ فَأَمْسِـكُوا عَـنْ أَهْلِهَـا حَتَّـى تَسْـأَلُوهُمْ مَـا الَّـذِي نَقَمُـوا، وَإِنْ لَـمْ تَسْـمَعُوا أَذَانًـا لِلصَّـلَاةِ فَشُـنُّوا الْغَـارَةَ وَحَرِّقُـوا وَاقْتُلُـوا»[٢]، ولا تعـارض بـين التبـيُّن واستصـحاب حكـم الـدار، لأن الصـحابة حكمـوا بـالردة حُكمـاً عامـاً ولـم يتوقفـوا في الـدور كمـا قَـالَ مُحَمَّـدُ بْـنُ إسـحاق:" ارتـدت الْعَـرَبُ عِنْـدَ وَفَـاةِ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ مَـا خَـلَا أَهْـلُ الْمَسْـجِدَيْنِ، مَكَّـةَ، وَالْمَدِينَـةِ ..... وَقَـالَ الْقَاسِـمُ بْـنُ مُحَمَّـدٍ: اجْتَمَعَـتْ أَسَـدٌ وَغَطَفَـانُ وطيّئ عَلَى طُلَيْحَـةَ الْأَسَـدِيِّ، وَبَعَثُـوا وُفُـودًا إِلَى الْمَدِينَـةِ، فَنَزَلُـوا عَلَى وُجُـوهِ النَّـاسِ فَـأَنْزَلُوهُمْ إِلَّا الْعَبَّـاسَ. فَحَمَلُـوا بِهِـمْ إِلَى أَبِي بَكْـرٍ، عَلَى أَنْ يُقِيمُـوا الصَّلَاةَ وَلَا يُؤْتُـوا الزَّكَاةَ. فَعَـزَمَ اللَّـهُ لِأَبِي بَكْـرٍ عَلَى الْحَـقّ وَقَـالَ: لَـوْ مَنَعُـونِي عِقَـالًا لَجَاهَـدْتُهُمْ، فَـرَدَّهُمْ فَرَجَعُـوا إِلَـى عَشَـائِرِهِمْ، فَـأَخْبَرُوهُمْ بِقِلَّـةِ أَهْـلِ الْمَدِينَـةِ، وَطَمَّعُـوهُمْ فِيهَـا، فَجَعَـلَ أَبُـو بَكْـرٍ الْحَـرَسَ عَلَى أَنْقَـابِ الْمَدِينَـةِ، وَأَلْـزَمَ أَهْـلَ الْمَدِينَـةِ بِحُضُـورِ الْمَسْـجِدِ **وَقَـالَ: إِنَّ الْأَرْضَ كَـافِرَةٌ**، وَقَـدْ رَأَى وَفْـدُهُمْ مِـنْكُمْ قِلَّـةً، وَإِنَّكُـمْ لَا تـدرون لـيلا يـأتون أَمْ نَهَـارًا، وَأَدْنَـاهُمْ مِـنْكُمْ عَلَى بَرِيـدٍ، وَقَـدْ كَـانَ

[١] تاريخ المدينة لابن شبة ٢/ ٤٥٠.

[٢] تعظيم قدر الصلاة ٢/ ٩٢٣

الْقَـوْمُ يُؤَمِّلُـونَ أَنْ نَقْبَـلَ مِـنْهُمْ وَنُـوَادِعَهُمْ وَقَـدْ أَبَيْنَـا عَلَـيْهِمْ، فَاسْـتَعِدُّوا وَأَعِـدُّوا فَمَـا لَبِثُوا إِلَّا ثَلَاثًا حَتَّى طَرَقُوا الْمَدِينَةَ غَارَةً"[1].

وأوصـى أبـو بكـر الجيـوش بـالكفِّ عـن القتـال إذا سـمعوا الأذان، وأن لا يُغيروا حتى يتبيَّنـوا مـن أهلها مـا نقمـوا على الإسـلام والمسـلمين ولأي شـيء منعـوا الزكـاة وارتـدوا عـن ديـن اللـه لعلهـم يرجعـون إذا رأوا جيـوش الإسـلام، فيكفـيهم اللـه مُؤنـة قتـالهم برجـوعهم إلى الإسـلام مـن البـاب الـذي خرجـوا منـه، وهـذه مـن سياسـة أبـي بكـر الحكيمـة في قتالـه لأهـل الـردة، ولـيس الأذان يُصحِحُ لهـم إسـلامهم!! فلـم يكـن يرضـى مـنهم أبـو بكـر والمسـلمون إلا الرجـوع مـن البـاب الـذي خرجـوا منـه، ولـم يرضـوا مـنهم إلا أداء شـرائع اللـه كاملـة كمـا روى المـروزي بسـنده إلى حَنْظَلَـةَ بْـنِ عَلِي بْـنِ الْأَسْـقَعِ الْأَسْـلَمِيِّ، أَنَّ أَبَـا بَكْـرٍ الصِّـدِّيقَ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ بَعَـثَ خَالِـدَ بْـنَ الْوَلِيـدِ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ وَأَمَـرَهُ أَنْ يُقَاتِـلَ النَّـاسَ عَلَـى خَمْـسٍ قَـالَ:« **وَمَـنْ تَـرَكَ وَاحِـدَةً مِـنَ الْخَمْـسِ** فَقَاتِلْـهُ كَمَـا تُقَاتِـلُ مَـنْ تَـرَكَ الْخَمْـسَ: شَـهَادَةُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ وَأَنَّ مُحَمَّـدًا رَسُـولُ اللَّـهِ، وَإِقَـامُ الصَّـلَاةِ، وَإِيتَـاءُ الزَّكَـاةِ، وَصَـوْمُ رَمَضَـانَ»[2]، وعـن عبـد اللـه بـن الأهـتم أنـه قـال لعمـر بـن عبـد العزيـز: «إن أبـا بكـر قـام بعـد رسـول اللـه ﷺ فـدعا إلى سـنته ومضـى على سـبيله فارتـدت العـرب، أو مـن ارتـد مـنهم **فعرضـوا أن يقيمـوا الصـلاة ولا يؤتـوا الزكـاة** فـأبى أن يقبـل مـنهم إلا مـا كـان رسـول اللـه ﷺ قـابلاً في حياتـه فـانتزع السـيوف مـن أغمادهـا وأوقـد النيران في شـعلها وركـب بأهـل حـق اللـه أكتـاف أهـل الباطـل **حتى قـررهم بالـذي نفـروا منـه وأدخلهـم مـن البـاب الـذي خرجـوا منـه** حتى قبضـه الله»[3].

وعَـنْ أَنَـسِ بْـنِ مَالِـكٍ، قَـالَ: " ارْتَـدَّ سِـتَّةُ نَفَـرٍ مِـنْ بَكْـرِ بْـنِ وَائِـلٍ يَـوْمَ تُسْـتَرَ، فَقَـدِمْتُ عَلَى عُمَـرَ بْـنِ الْخَطَّـابِ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، فَسَـأَلَنِي، فَقَـالَ:« مَـا فَعَـلَ النَّفَـرُ؟ فَأَخَـذْتُ

---

[1] البداية والنهاية ٣٤٤/٦

[2] تعظيم قدر الصلاة ٩٢٣/٢

[3] الاعتقاد ص/١٧٤.

فِي حَـدِيثٍ غَيْرِهِ، ثُـمَّ قَـالَ: مَـا فَعَـلَ النَّفَـرُ؟ قُلْـتُ: قُتِلُـوا، قَـالَ: لَأَنْ أَكُـونَ أَدْرَكْـتُهُمْ كَانَ أَحَـبَّ إِلَيَّ مِمَّـا طَلَعَـتْ عَلَيْـهِ الشَّـمْسُ ، قَـالَ: قُلْـتُ لَـهُ: وَمَـا سَـبِيلُهُمْ إِلَّا الْقَتْـلُ؟ **قَـالَ: كُنْـتُ أَعْـرِضُ عَلَـيْهِمُ الـدُّخُولَ مِـنَ الْبَـابِ الَّـذِي خَرَجُـوا مِنْـهُ**، فَـإِنْ فَعَلُـوا وَإِلَّا اسْتَوْدَعْتُهُمُ السِّجْنَ»[١].

وقـال المـروزي:" لَأَنَّ الرَّجُـلَ إِذَا كَفَـرَ بِتَـرْكِ الصَّـلَاةِ فَإِنَّمَـا يُسْـتَتَابُ مِـنْ كُفْـرِهِ بِـأَنْ يُـدْعَى إِلَى الصَّـلَاةِ فَـإِذَا رَجِـعَ إِلَى الصَّـلَاةِ فَصَـلَّى كَـانَ رَاجِعًـا إِلَى الْإِسْـلَامِ **لِأَنَّ كُفْـرَهُ كَـانَ بِتَرْكِهَـا فَإِسْـلَامُهُ يَكُـونُ بِإِقَامَتِهَـا**، وَكَـذَلِكَ كُـلُّ مَـنْ كَـانَ مَعْرُوفًـا بِالْإِسْـلَامِ وَالْإِيمَـانِ بِمَـا جَـاءَ مِـنْ عِنْـدِ اللَّـهِ تَعَـالَى مِـنَ الْفَـرَائِضِ وَالْحَـلَالِ وَالْحَـرَامِ ثُـمَّ كَفَـرَ بِشَـرِيعَةٍ مِـنَ الشَّـرَائِعِ أَوِ اسْـتِحْلَالِ بَعْـضِ مَـا حَـرَّمَ اللَّـهُ تَعَـالَى **فَإِنَّمَـا يُسْـتَتَابُ مِـنَ الْكُفْـرِ بِالشَّـرِيعَةِ الَّتِي كَفَـرَ بِهَـا**، فَـإِذَا أَقَـرَّ بِهَـا عَـادَ إِلَى الْإِسْـلَامِ، وَلَا يُمْـتَحَنُ بِغَيْرِ ذَلِـكَ، وَلَا يُسْـأَلُ عَـنْ سِـوَاهُ وَكَـذَلِكَ إِنْ قَـالَ: الْخَمْـرُ حَـلَالٌ أَوْ لَحْـمُ الْخِنْزِيـرِ وَهُـوَ مُقِرٌّ بِجَمِيـعِ مَـا أَحَـلَّ اللَّـهُ تَعَـالَى وَحَـرَّمَ سِـوَى الْخَمْـرِ أَوِ الْخِنْزِيـرِ فَإِنَّمَـا يُسْـتَتَابُ مِـنَ الْبَـابِ الَّـذِي كَفَـرَ مِنْـهُ مِـنْ إِحْلَالِـهِ الْخَمْـرَ وَالْخِنْزِيـرَ فَقَـطْ لِأَنَّـهُ مُـؤْمِنٌ بِمَـا سِـوَى ذَلِكَ"[٢].

ولـيس هنـاك توقـف في الأسـماء أو الأحكـام فهـذه بدعـة محدثـة فالنـاس إمـا مـؤمن أو كـافر ولـيس هنـاك منزلـة بـين المنـزلتين، أمـا التبـيُّن فهـي سـنة مقـررة عنـد الاستشـكال، ويكـون التبـيُّن مـع استصـحاب حُكـم الكفـر لا عـن توقـف كمـا سـبق في صورة قتال أهل الردة.

وقـد يكـون التبـين مـع استصـحاب حكـم الإسـلام كمـا في قولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[الحجرات٦]، قـال الْحَـارِثَ بْـنَ ضِـرَارٍ الْخُزَاعِيَّ :« قَـدِمْتُ عَلَى رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ فَـدَعَانِي إِلَى الْإِسْـلَامِ فَـدَخَلْتُ فِيـهِ وَ أَقْـرَرْتُ بِـهِ، وَدَعَـانِي إِلَى الزَّكَـاةِ فَـأَقْرَرْتُ بِهَـا وَقُلْـتُ: يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، أَرْجِـعُ إِلَـيْهِمْ فَـأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْـلَامِ وَأَدَاءِ الزَّكَـاةِ مِمَّـنِ

---

[١] سنن سعيد بن منصور برقم ٢٥٨٧

[٢] تعظيم قدر الصلاة ٩٦٢/٢

اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ وَيُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ رَسُولًا لِإِبَّانِ كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيَكَ مَا جَمَعْتُ مِنَ الزَّكَاةِ؛ فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لَهُ وَبَلَغَ الْإِبَّانَ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِ، احْتَبَسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَلَمْ يَأْتِهِ فَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سُخْطَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولَهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ الزَّكَاةِ، وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخُلْفُ وَلا أَرَى حَبَسَ رَسُولَهُ إِلا مِنْ سُخْطَةٍ كَانَتْ. فَانْطَلِقُوا فَنَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إلى الْحَارِثِ لِيَقْبَضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنَ الزَّكَاةِ، فَلِمَا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرَقَّ أَيْ خَافَ فَرَجَعَ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْحَارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ وَأَرَادَ قَتْلِي، فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ وَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ، وَفُصِلَ عَنِ الْمَدِينَةِ، لَقِيَهُمُ الْحَارِثُ فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِلى مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا إِلَيْكَ قَالَ: وَلِمَ؟ قَالُوا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةَ، وَلا أَتَانِي فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟» قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلا أَتَانِي وَمَا أَقْبَلْتُ إِلا حِينَ احْتُبِسَ عَلَيَّ رَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ سُخْطَةٌ قَالَ: فَنَزَلَتِ الْحُجُرَاتُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾"[1].

المطلب الثالث: منهج القران والسنة في نسبة العين إلى قومها

ومنهج القرآن والسنة هو نسبة العين إلى القوم إلا من أظهرت المخالفة لقومها، فالله تعالى كفّر الأقوام الظالمة المكذبة واستثنى أتباع الرسل

[1] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٣٠٤/١٠

لمخالفتهم ما عليه قومهم كقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف٨٥]، وفيه إظهار المخالفة للقوم المشركين وكذلك قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[ياسين٢١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾[النمل ٤٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة٥١].

وجاء في السنة نسبة العين إلى القوم في مواضع:

❁ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:«لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ، فَقَالَ: «مَنِ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللهِ»، فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا، فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ»[1]، ووجه الدلالة أن النبي ﷺ لقي ركباً فسألهم من القوم؟ فلما انتسبوا إلى القوم المسلمين ألحقهم بهم.

❁ وعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالأَبْوَاءِ، أَوْ بِوَدَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ: «هُمْ مِنْهُمْ»[2].

❁وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، أَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ»[3].

[1] رواه مسلم برقم ٤٠٩

[2] رواه البخاري برقم ٣٠١٢ ورواه مسلم ١٧٤٥

[3] رواه أبو داود ٢٧٨٧

❁ وَذَكَرَ الْحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: قَالَ: حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مِسْعَرٍ: «أَنَّ مَلَكًا أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهَا فُلَانًا الْعَابِدَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ بِهِ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ»[١].

❁ وعن ابن مسعود مرفوعًا: «من كثر سواد قوم فهو منهم ومن رضي عمل قوم كان شريك من عمل به»[٢].

فيُنسب من كان بين قوم كفار إلى قومه ظاهراً ولو كان مُستخفٍ بالإيمان إلا من أظهر المخالفة، وفي المقابل يُنسب من كان بين قوم مسلمين في دار اسلام إليهم ظاهراً ولو كان من المنافقين المستخفين بالكفر المظهرين للإيمان جُنَّةً إلا من أظهر مخالفة دين قومه، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:« ارْتَدَّ أَهْلُ الْيَمَامَةِ عَنِ الإِسْلامِ غَيْرَ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ، وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ، **فَكَانَ مُقِيمًا بِالْيَمَامَةِ يَنْهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ مُسَيْلِمَةَ وَتَصْدِيقِهِ**، وَيَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَأَمْرًا مُظْلِمًا لا نُورَ فِيهِ، وَإِنَّهُ لَشَقَاءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ أَخَذَ بِهِ مِنْكُمْ، وَبَلاءٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِهِ مِنْكُمْ يَا بَنِي حَنِيفَةَ، فَلَمَّا عَصَوْهُ وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ أَصْفَقُوا عَلَى اتِّبَاعِ مُسَيْلَمَةَ عَزَمَ عَلَى مُفَارَقَتِهِمْ، وَمَرَّ الْعَلاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ عَلَى جَانِبِ الْيَمَامَةِ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ قَالَ لأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ أُقِيمَ مَعَ هَؤُلاءِ مَعَ مَا قَدْ أَحْدَثُوا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَضَارِبُهُمْ بِبَلِيَّةٍ لا يَقُومُونَ بِهَا وَلا يَقْعُدُونَ، وَمَا نَرَى أَنْ نَتَخَلَّفَ عَنْ هَؤُلاءِ وَهُمْ مُسْلِمُونَ، وَقَدْ عَرَفْنَا الَّذِي يُرِيدُونَ، وَقَدْ مَرُّوا قَرِيبًا، وَلا أَرَى إِلا الْخُرُوجَ إِلَيْهِمْ، فَمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنْكُمْ فَلْيَخْرُجْ. فَخَرَجَ مُمِدًّا لِلْعَلاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ، وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ ذَلِكَ قَدْ فَتَّ فِي أَعْضَادِ عَدُوِّهِمْ حِينَ بَلَغَهُمْ مَدَدُ بَنِي حَنِيفَةَ»[٣].

---

[١] أخرجه: ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (ص ٢٨) (١٦)، وفي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ١٠٨) (٧٤)

[٢] فتح الباري، جـ١٣

[٣] الاستيعاب في معرفة الاصحاب ٢١٦/١

وإن كان تكفير الناس بالعموم لا يشمل جميع الأعيان باطناً وهذا لا سبيل للوصول إليه إلا بالاستقراء التام وهو متعذر، ولسنا نقول أنَّ جميع الناس بأعيانهم كفاراً ظاهراً وباطناً مع القطع بوجود قلة مُسلمة مستخفية بين هذه الأقوام، لحديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك﴾[1]، والقلة هي موجودة في الدارين وبين القومين، ففي دار الإسلام موجود قلة مستخفية بالكفر تجري عليها أحكام الإسلام في الظاهر كحال المنافقين، وفي دار الكفر موجود قلة مستخفية بالإيمان تجري عليها أحكام الكفر كمن أسلم في دار الحرب وعجز عن الهجرة، ومنشأ الاشتباه في المسألة اشتباه أحكام الكفر في الدنيا بأحكام الكفر في الآخرة "[2].

قال حمد بن عتيق:" ومن له مشاركة فيما قرره المحققون، قد اطلع على أن البلد، إذا ظهر فيها الشرك، وأعلنت فيها المحرمات، وعطلت فيها معالم الدين، أنها تكون بلاد كفر، تغنم أموال أهلها، وتستباح دماؤهم، وقد زاد أهل هذه البلد، بإظهار المسبَّة لله ولدينه، ووضعوا قوانين ينفذونها في الرعية، مخالفة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وقد علمت أن هذه كافية وحدها، في إخراج من أتى بها من الإسلام.

---

[1] رواه مسلم برقم ١٧٠

[2] قال ابن القيم:" ومنشأ الاشتباه في هذه المسألة اشتباه أحكام الكفر في الدنيا بأحكام الكفر في الآخرة فإن أولاد الكفار لما كان تجري عليهم أحكام الكفر في الدنيا مثل ثبوت الولاية عليهم لآبائهم وحضانتهم لهم وتمكنهم من تعليمهم وتأديبهم والموازنة بينهم وبين نبيهم واسترقاقهم وغير ذلك صار يظن من يظن أنهم كفار في نفس الأمر كالذي تكلم بالكفر وعمل به ومن ها هنا قال محمد بن الحسن: "أن هذا الحديث وهو قوله كل مولود يولد على الفطرة كان قبل أن تنزل الأحكام" فإذا عرف أن كونهم ولدوا على الفطرة لا ينافي أن يكونوا تبعا لآبائهم في أحكام الدنيا وقد زالت الشبهة **وقد يكون في بلاد الكفر من هو مؤمن يكتم إيمانه ولا يعلم المسلمون حاله فلا يغسل ولا يصلى عليه ويدفن مع المشركين وهو في الآخرة من أهل الجنة** كما أن المنافقين في الدنيا تجري عليهم أحكام المسلمين وهم في الدرك الأسفل من النار فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا وقوله "كل مولود يولد على الفطرة" إنما أراد به الإخبار بالحقيقة التي خلقوا عليها وعلى الثواب والعقاب في الآخرة إذا عملوا بموجبها وسلمت عن المعارض ولم يرد به الإخبار بأحكام الدنيا" شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٢٩٨/١.

وقال ابن تيمية :" وقد يكون في بلاد الكفر من هو مؤمن في الباطن يكتم إيمانه من لا يعلم المسلمون حاله إذا قاتلوا الكفار فيقتلونه ولا يغسل ولا يصلى عليه ويدفن مع المشركين وهو في الآخرة من المؤمنين أهل الجنة كما أن المنافقين تجري عليهم في الدنيا أحكام المسلمين وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا" درء تعارض العقل والنقل ٤٣٣/٨.

هذا ونحن نقول: **قد يوجد فيها من لا يحكم بكفره في الباطن**، من مستضعف ونحوه، وأما في الظاهر **فالأمر - ولله الحمد - واضح**، ويكفيك ما فعله النبي ﷺ في أهل مكة، مع أن فيهم مستضعفين، وكذلك ما فعله أصحابه بكثير ممن ارتد عن الإسلام، من استباحة الدم والمال والعرض، وكل عاقل وعالم يعلم أن ما أتى به هؤلاء من الكفر والردة، أقبح وأفحش وأكثر مما فعله أولئك"[1].

وعليه فمنهج القرآن والسنة هو استصحاب الأصل في القوم حكماً على عموم الدار أما الأعيان فيجري عليهم هذا الحكم المستصحب إلا من خالف دين قومه بإظهار خلاف ما أظهره القوم من إيمان وكفر، فصواب النظر ابتداءً هو في ظاهر القوم ثم الحكم عليهم، والعين تُلحق بالقوم إلا من أظهر مخالفة القوم، ومن استخفى فإنه يجري عليه حكم القوم لعدم التمييز في علم المكلف لكونه مخاطب بالظاهر.

وهذا هو النظر الصحيح خلافا للمجادلين عن المشركين الذين يبغونها عوجا، حيث يجعلون أهل ديار الكفر مسلمين بالتوارث ثم يطلبون اليقين في كفر العين منهم!! أو من يحكمون بالشعائر على المشركين وأهل دار الكافرين، وهذه في ميزان العلم أعوج وأشنع لا تتخرج على أصل صحيح، إذ كيف بالشعيرة تصحح إسلام من لا أصل له، أو تثبت إسلام قوم مشركين في العبادة والحاكمية والاتباع!! **قال تعالى**: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف١٠٥]

وقال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان٢٣].

وبالتالي الذين يؤسلمون مجهول الحال في ديار الكفر قد ضلوا ضلالاً مبيناً، حيث أنهم يوسعون دائرة الجهالة، ويُحمِّلُون مجهول الحال ما لا

[1] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٤٠٢/٦

يتحمل هذا الاصطلاح عند الفقهاء[1] ويدخلون فيه الكثرة المشركة في هذا الزمان ثم يختلفون عليها وغالباً ما تؤديهم أصولهم إلى أسلمتها، فهؤلاء قد حادوا عن الجادة وانحرفوا عن الأصول الصحيحة، فإن الشرع لا يأتي بمثل هذه الجهالة الواسعة في الكثرة الكاثرة الموجودة في الديار، فأسماء الناس وأحكامهم من أظهر مسائل الدين، وفي حقيقة الأمر أن هذا المجهول لا وجود له إلا في أذهان هؤلاء التائهين وهم أهل الجهل به، وهو من المخلفات والرواسب التي خلفها التأصيل الفاسد للديار، حيث أنهم نظروا نظراً مجرداً في الأعيان دون الأقوام فهم بين معلوم حاله تبين لهم حكمه وبين مجهول حال اختلفوا فيه، وبالضرورة ـ على هذا النظر ـ يكون الانحراف أكبر مما يبدو أول وهلة.

وأما من نظر إلى القوم ابتداءً فيؤصِّلُ حكمهم لا يرد عليه مجهول الحال، إذْ حاله من حال قومه فهو معلوم الحال في الصورتين، ـ أي من وافق القوم ظاهرا فهو معلوم الحال ومن خالف القوم ظاهرا فهو معلوم الحال ـ وأما من عكس القضية ونظر في الأعيان ابتداءً نظراً مجردا فهذا سوف يَرِدُ على أصله مسائل لا يجد لها جوابا في الشرع لعدم وقوعها في صحيح النظر، فحينئذ تنحرف به المقدمات إلى أحكام باطلة فيحكم فيها بالأهواء ويخبط فيها خبط عشواء والله المستعان.

ومن حيث التنزيل على واقع الناس اليوم فنقول أنَّ الظاهر المعتبر في إسلام من يعيش بين هذه الأقوام المشركة هو البراءة من هذه الأقوام ومن دينهم

---

[1] كلام الفقهاء في مجهول الحال مأخذه الإلحاق والتبعية في صور معينة كالميت والمجنون واللقيط، وهي دلالة ظنية **لذلك يُبَالغون في الاحتياط وتَغليب حُكم الإسلام، والمسألة كلها مبناها القياس لعدم وجود دلالة ظاهرة أو نصية**، قال ابن قدامة: فَصْلٌ: وَإِنْ وُجِدَ مَيِّتٌ، فَلَمْ يُعْلَمْ أَمُسْلِمٌ هُوَ أَمْ كَافِرٌ، نُظِرَ إلَى الْعَلَامَاتِ، مِنْ الْخِتَانِ، وَالثِّيَابِ، وَالْخِضَابِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ عَلَامَةٌ، وَكَانَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، غُسِّلَ، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دَارِ الْكُفْرِ، لَمْ يُغَسَّلْ، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِ. نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ؛ **لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي دَارٍ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِهَا**، يَثْبُتُ لَهُ حُكْمُهُمْ مَا لَمْ يَقُمْ عَلَى خِلَافِهِ دَلِيلٌ". المغني ٢/٤٠٠، فالأصل المستصحب عند الفقهاء أن من كان في دار فهو من أهلها إلا أن يثبت خلاف هذا الأصل بدلالة ظاهرة أو نصية معتبرة، فإن ثبتت الدلالة عُمل بها ولا يلتفت لغيرها ولا تغليب لأحد الطرفين ولا تقوى الأصول: كاستصحاب حكم الدار أو حديث عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو الْمُزَنِيِّ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: «الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى»، أو الْأَصْلَ فِي كُلِّ مَوْلُودٍ أَنَّهُ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وغيرها على مدافعة الدلالات المعتبرة.

الباطل الذي هو دين الديمقراطية، قال: حمد بن علي بن عتيق في ضابط إظهار الدين:" إنَّ كثيراً من الناس، قد ظنَّ أنَّه إذا قدر على أنْ يتلفَّظ بالشهادتين، وأن يصلِّي الصلوات، ولا يُرَدُّ عن المساجد، فقد أظهر دينه وإن كان مع ذلك بين المشركين، أو في أماكن المرتدين. وقد غلطوا في ذلك أقبح الغلط.

فاعلم أنَّ الكفرَ له أنواعٌ وأقسامٌ تتعدَّدُ بِتَعدُّد المكفرات، وقد تقدم بعض ذلك، وكلُّ طائفة من طوائف الكفر فلا بد أن يشتهر عندها نَوعٌ منه، ولا يكون المسلم مُظهِراً لدينه، حتى يخالف كل طائفة بما اشتهر عندها، ويُصرِّح لها بعداوته، والبراءة منه، فمن كان كفره بالشرك، فإظهار الدين عنده التصريح بالتوحيد، أو النهي عن الشرك والتحذير منه، ومن كان كفره بجحد الرسالة، فإظهار الدين عنده التصريح بأن محمداً رسول الله ﷺ، والدعوة إلى اتباعه. ومن كان كفره بترك الصلاة، فإظهار الدين عنده فعل الصلاة، والأمر بها، ومن كان كفره بموالاة المشركين والدخول في طاعتهم، فإظهار الدين عنده التصريح بعداوته، والبراءة منه ومن المشركين.

وبالجملة فلا يكون مظهراً لدينه، إلا من صرَّح لمن ساكنه من كل كافر ببراءته منه، وأظهر له عداوته لهذا الشيء الذي صار به كافراً، وبراءته منه، ولهذا قال المشركون للنبي ﷺ: عابَ ديننَا وسفَّهَ أحلامَنا، وشتمَ آلهتنا. قال اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[يونس١٠٦].. فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، إلى آخره، أي: إذا شككتم في الدين الذي أنا عليه، فدينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه، وقد أمرني ربي أن أكون من المؤمنين الذين هم أعداؤكم، ونهاني أن أكون من المشركين الذين هم أولياؤكم.

وقـــــال تعـــــالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾إلى آخر السورة.

فـأمر اللـه رسـوله ﷺ أن يقـول للكفـار: ديـنكم الـذي أنـتم عليـه، أنـا بـريء منـه، وديني الـذي أنـا عليـه أنـتم بـرآء منـه. والمـراد: التصـريح لهـم بـأنهم على الكفـر، وأنـه بـريء مـنهم ومـن ديـنهم، فمـن كـان متبعـاً للنبي ﷺ فعليـه أن يقـول ذلـك، ولا يكـون مظهـراً لدينـه إلا بـذلك، ولهـذا لمـا عمـل الصـحابة بـذلك، وآذاهـم المشـركون، أمـرهم النبي ﷺ بـالهجرة إلى الحبشـة، ولـو وجـد لهـم رخصـة في السـكوت عـن المشـركين، لمـا أمـرهم بـذلك إلى بلـد الغربـة".... إلى أن قـال: "والمقصـود منـه: أن الرجـل لا يكـون مظهـراً لدينـه حتى يتبـرأ مـن أهـل الكفـر الـذي هـو بـين أظهـرهم، ويصـرّح لهـم: بـأنهم كفـار، وأنـه عـدوٌ لهـم، فـإن لـم يحصـل ذلك لم يكن إظهار الدين حاصلاً "[١].

وقـال إسـحاق بـن عبـد الـرحمن بـن حسـن: "فالحاصـل هـو مـا قـدمناه مـن أن إظهـار الـدين الـذي تبـرأ بـه الذمـة، هـو الامتيـاز عـن عبـاد الأوثـان بإظهـار المعتقـد، والتصـريح بمـا هـو عليـه، والبعـد عـن الشـرك، ووسـائله، فمـن كـان بهـذه المثابـة إن عـرف الـدين بدليلـه، وأمـن الفتنـة، جـاز لـه الإقامـة، واللـه أعلم" [٢].

وقـال عبـد اللطيـف: " والحاصـل أن المسـلم لا يكـون مظهـراً لدينـه، سـواءٌ كـان مسـافراً ومقيمـاً، حتى يخـالف كـل طائفـة بمـا اشـتهر عنهـا، **وهـو الـذي يفهـم من كلام السلف**"[٣].

وقال سليمان بن سحمان[٤]:

---

[١] سبيل النجاة والفكاك٩٢ .٩٥.

[٢] الأجوبة السمعيات ص ٧٧.

[٣] الأجوبة السمعيات ص ١٤٠.

[٤] ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان" ص٧٦، ٧٧

إظهـار هــذا الــدين تصـريح لهـم		بــالكفر إذْ هــم معشـــر كفـــار

وعـــداوة تبـــدو وبغـــض ظـــاهر		يـــا للعقـــول أمـــا لكـــم أفكـــار

هـــذا ولـــيس القلـــب كـــاف بغضـــه		والحـــب منـــه ومـــا هـــو المعيـــار

لكنمـــا المعيـــار أن تـــأتي بـــه		جهـــراً وتصـــريحاً لهـــم وجهـــار



الباب الخامس

التنزيل على واقع الناس اليوم

الفصل الأول

حقيقة النظام الحاكم في العالم

انقضى نظام الإمبراطوريات وسار العالم نحو نظام جديد فأصبح عبارة عن دويلات تجتمع تحت مظلة منظمة الأمم المتحدة التي تضم في عضويتها جميع الدول الملتزمة بميثاق الأمم المتحدة الذي انعقد في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٤٥ في سان فرانسيسكو في ختام مؤتمر الأمم المتحدة الخاص بنظام الهيئة الدولية، والذي أصبح نافذاً في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٥، المنظمة التي تشكلت على أنقاض عصبة الأمم، وما أفرزته الحرب العالمية الثانية من قرارات ومواثيق ومعاهدات لنشر السلم والديمقراطية وحقوق الإنسان، كميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية وغيرها، كل ذلك برعاية الدول المنتصرة في الحرب ـ أمريكا وبريطانيا وروسيا وانضم إليهم بعد ذلك فرنسا والصين ـ الذين صاغوا قوانينها لمصالحهم ومصالح حلفائهم في تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ، فوضعت ما سمته بميثاق الأمم المتحدة لتكون له المرجعية الأولى في كل قضية من قضايا العالم، حيث تستمد "الشرعية الدولية"[1] منه الأحكام والقرارات وتستند إليه في الخلافات

---

[1] وسميت "شرعية" مضاهاة بالشرع الإلهي ولتعطَ صبغة القداسة التي لا يجوز انتهاكها، فالشرعة أو الشريعة هي الطريقة والمنهاج والدين المعظم الذي لا يجوز أن يُخالف أو يُعارض أو تُنتهك حدوده وأوامره ... وكذلك يريد هؤلاء

والنزاعات والإجراءات، ومن أهم أجهزة هذه المنظمة الجمعية العامة[1] ومجلس الأمن الدولي الذي أصبحت الدول المنتصرة في الحرب أعضاء دائمين فيه وهو المسؤول عن حفظ السلام والأمن الدوليين وله سلطة قانونية على حكومات دول الأعضاء لذلك تعدُّ قراراته ملزمة على الدول الأعضاء، ومنها المجلس الاقتصادي والاجتماعي، ومنها الهيئة القضائية الرئيسية لمنظمة الأمم المتحدة والتي هي محكمة العدل الدولية التي تفصل طبقاً لأحكام القانون الدولي في النزاعات القانونية التي تنشأ بين الدول، ومما جاء في ميثاق الأمم المتحدة في المادة ٩٢: يعتبر جميع أعضاء "الأمم المتحدة" بحكم عضويتهم أطرافاً في النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية".

النظام العالمي الجديد الذي فرض هيمنته على العالم بزعامة أمريكا القطب الأحادي بعد تفكك المعسكر الاشتراكي وانهيار الاتحاد السوفياتي في مطلع التسعينات، **وأعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش سنة ١٩٩١ عن تأسيس نظام**

المشرِّعون للشرعية الدولية أن تكون ... ولذلك تراهم يصفون القرارات التي تخرج من تحت مظلتها بأنها شرعية، وكل ما يخالفها أو يعارضها فليس بشرعي عندهم.

وكذلك يتعامل معها سائمة الأنعام الذين ينادون باحترامها وتطبيقها، وكذلك يفعلون مع شرعياتهم الدستورية المحلية فالقوانين والقرارات والمعاهدات والحكومات المنبثقة من دساتيرهم شرعية لا مطعن فيها في دينهم الجديد هذا!! أما شرع الله المنزل فليس له في حكوماتهم ومحاكمهم وعلاقاتهم وسياساتهم ودنياهم مكان .. ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾؟!

[1] الجمعية العامة: هي جهاز التداول ووضع السياسات والتمثيل في الأمم المتحدة. ولجميع الدول الأعضاء الـ 203في الأمم المتحدة تمثيل في الجمعية العامة، مما يجعل هذا الجهاز جهازا ذي تمثيل عالمي بامتياز. وفي كل سنة، ابتداء في أيلول/سبتمبر، تجتمع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في قاعة الجمعية العامة بنيويورك للدورة السنوية للجمعية العامة والمناقشة العامة التي يحضرها كثير من الزعماء ويلقون فيها كلماتهم. ويتطلب استصدار مقرر من الأمم المتحدة — في ما يتصل بالمسائل المهمة مثل السلم والأمن وقبول عضوية دول جديدة ومسائل الميزانية — بموافقة أغلبية ثلثي الأعضاء في الجمعية العامة. بينما تصدر المقررات بشأن القضايا الأخرى بتصويت الأغلبية البسيطة. وتنتخب الجمعية العامة سنويا رئيسا لدورتها، يشغر ذلك المنصب لفترة سنة واحدة." انظر موقع الأمم المتحدة

عالمي جديد ونهاية نظام القطبية الثنائية والحرب الباردة وبداية عهد جديد تشرف عليه وتقوده الولايات المتحدة الأمريكية في إطار نظام القطبية الوحيدة، حيث ظهر هذا الاصطلاح بشكل رسمي لأول مرة عند إعلان الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب من على **منصة قاعة اجتماع الهيئة التشريعية لمجلس النواب الأمريكي** في ١٧ يناير ١٩٩١ بداية النظام العالمي الجديد New World ويلاحظ استخدام كلمة Order ولم يستخدم كلمة System مثلاً وذلك **لأن في كلمة Order من القسر والتوجيه والأمر ما ليس في غيره، وتتجلى أسس النظام العالمي الجديد حسب قرارات مؤتمر قمة أعضاء مجلس الأمن في ٣١يناير١٩٩٢ فيما يلي:**

١. اعتماد الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية ونزاهة الانتخابات أساسا للعلاقات بين الدول.

٢. تقوية دور مجلس الأمن وصلاحيات الأمين العام للأمم المتحدة من أجل الحفاظ على الأمن والاستقرار الدوليين.

٣ــ احتواء النزاعات الدولية بالطرق السلمية والدبلوماسية من خلال تحركات الأمين العام أو عن طريق الجهات التي يكلفها.

٤ــ بذل تنسيق الجهود والقرارات لردع الدول الخارجة عن توجهات والتزامات المجتمع الدولي.

وجملة الأهداف المعلنة هي إيجاد عالم خال من النزاعات الإيديولوجية وتسوده الديانة الديمقراطية وتُحترم فيه حقوق الإنسان والشرعية الدولية.

وسلطان الأمم المتحدة قد تم بسطه على جميع شعوب العالم عبر الحكومات الأعضاء ويظهر هذا جليا في مواد ميثاق حقوق الإنسان[1] التي حظرت الرق وشرعت

---

[1] **ميثاق حقوق الإنسان**

ومن المواثيق الأساسية التي يتبين من خلالها ماهية النظام العالمي الجديد هو ميثاق حقوق الإنسان الصادر في باريس بتاريخ ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨ **والذي من بنوده:**

المادة ٤: لا يجوز استرقاقُ أحد أو استعبادُه، ويُحظر الرق والاتجار بالرقيق بجميع صورهما

المادة ٦: لكلِّ إنسان، في كلِّ مكان، الحقُّ بأن يُعترَف له **بالشخصية القانونية**.

المادة ٧: الناسُ جميعًا سواءٌ أمام القانون، وهم يتساوون في حقِّ التمتُّع بحماية القانون دونما تمييز، كما يتساوون في حقِّ التمتُّع بالحماية من أيِّ تمييز ينتهك هذا الإعلانَ ومن أيِّ تحريض على مثل هذا التمييز.

المادة ٨: لكلِّ شخص **حقُّ اللجوء إلى المحاكم الوطنية** المختصَّة لإنصافه الفعلي من أيَّة أعمال تَنتهك الحقوقَ الأساسيةَ التي يمنحها إيَّاه الدستورُ أو القانونُ.

المادة ١٥:

١.لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

٢..لا يجوز، تعسُّفًا، حرمانُ **أيِّ شخص من جنسيته ولا من حقِّه في تغيير جنسيته**.

المادة ١٨: لكلِّ شخص حقٌّ في حرِّية الفكر والوجدان والدِّين، ويشمل هذا الحقُّ حرِّيته في تغيير دينه أو معتقده، وحرِّيته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبُّد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.

المادة ١٩: لكلِّ شخص **حقُّ التمتُّع بحرِّية الرأي والتعبير**، ويشمل هذا الحقُّ حرِّيته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقِّيها ونقلها إلى الآخرين، بأيَّة وسيلة ودونما اعتبار للحدود.

المادة ٢١:

١.**لكلِّ شخص حقُّ المشاركة في إدارة الشؤون العامة لبلده**، إمَّا مباشرةً وإمَّا بواسطة ممثِّلين يُختارون في حرية .

٢.لكلِّ شخص، بالتساوي مع الآخرين، حقُّ تقلُّد الوظائف العامَّة في بلده.

٣.**إرادةُ الشعب هي مناطُ سلطة الحكم**، ويجب أن تتجلىَّ هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهة تجرى دوريًّا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السرِّي أو بإجراء مكافئ من حيث ضمان حرِّية التصويت.

المادة ٢٢: لكلِّ شخص، بوصفه عضوًا في المجتمع، حقٌّ في الضمان الاجتماعي، ومن حقِّه أن تُوفَّر له، من خلال المجهود القومي والتعاون الدولي، وبما يتَّفق مع هيكل كلِّ دولة ومواردها، الحقوقُ الاقتصاديةُ والاجتماعيةُ والثقافيةُ التي لا غنى عنها لكرامته ولتنامي شخصيته في حرِّية.

المادة ٢٦:

١ـ **لكلِّ شخص حقٌّ في التعليم. ويجب أن يُوفَّر التعليمُ مجَّانًا**، على الأقل في مرحلتيه الابتدائية والأساسية. ويكون التعليمُ الابتدائيُّ إلزاميًّا. ويكون التعليمُ الفنِّي والمهني متاحًا للعموم. ويكون التعليمُ العالي مُتاحًا للجميع تبعًا لكفاءتهم.

٢ــ يجب أن يستهدف التعليمُ التنميةَ الكاملةَ لشخصية الإنسان وتعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات

الشخصية القانونية لكل الأفراد التي هي الجنسية، وحقِ التمتُّع بحماية القانون دونما تمييز، وحقٌ حرّيِة الفكر والوجدان والدِّين والاعتقاد، وحقُّ المشاركة في إدارة الشؤون العامة للبلاد أي: الحاكمية والتشريع، والإلزام بالتعليم للجميع لترسيخ هذه المفاهيم والحريات والمبادئ، فهذا النظام العالمي قد امتد سلطانه على جميع شعوب العالم عبر هذه المؤسسات التي غرست فيها مبادئ حقوق الإنسان بسلطان القوة منذ عشرات السنين، المبادئ التي تضمن تنشئت أجيال منسلخة عن ملة إبراهيم كما ورد ذلك في المواد المقررة في ميثاق الأمم المتحدة وميثاق حقوق الإنسان المترجمة إلى مناهج دراسية ومقررات منهجية في وسائل الإعلام ومنابر التوعية والثقافة بهذه المفاهيم الجديدة.

إن ميثاق "الأمم المتحدة"[١]: طاغوت ليس كأي طاغوت قُطري بل هو طاغوت عالمي فرض سلطانه على جميع الدول والشعوب والأفراد، وليس هو

الأساسية. كما يجب أن **يعزِّز التفاهمَ والتسامحَ والصداقةَ بين جميع الأمم وجميع الفئات العنصرية أو الدينية**، وأن يؤيِّد الأنشطةَ التي تضطلع بها الأممُ المتحدةُ لحفظ السلام.

المادة ٢٨: لكلِّ فرد حقُّ التمتُّع بنظام اجتماعي ودولي يمكن أن تتحقَّق في ظلِّه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحقُّقًا تامًّا.

والجمعية العامة للأمم المتحدة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه **المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم** حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، **واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية و اتخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها.**

[١] **ومما جاء في الأمم المتحدة**:

١. حفظ السلم والأمن الدولي، وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعّالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم ولإزالتها، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم، وتتذرّع بالوسائل السلمية، وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي، لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها.

٢. إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب **وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها**، وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العام.

مجرد وثيقة تأسيسية لمنظمة من المنظمات، بل قد أراد واضعوه أن يكون ميلادا لدين جديد يسود العالم بأسره، إن خبراء القانون الدولي وفلاسفته يعلنون بوضوح وصراحة أن هذا الميثاق هو أسمى المعاهدات الدولية وهو المهيمن والحاكم عليها، وقوانينه هي قواعد القانون الدولي وأعلاها مكانة و أقواها نفوذاً، وقد التزم به وخضع له جميع الأمم، ولذلك نصت المادة (١٠٣) من هذا الميثاق نفسه على أنه: "إذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أي التزام دولي يرتبطون به، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق"، ومعنى ذلك؛ أنه لا يسوغ لأي دولة ملتزمة بهذا الميثاق أن تبرم أي اتفاق دولي أو تختار وتلتزم بقانون بينها وبين دولة أخرى أو بينها وبين أفرادها تتعارض أحكامه مع القواعد والأحكام الواردة في ميثاق الأمم المتحدة، ولو كان شرع الله العزيز الجبار!.

---

٣. تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية **للناس جميعاً** والتشجيع على ذلك إطلاقاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء.

٤. جعل هذه الهيئة مرجعاً لتنسيق أعمال الأمم وتوجيهها نحو إدراك هذه الغايات المشتركة.

٥. يقدّم جميع الأعضاء كل ما في وسعهم من عون إلى "الأمم المتحدة" **في أي عمل تتخذه وفق هذا الميثاق**، كما يمتنعون عن مساعدة أية دولة تتخذ الأمم المتحدة إزاءها عملاً من أعمال المنع أو القمع.

٦. **وتفصل محكمة العدل الدولية في المنازعات التي ترفع إليها وفقاً لأحكام القانون الدولي** واستناداً إلى المصادر التالية:

١. الاتفاقات الدولية العامة الخاصة التي تضع قواعد تقر بها الدول المتنازعة صراحة.

٢. العرف الدولي المقبول بمثابة قانون كما دل عليه التواتر.

٣. مبادئ القانون العام التي أقرتها الأمم المتحدة.

٤. أحكام ومذاهب كبار المؤلفين في القانون العام في مختلف الأمم.

٥. مبادئ العدل والإنصاف متى وافق الأطراف على ذلك.



ومتقرر أنه لا يمكن لأي دولة الانتساب لعضوية الأمم المتحدة حتى تعلن الدولة حكومة وشعباً التزامها واحترامها لهذا الميثاق وتُسلم له تسليما ... إذ أن إجراءات الانضمام للأمم المتحدة تتلخص في أن تقدم الدولة التي ترغب في الانضمام للأمم المتحدة طلباً بذلك إلى الأمين العام للمنظمة الدولية ويكون ذلك الطلب مصحوباً بإعلان قبول الالتزام بميثاق الأمم المتحدة، وكذلك الأمر بالنسبة للطرد من الأمم المتحدة، فإن "المادة السادسة" من الميثاق تنص على؛ أنّه يجوز للجمعية العامة أن تفصل عضواً من الأعضاء إذا أمعن في **انتهاك مبادئ الميثاق**.

هذا هو الدين الجديد الذي تم فرضه على البشرية إثر الهيمنة العسكرية والسياسية بعد الحرب العالمية الثانية، وهكذا توضع الأديان ويمكَّن لها في الأرض في تاريخ البشرية فإنها تعلوا بعد أن تُروى لها الأرض بالدماء وتخضع لها العباد بسلطان القوة والحديد وينقاد لها المغلوبون والضعفاء بعد القهر والتعبيد.

المطلب الأول: بين دين الله ودين ملوك الأرض

قال تعالى: ﴿ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ ﴾ [يوسف:٧٦] قال الضحاك وابن عباس في قوله: ﴿ دِينِ ٱلۡمَلِكِ ﴾: «في سلطان الملك»[١]، وعن قتادة: ﴿ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ ﴾، قال:« لم يكن ذلك في دين الملك قال: حكمه»[٢].

قال في جمهرة اللغة:" والدِّين: الطَّاعَة والمُلك، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ ﴾ ، أَي فِي طَاعَته[٣]، قَالَ الشاعر

---

[١] رواه الطبري برقم ١٩٥٧٠ ورقم ١٩٥٧١

[٢] رواه الطبري برقم ١٩٥٧٣

[٣] جمهرة اللغة ٦٣٣/٢ ، والزاهر في معاني كلمات الناس ٢٧٨/١، والبيت قاله زهير في ديوانه ١٨٣، وجو: واد، وفدك: قرية بالحجاز، وعمرو هو عمرو بن هند بن المنذر.

لَـئِن حللـت بجَــوٍّ فِـي بنـي أســدٍ   فِي ديـن عمـرٍ وحالـت دُوننَـا فَـدَكُ

وقــــال تعــــالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾[النـور١]، عَـنْ سَـعِيدِ بْـنِ جُبَيْـرٍ فِي قَـوْلِ اللَّـهِ:﴿ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾«يَعْنِي فِي حُكْـمِ اللَّـهِ الَّـذِي حَكَـمَ عَلَى الزَّانِـي»[١]، وقـال الطبري:" يقـول تعـالى ذكـره: لا تأخـذكم بـالزاني والزانيـة أيهـا المؤمنـون رأفـة، وهي رقـة الرحمـة في ديـن اللـه، **يعني في طاعـة اللـه** فيمـا أمـركم بـه مـن إقامـة الحـد عليهمـا على مـا ألـزمكم به"[٢].

ومـن السـنة جـاء في صـفة الخـوارج: «إِنَّـهُ يَخْـرُجُ مِـنْ ضِئْضِـئِ هَـذَا قَـوْمٌ يَتْلُـونَ كِتَـابَ اللَّـهِ رَطْبًـا، لاَ يُجَـاوِزُ حَنَـاجِرَهُمْ، يَمْرُقُـونَ مِـنَ الـدِّينِ كَمَـا يَمْـرُقُ السَّـهْمُ مِـنَ الرَّمِيَّــةِ»[٣]، قــال البغــوي:" وَقَوْلُــهُ: «يَمْرُقُــونَ مِــنَ الــدِّينِ» أَيْ: يَخْرُجُــونَ مِــنَ الــدِّينِ، **أَيْ مِـنَ طَاعَـةِ الأَئِمَّـةِ، وَالـدِّينُ: الطَّاعَـةُ**، وَهَـذَا نَعْـتُ الْخَـوَارِجِ الَّـذِينَ لَا يَدِينُونَ لِلأَئِمَّةِ، وَيَسْتَعْرِضُونَ النَّاسَ بِالسَّيْفِ"[٤].

فسـمى اللـه حكـم الملـك دينـاً وهـو نظـام الملـك وشـريعته، وسـمى حكـم اللـه دينـاً وهـي حـدود اللـه وشـرائعه، وهـذه النصـوص تحـدِّدُ مـدلول كلمـة الـدين تحديـدا دقيقـاً، فـدين الإسـلام هـو: شِـرعة اللـه ومنهاجـه ونظامـه وسُـلطانه ومـن كـان تأبعـا لـه داخـلاً في طاعتـه منقـاداً لأحكامـه متحاكمـاً إلى شـريعته فهـو في ديـن اللـه، وفي المقابـل ديـن الملـك هـو: نظـام الحكـم الـذي وضـعه ملـوك الأرض، فمـن كـان تابعـاً لـهُ داخـلاً في طاعتـه منقـاداً لأحكامـه متحاكمـا لشـرعته فهـو في ديـن الملـك، والـذي نـرومُ تحقيقُـه في هـذا الفصـل هـو تقريـر حقيقـة الـدين الـذي فيه الناس اليوم.

---

[١] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٤١٠٣

[٢] تفسير الطبري ٩١/١٩

[٣] رواه البخاري برقم ٤٣٥١ ومسلم برقم ١٠٦٤

[٤] رواه البخاري برقم ٤٣٥١ ومسلم برقم ١٠٦٤

إنَّ الناس اليوم قد دخلوا في دين ملوك الأرض أفواجا وخرجوا من دين الله أفواجا، كما أخبر بذلك النبي ﷺ، فعن أبي هريرة قال: ﴿تلا رسول الله - ﷺ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾ [النصر: ٢]، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ليخرجن منه أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا﴾[١].

إنَّ نظام المُلْكِ اليوم مُستعلَنٌ به في هذه الديار، يَدرسون أوضاعه في مدارسهم وقانُونه في جامعاتهم مُطَّلِعين على أوضاعه في إعلامهم، متلبّسين به في حياتهم يتحاكمون إليها في محاكمهم منتسبين إليه في وثائقهم وهو: دين الديمقراطية[٢] ونهج العلمانية[٣] الذي هو حكم الشعب للشعب، وهو نظامٌ سياسي يقتسم فيه المواطنون السلطة، ويختارون حكامهم بحرية، ويحتفظون لأنفسهم بالرَّقابة الدائمة على الحكومة، فالشعب هو مصدر

---

[١] رواه الحاكم في "مستدركه"، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه".

[٢] الديمقراطية: هي اصطلاح يوناني قديم مركب من كلمتين (Demos _ ديموس) ومعناها: الشعب، و (Kratrs _ كراتوس) ومعناها: السلطة، فيكون معنى الكلمة مركبا: "سلطة الشعب" وفي الاصطلاح قيل: إنها حكومة الشعب بواسطة الشعب لمصلحة الشعب، وقيل: إنها حكومة من كل الشعب وبكل الشعب ولكل الشعب، وقيل هي حكومة الشعب بواسطة الشعب، وقيل: إنها نظام سياسي يقتسم فيه المواطنون السلطة، ويختارون حكامهم بحرية، ويحتفظون لأنفسهم بالرقابة الدائمة على حكومتهم، وقيل: هي ما كانت فيها الجماعة هي مصدر السلطة وهي التي تمارسها بنفسها، أو تنتخب من ينوب عنها في ممارستها" انظر: مدخل إلى الديمقراطية تأليف: ديفيد بيتهام ، وكيفن بويلي. من ترجمة: أحمد رمو. ص / ٩

فالديمقراطية هي شكل من أشكال الحكم يشارك فيها جميع المواطنين المؤهلين على قدم المساواة — إما مباشرة أو من خلال ممثلين عنهم منتخبين - في اقتراح وتطوير واستحداث القوانين، وهي تشمل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تمكن المواطنين من الممارسة الحرة والمتساوية لتقرير المصير السياسي، ومن أهم أسس الديمقراطية الالتزام بالمسؤولية واحترام النظام وترجيح كفة المعرفة على القوة والعنف، ويطلق مصطلح الديمقراطية أحيانا على المعنى الضيق لوصف نظام الحكم في دولة ديمقراطيةٍ، أو بمعنى أوسع لوصف ثقافة مجتمع، والديمقراطيّة بهذا المعنَى الأوسع هي نظام اجتماعي يؤمن به ويسير عليه المجتمع ويشير إلى ثقافةٍ سياسيّة وأخلاقية معيّنة تتجلى فيها مفاهيم تتعلق بضرورة تداول السلطة سلمياً وبصورة دورية، يعود منشأ ومهد الديمقراطية إلى اليونان القديم حيث كانت الديمقراطية الأثينية أول ديمقراطية نشأت في التاريخ البشري،

[٣] جاء في القاموس الإنجليزي أن كلمة "علماني" معناها: دنيوي، أو مادي، أو ليس بديني، فالمقصود من الكلمة هو إقامة الحياة بعيداً عن الدين، أو الفصل الكامل بين الحياة والدين" ينظر: معجم أكسفورد (ص ١٣٧١).

والعلمانية في اصطلاح القوم: تأتي لمعان منها: العالمية، ومنها اللادينية، ومنها فصل الدين عن الدولة وعن الحياة، وكلمة العلمانية اصطلاح جاهلي غربي يشير إلى انتصار العلم على الكنيسة التي حاربت التطور باسم الدين.

السلطات[١]، فهو المشرّع ويتم ذلك بإنابة أعضاء يُنتخب عليهم من طرف الشعب وظيفتها التشريع وسَنِّ القوانين في مجلس الشعب، والشعب هو الحاكم أي: الذي يُنَصِّب الحاكم الذي يرتضيه عن طريق الانتخابات بشكل دوري لإتاحة التداول على السلطة ... وإلى هنا قد غَصَبَ هذا الشعب الربوبية وما اختصَّ الله به من الحاكمية والتشريع وادَّعاها لنفسه وعَبَّدَ لها الشعب وحمى سلطانه بجيوش هي من الشعب: ـ الجيش الشعبي الوطني ـ وقد نفذَت أحكامُه وقوانينه وشرائعه في هذا الشعب، وهذا النظام الوضعي والدين الوثني يُتيح لجميع طبقات الشعب حقوق المواطنة ومن أبرزها إنشاء الأحزاب ــ لا على أساس الدين ــ وأحقية الترشيح للمناصب الحكومية والتشريعية ليتم التداول على الربوبية من طرف جميع طبقات الشعب فمن كان في هذه الفترة حاكماً قد يكون في المرحلة القادمة محكوماً، فهم بين رب ومربوب وعبد ومعبود من دون الله، ويفرض النظام على المواطنين واجبات منها نصرة الوطن والدفاع عنه وهو الواجب مقدس ومنها احترام القوانين وتنفيذها ودفع الضرائب والمكوس.

وهذه نبذة مختصرة عن دين الديمقراطية[٢] الذي هو دين الشعب، والذي استنار قلبه بالتوحيد حينما ينظر في هذه الجاهلية العصرية التي الحاكمية

---

[١] وهو متقرر في دستور الأنظمة الديمقراطية حيث أن الدستور قد أسند حق التشريع للشعب ولمجلس النواب: جاء في الفصل الثالث من الدستور التونسي: " الشعب التونسي هو صاحب السيادة يباشرها على الوجه الذي يضبطه هذا الدستور".

وفي الفصل الثامن عشر: يمارس الشعب السلطة التشريعية بواسطة مجلس النواب ومجلس المستشارين أو عن طريق الاستفتاء

وفي الفصل الثامن والعشرون: يمارس مجلس النواب ومجلس المستشارين السلطة التشريعية طبقا لأحكام الدستور، ولرئيس الجمهورية ولأعضاء مجلس النواب على السواء حق عرض مشاريع القوانين، ولمشاريع رئيس الجمهورية أولوية النظر.

وفي الفصل أربع وستون: تصدر الأحكام باسم الشعب وتنفذ باسم رئيس الجمهورية.

[٢] الديمقراطية على اختلاف تشعباتها وتفسيراتها تقوم على مبادئ وأسسٍ نوجز أهمها في النقاط التالية:

أولاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ أن الحاكميـة والتشـريع والتنفيـذ للشـعب الـذي هـو مصـدر السـلطات بمـا في ذلـك السـلطة التشـريعية والسـلطة القضـائية والتنفيذيـة، ويـتم ذلـك عـن طريـق اختيـار ممثلـين عـن الشـعب ينوبـون عنـه في مهمـة التشـريع وسـن القـوانين واختيـار الحـاكمين بهـا، وبعبـارة أخـرى فـإن المشـرع المطـاع في الديمقراطيـة هـو العبيـد ولـيس رب العبيـد، كمـا نصـت عليـه المـادة ٢١ مـن ميثـاق حقـوق الإنسـان: **إرادةُ الشـعب هـي منـاطُ سـلطة الحكـم،** ويجـب أن تتجلىَّ هـذه الإرادة مـن خـلال انتخابـات نزيهـة تجـرى دوريًّـا بـالاقتراع العـام وعلى قـدم المسـاواة بـين النـاخبين وبالتصويت السرِّي أو بإجراء مكافئ من حيث ضمان حرِّية التصويت.

ثانيـاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ حريـة التـدين والاعتقـاد، فللمـر ء أن يعتقـد مـا يشـاء، ويتـدين بالـدين الـذي يشـاء، فالنظـام قـائم على حمايـة حريـة التـدين وهي الحريـة التي نـص عليهـا ميثـاق حقـوق الإنسـان **المـادة** ١٨ :**لكلِّ شخص حـقٌّ في حرِّيـة الفكـروالوجـدان والـدِّين،** ويشـمل هـذا الحـقُّ حرِّيتـه في تغيير دينـه أو معتقـده، وحرِّيتـه في إظهـار دينـه أو معتقده بالتعبُّد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.

رابعـاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ حريـة التعبير والإفصـاح عـن الـرأي أيَّـاً كـان هـذا التعبير منـاقض للثوابـت والأصـول الدينيـة، كمـا جـاء في ميثـاق حقـوق الإنسـان **المـادة ١٩:** لكـلِّ شـخص **حـقُّ التمتُّـع بحرِّيـة الـرأي والتعبير،** ويشـمل هـذا الحـقُّ حرِّيتـه في اعتنـاق الآراء دون مضـايقة، وفي التمـاس الأنبـاء والأفكـار وتلقِّيهـا ونقلهـا إلى الآخـرين، بأيَّـة وسـيلة ودونمـا اعتبار للحدود

خامسـاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ فصـل الـدين عـن الدولـة والنظـام العـام، وعـن السياسـة والحيـاة، فالـدين محصـور في الضـمائر والصـوامع والزوايـا والمسـاجد، ومـا سـوى ذلـك مـن مرافـق الحيـاة السياسـية والاقتصـادية والاجتماعيـة وغيرهـا فهـي مـن خصوصـيات النظـام الحـاكم يتصـرف فيهـا كيـف يشـاء، ويتجلى هـذا في الفلسـفة العلمانية: الدين لله والوطن للجميع.

سادسـاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ حريـة تشـكيل التجمعـات والأحـزاب السياسـية والجمعيـات الخيريـة والعلميـة والثقافيـة وغيرهـا، لا على أسـاس الـدين بـل على حريـة الـرأي والفكـر والثقافـة أيـاً كانـت عقيـدة وأفكـار وأخلاقيـات هـذه الأحزاب والجماعات.

سـابعاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ اعتبـار موقـف الأكثريـة، ويسـمى بالنظـام الجمهـوري الـذي يتبنّي مـا تجتمـع عليـه الأكثريـة، وهي لا تجتمـع إلا على الباطـل والضـلال والكفـر، كمـا ورد في النصـوص الكثيرة في ذم الكثرة قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الشـعراء٨]، وقولـه﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾[الزخـرف٧٨]، وقولـه تعـالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام١١٦]، وغيرها من الآيات.

ثامنـاً: تقـوم الديمقراطيـة على مبـدأ المسـاواة ـ في الحقـوق والواجبـات ـ بـين جميـع شـرائح وأفـراد المجتمـع، بغـض النظـر عـن انتمـاءاتهم العقديـة والدينيـة، كمـا جـاء في ميثـاق حقـوق الإنسـان **المـادة ٧** :**النـاسُ جميعًـا سـواءٌ أمـام القـانون،** وهـم يتسـاوون في حـقِّ التمتُّـع بحمايـة القـانون دونمـا تمييـز، كمـا يتسـاوون في حـقِّ التمتُّـع بالحمايـة مـن أيِّ تمييـز ينتهـك هذا الإعلانَ ومن أيِّ تحريض على مثل هذا التمييز.

فالدسـتور لا يقـر بوجـود كفـار أو مسـلمين في الـبلاد يكـون على أساسـه التمـايز بـين الحقـوق والواجبـات، بـل يقـر بحريـة الأديـان والاعتقـاد والـراي والأفكـار، فسـواءً أكنـت نصـراني أو يهـودي أو مجوسـي أو منتسـب للإسـلام فأنـت مـواطن لـك حقـوق وعليـك واجبـات كاملـة، ولا فـرق في القـانون بـين المسـلم أو المشـرك أو المرتـد أو الـذمي، ولا فـرق بـين الـذكر والأنثى، وفي هـذه الحيثيـة تغيير وتبـديل لشـرع اللـه وأحكامـه، فاللـه تعـالى فـرق بـين المسـلم والكـافر في أسـماء وأحكـام ولـم يسـاوِ بينهمـا لا في أحكـام الـدنيا ولا في أحكـام الآخـرة، وفـرق بـين الـذكر والأنثى في الكثير مـن الأحكـام، أمـا في ديـن الأمـم

فيها للشعب والتي قد رضي فيها الشعب بحكم نفسه والخضوع لأحكامه وشرعه، ثم ينظر في كتاب ربه فيجد أن من أظهر القضايا التي تناولها هي قضية الحاكمية والاتباع والانقياد لله الواحد الديَّان وحده لا شريك له، وهي مدلول لا إله إلا الله ومعنى إفراد الله بالعبودية والبراءة من الطاغوت واجتنابه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾[الزمر:١٧].

إنَّ القضيَّة عند صاحب الفطرة السليمة في غاية الصفاء والوضوح: قومٌ اجتمعوا في أرضٍ لها حدود فهي الوطن، لها دستور فهو الحَكَم لها شعار فهو العلم، يُعقد له الولاء وعليه البراء يعظَّمُ بالقنوت ويقاتل تحته في صمود، وكل ذلك تحت قانون: الدين لله والوطن للجميع، وقد جعلوا سَنَّ القوانين والحاكمية في أنفسهم على جهة المداولة على السلطان، فمن اختارته الأغلبية فهو الحكم دانوا له بالطَّاعة والاتِّباع لأَجَل محدود، ونصَّبوا القضاة والحاكمين يحكمون بما يَسُنُّه المشرعين الذين يُمَثِّلُون القوم، وقد سنُّو حُريَّةَ الأديان بل وحدتها وحرية الاعتقاد ـ إلا التوحيد ـ ونَصَّبت للناس قباباً ومشاهداً وقبوراً ومعابداً وزيّنت لهم عبادتها وحمتها بسيف القوم، وأشاعت الرذيلة وطمست الفضيلة وأنكرت المعروف وأمرت بالمنكر، ونشرت الشرك والتنديد وفتنت أهل الحق والتوحيد، فما تركوا من أمر الجاهلية الأولى شيئاً إلا كان لهم منه أوفر حظٍ وأكمل نصيب، بل تجاوزا حد الطغيان والتنديد فكانوا كما قال الله في الأقوام الطَّاغية: ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾[الذاريات:٥٣] وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ

المتحدة فهما سواء، قال تعالى:﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ ﴾[آل عمران٣٦].

﴾[الصافات:٣٠] وقال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾[النجم:٥٢]

فإن لم يكن هذا هو الكفر والشرك والطغيان فما هو إذا؟ وإن لم يكن هؤلاء هم المشركون والكفار والطواغيت فمن هم إذا؟!! ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[القلم:٣٦].



الفَصْلُ الثَّانِي

في حدِّ المسلمين

بعد تفصيل حدِّ الإسلام الذي يُفارق به الجاهلي دين قومه المشركين، ناسب في هذا المقام ذكر: من هم المسلمون؟، وما هو حدُّ الأقوام المسلمة المباينة للأقوام المشركة؟، بحيث أنَّ الناظر في الأقوام يُمَيِّز به بين المسلمين والمشركين حتى يكون على بيِّنَةٍ من أمره حينما يتلقى رسمهم من كتاب ربه:

﴿قال تعالى﴾: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:٦٤]، قال أبو العالية: «كلمة السواء لا إله إلا الله»[١]، وقال أبو جعفر:" وأما قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، فإنه يعني: فإن تولَّى الذين تدعونهم إلى الكلمة السواء عنها وكفروا، فقولوا أنتم أيها المؤمنون لهم: اشهدوا علينا بأنا بما تولَّيتم عنه من توحيد الله وإخلاص العبودية له، وأنه الإلهُ الذي لا شريك له مسلمون، يعني: خاضعون لله به، متذلِّلون له بالإقرار بذلك بقلوبنا وألسنتنا"[٢].

وفي هذا النص دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، فأمر الله نبيَّه أن يدعوهم إلى الكلمة السواء وهي لا إله إلا الله، وذكر مدلولها الذي يصح به إسلامهم، فإن حققوه كانوا مسلمين، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ "أيْ: فإنْ

---

[١] رواه الطبري في تفيره برقم ٧١٩٩

[٢] تفسير الطبري ٦/٤٨٩

تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا النَّصَف وَهَذِهِ الدَّعْوَةِ فأشْهدوهم أَنْتُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ"[1].

وجاء في الآية تفسير الكلمة السواء: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي البراءة من الشرك وإفراد الله بالعبودية وعدم اتخاذ الأرباب في الحاكمية والتشريع ، ونصّ الله على عدم اتخاذ الأرباب في الحكم والتشريع وإن كان داخلاً في إفراد الله بالعبودية وعدم الإشراك به تعالى، والتَّنصيص جاء للتأكيد عليه وذلك لاتِّخاذ أهل الكتاب الأحبار والرهبان: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:31] .

وهذه الآية من أوضح الآيات في كتاب الله التي أوضحت حد المسلمين ونصت على شرطهم في عدم اتخاذ الأرباب في الحاكمية والتشريع.

❁ **وقال تعالى:** ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:80] "أَيْ: وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، لَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ وَلَا مَلَكٍ مُقَرَّب ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ: لَا يَفْعَل ذَلِكَ؛ لأَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى الْكُفْرِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ"[2]، وقال البخاري: بَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَالنُّبُوَّةِ، وَأَنْ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ

[1] تفسير بن كثير ٥٦/٢

[2] تفسير بن كثير ٦٧/٣

دُونِ اللَّـــهِ، وَقَوْلِـــهِ تَعَـــالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[آل عمران٧٩] إِلَى آخِرِ الآيَةِ"[١].

وفيها أنَّ اتخاذ الأرباب كفر يرفع اسم الإسلام من القوم، فالمسلمون لا يتخذون الأرباب في العبادة والطاعة والاتباع.

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾[المائدة٤٩].

قَـــال البغـــوي: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾أَيْ: **أَعْرَضُـوا عَـنِ الْإِيمَـانِ وَالْحُكْـمِ بِـالْقُرْآنِ،** فَـاعْلَمْ أَنَّمـا يُرِيـدُ اللَّـهُ أَنْ يُصِـيبَهُمْ بِـبَعْضِ ذُنُـوبِهِمْ، أَيْ: فَـاعْلَمْ أَنَّ إِعْرَاضَـهُمْ مِـنْ أَجْـلِ أَنَّ اللَّـهَ يُرِيـدُ أَنْ يُعَجِّـلَ لَهُـمُ الْعُقُوبَـةَ فِي الـدُّنْيَا بِـبَعْضِ ذُنُـوبِهِمْ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾، يَعْنِي: الْيَهُودَ ﴿لَفَـٰسِقُونَ ﴾"[٢].

❁ وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[المائدة:٦٨]، قال ابن زيد في قوله: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ،

قال:« فقد صرنا من أهل الكتاب "التوراة"، لليهود، و"الإنجيل"، للنصارى ﴿

[١] صحيح البخاري ٤٥/٤

[٢] تفسير البغوي ٥٨/٢

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ، وما أنزل إلينا من ربنا أي: ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ﴾حتى تعملوا بما فيه»[١] .

وقال السمعاني: ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي: تعملوا بِالْكُلِّ"[٢] .

وقال البغوي:" قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ، **أَيْ: تُقِيمُوا أَحْكَامَهُمَا وَمَا يَجِبُ** عَلَيْكُمْ فِيهِمَا، ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَـٰنًا وَكُفۡرًا ﴾ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴿ فَلَا تَأۡسَ ﴾، فَلَا تَحْزَنْ، ﴿ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴾"[٣].

وإن كان هذا الوصف: ﴿ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ ﴾ خطاب لأهل الكتاب فهو يعمُّ هذه الأمة كما في آثر ابن زيد، فكل أمة أُنزل إليها كتاب الله فلم يعملوا بما أنزل إليهم من ربهم ليسوا على شيء من الدين حتى يقيموا ما أنزل إليهم من ربهم وإلا: ﴿ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ﴾ ، إذا فصفةُ القوم المسلمين إقامة شريعة ربهم والحكم بما أُنزل إليهم من ربّهم وعدم اتخاذ الأرباب، وصفةُ القوم الكافرين عدم إقامة ما أنزل إليهم من ربّهم وتلقي الشريعة من الأرباب والدين من الأنداد.

---

[١] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٢٢٨٥

[٢] تفسير السمعاني ٢/٥٣

[٣] تفسير البغوي ٢/٧٠

﴿قال تعالى﴾: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[النور:٤٧]، قال أبو جعفر ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ يقول: وليس قائلو هذه المقالة، يعني قوله: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ﴾ بالمؤمنين، لتركهم الاحتكام إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عنه إذا دعوا إليه."[١]، ولا شك أن هؤلاء الأقوام والشعوب دُعوا إلى الحكم بالقرآن، ولكنهم أعرضوا بل قاتلوا بجميعهم من دعاهم إلى ذلك وساموهم سوء العذاب.

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[النساء:٦٥]، قال أبو جعفر: يعني جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿ فَلَا ﴾ فليس الأمر كما يزعمون: أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدّون عنك إذا دعوا إليك يا محمد"[٢].

وعن الضحاك في قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ ﴾" ، قال: إثمًا، ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ يقول: ويسلّموا لقضائك وحكمك، إذعانًا منهم بالطاعة، وإقرارًا لك بالنبوة تسليمًا"[٣]، وقال البغوي: ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ أي: ينقادوا لأمرك انقيادا"[٤].

[١] تفسير الطبري ٢٠٥/١٩

[٢] تفسير الطبري ٥١٨/٨

[٣] رواه الطبري في تفسيره برقم ٩٩١١

[٤] تفسير البغوي ٦٥٧/١

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[الممتحنة ١٠] قال الزُّهْرِيُّ: « لَوْلَا الْهُدْنَةُ وَالْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ لَأَمْسَكَ النِّسَاءَ وَلِمَ يَرُدَّ الصَّدَاقَ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَصْنَعُ بِمَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمُسَلِّمَاتِ قَبْلَ الْعَهْدِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ **أَقَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ** وَأَدَّوْا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ نَفَقَاتِ [الْمُشْرِكِينَ عَلَى نِسَائِهِمْ، **وَ أَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُقِرُّوا بِحُكْمِ اللَّهِ** فِيمَا أُمِرُوا مِنْ أَدَاءِ نَفَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى نسائهم »[1].

فدلَّت الآيات أنَّ المسلمين هم الذين يجيبون داعيَّ الله ويتحاكمون إلى شرع الله ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[النور:٥١]، والكافرون والمنافقون هم الذين يصدُّون عن دين الله ويتحاكمون إلى الطَّواغيت كما قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾[النساء٥٩].

❁ **وقال تعالى**: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران ٥٣]، **عن محمد بن جعفر بن الزبير**: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾، **أي: هكذا كان قولهم**

[1] تفسير البغوي ٧٢/٥

وإيمانهم»[1]، أي الإيمان هو الاتباع، وعن مجاهد، في قول الله:﴿ مَنْ أَنصَارِيَ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، قال:« من يتبعني إلى الله؟»[2].

فالمسلمون هم المؤمنون بما أنزل الله المتبعون لشرع الله، فوَصْفُهُم في الآية هو: الإيمان والاتباع لما أنزل الله، ولا يكونوا مسلمين إلا بالقول والعمل جميعاً، والعمل هنا هو الاتباع والانقياد، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف ١٥٧].

❁ **وقال تعالى**: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[آل عمران ١١٠]، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ قَالَ: «بِالتَّوْحِيدِ﴿ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ قَالَ: عَنِ الشِّرْكِ»[3]، وعن مجاهد في قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾:« كنتم خير الناس للناس على هذا الشرط: أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله، يقول: لمن بين ظَهريه، كقوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الدخان: ٣٢]» [4]، وعن أبي العالية قال:« كل ما ذكره الله في القرآن من "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، فـ"الأمر بالمعروف"، دعاء من الشرك إلى الإسلام و"النهي عن

[1] راوه الطبري في تفسيره برقم ٧١٣٠

[2] تفسير الطبري ٣٦٦/٣٢

[3] تفسير مجاهد ٢٥٧/١

[4] رواه الطبري في تفسيره برقم ٧٦١٥

المنكر"، النهي عن عبادة الأوثان والشياطين»[١]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ يَقُولُ: تَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، والإقرار بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيُقَاتِلُونَهُمْ عَلَيْهِ، وَلا إِلَهَ إلا لله أَعْظَمُ الْمَعْرُوفِ»[٢].

وفي هذا النصّ وصفُ المسلمين كأمة ـ التي هي خير أمة ـ وشرطها الأمر بالتوحيد والنهي الشرك ويدخل فيه الشرك بالله في العبادة والطاعة، فالأمة المسلمة هي التي تقيم الحاكمية لله في الأرض وبذلك تكون العبادة والطاعة لله وحده، وبها يقوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويكون الدين كله لله.

وبمجموع هذه الأدلة نصل إلى ضبط صفة المسلمين: وهم الذين لا يعبدون إلا الله ولا يشركون به شيئا ولا يتخذون الأرباب في الحكم والتشريع، ويتَّبعون رُسل الله وما أنزل الله وشِرعَة الله، ويأمرون بالمعروف وعلى رأسه التوحيد، وينهون عن المنكر وعلى رأسه الشرك والكفر، ويؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره كما أمر الله، هذه هي صفة المسلمين في كتاب الله، والأقوام اليوم لم يحققوا هذه الأوصاف، فهل لهم اسم الإسلام وهل يكونوا بذلك مسلمين؟! ﴿ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ [القلم:٣٦



[١] رواه الطبري برقم ١٦٩٣٨

[٢] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٠٤٠٨

الفَصْلُ الثَّالِثُ

قولٌ جامع

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام١٤]، إنَّه أمر الله للمُرسلين أن يكونوا أول المسلمين، مع الأمر لهم بالبراءة من المشركين:﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا صحيح الإسلام بالاستسلام والانقياد والبراءة، وذكر الله تعالى إجابة أنبيائه في كتابه، فقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة١٣١]، وعن نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس٧٢]، وعن نبينا محمد ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الزمر ١٢].

وإن كان الأمر بالإسلام لعموم المخاطبين وليس لخصوص الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء ١٧٠]، فأجاب داعي الله أهل السبق والصدق وصفوة الخلق فقال أتباع صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥]، وقال الحواريون أتباع عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران ٥٣]، وفي الصحابة رضوان الله عليهم:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة ١٠٠].

وأمر الله أنبيائه وعباده المسلمين بالاستقامة على دينه والثبات عليه حتى الممات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران ١٠٢]، وهي وصية الخليل عليه السلام لعقبه، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة ١٣٢]، ودعوة الصالحين من عباده: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[الاعراف١٢٦].

المطلب الأول: سبيل النجاة

إنَّ من أعزِّ الأحوال اليوم أن تحيا مسلماً وتموت مسلماً، فالمستمسك بدينه المُراعي لحرمات ربه المستقيم على أمره المُفاصل للجاهلية قابضٌ على الجمر يُدافع الفتنة بالصبر، في جهاد عظيم مع نفسه والشيطان والجاهلية في حمأة الشرك والكفر، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ»[1].

إن فتنةَ مساكنة المشركين تحت هذه الأنظمة الجاهلية التي تجرف الناس في سيلها النجس العرم ـ إلا من رحم الله ـ فتنة عظيمة على دين المسلم وأخلاقه وأهله وذراريه، والنجاة منها أمر عزيز يُبذل فيه الغالي والنفيس، ومفتاح ذلك بالفرار بالدين من الفتن، كما ورد عنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ»[2]، وقال الْفُضَيْلَ بْنَ

[1] رواه الترمذي في سننه برقم ٢٢٦٠ وقال هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَعُمَرُ بْنُ شَاكِرٍ شَيْخٌ بَصْرِيٌّ قَدْ رَوَى عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

[2] رواه البخاري برقم ١٩

عِيَاضٍ: «الْزَمُوا فِي آخِرِ الزَّمَانِ الصَّوَامِعَ، يَعْنِي الْبُيُوتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْجُو مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1] وقَالَ:

حَتَّى مَتَى لا نَرَى عَدْلًا نُسَرُّ بِهِ ... وَلَا نَرَى لِدُعَاةِ الْحَقِّ أَعْوَانَا

إنها العزلة: مقام عظيم من مقامات العبودية، تقتضي الانسلاخ من هذه الأقوام المشركة بالله تعالى ومفاصلتها، قال تعالى: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾ [مريم ٤٨]، **وقال تعالى:** ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود١١٣]، وفي الآية دلالة على وجوب هجران أهل المعاصي والكفر، فإن صحبتهم معصية أو كفر، فإن الصحبة غالبا لا تكون إلا عن مودة، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾ [المجادلة ٢٢]، **وقال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ ﴾ [النساء١٤٤]، "يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، **يَعْنِي مُصَاحَبَتَهُمْ وَمُصَادَقَتَهُمْ وَمُنَاصَحَتَهُمْ وَإِسْرَارَ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ**، وَإِفْشَاءَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةِ إِلَيْهِمْ"[2] فليحذر المسلم على دينه أن يزول وهو لا يشعر فإن كثرة المساس تميت الإحساس.

ومن المقامات العظيمة والمنازل الرفيعة بل هو الواجب المتحتم على جميع المسلمين في هذا الزمان: **الجهاد لإقامة دين الواحد الديان في الأرض**، قال تعالى: ﴿ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى ١٣]، **والجهاد في سبيل الله**

---

[1] رواه ابن بطة في الابانة برقم ٧٦١

[2] تفسير بن كثير ٢/٤٤١

أعلى مراتب البراءة من المشركين، قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ ﴾[الحج ٧٨]، إنه طريق جماعة المسلمين: الدعوة والجهاد، وهو طريق السابقين الأولين، وهو ذات الطريق الذي يجب على الصفوة في هذا الزمان سلوكه وإلا لتبدد جهدهم في ضياع، إنه الطريق الأوحد الذي لا مناص من مسارعة الخطى عليه ولامجال للوقوف أو التردد بين جنبيه فإن السكون دحض المزلة ومزاد المذلة .....إنه طريقٌ مليء بالأشواك والعثرات يحتاج إلى قلوبٍ ثابته وخطوات راسخة تتجاوز العقبات، وسواعد فتية تُزيل الحواجز المتراكمات، وأقدام تُعبّد سبيلاً مهجوراً قد خيم على جنباته دامس الظُلمات .... إنه الطريق إلى بناء حياض الجماعة المسلمة في غابة الجاهلية التي أطبقت على الأرض اليوم فلم يَعُد للمسلمين فيها شبرٌ ولا نصيب ... إنه طريق الهُدى الذي لايستوحشه أهل البصيرة لقلة السالكين ولا تغرنهم سُبل الغواية مع كثرة الهالكين، إنه طريق الصفوة: دعوة الناس إلى الإسلام والجهاد لإقامة دين الله في الأرض.

الطُّرُقُ شَتَّى وَطُرُقُ الْحَقِّ مُفْرَدَةٌ ... وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ آحَادُ
فَهُمْ عَلَى مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ
لَا يُطْلَبُونَ وَلَا تُبْغَى مَآثِرُهُمْ ... فَكُلُّهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ حُوَّادُ

المطلب الثاني: النهي عن الجدال والمراء والخصومات في الدين

واعلم وفقك الله لسلوك سبيل المؤمنين: أن الله نهى عن الجدال والمراء في الدين بقوله: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف ٥٨]، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ، ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ:﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[1]، وعَنْ قَتَادَةَ فِي

[1] رواه الترمذي برقم ٣٢٥٣ وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح.

قَوْلِهِ ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾[البقرة٢٠٤] قَال: «جَدَلٌ بَاطِلٌ»[١]، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[٢]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَهُوَ بَاطِلٌ بُنِيَ لَهُ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلاَهَا»[٣]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[الأنعام١٥٩]، قَالَ:«أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الاخْتِلافِ وَالْفُرْقَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دَيْنِ اللَّهُ»[٤]، وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ، عن مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمِرَاءَ، فَإِنَّهَا سَاعَةُ جَهْلِ الْعَالِمِ، وَبِهَا يَبْتَغِي الشَّيْطَانُ زَلَّتَهُ» [٥]، وعَنْ عَمْرو بْنِ قَيْسٍ قَالَ قُلْتُ لِلْحَكَمِ : مَا اضْطَرَ الْمُرْجِئَةُ إِلَى رَأْيِهِمْ قَالَ «الْخُصُومَاتُ»[٦].

وقال البربهاري: "واعلم - رحمك الله- أنها ما كانت زندقة قط، ولا كفر ولا شك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلا من الكلام وأصحاب الكلام والجدل والمراء والخصومة، والعجب وكيف يجترئ الرجل على المراء والخصومة والجدال، والله تعالى يقول: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [غافر ٣] فعليك بالتسليم والرضى بالآثار وأهل الآثار، والكف والسكوت"[٧].

وكان مِسْعَر يَقُولُ[٨]

---

[١] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٨٣٥

[٢] رواه البخاري برقم ٢٤٥٧ ومسلم برقم ٢٦٦٨

[٣] رواه الترمذي برقم ١٩٩٣ وقال وَهَذَا الحَدِيثُ حَدِيثٌ حَسَنٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ وَرْدَانَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ.

[٤] رواه ابن ابي حاتم برقم ٨١٥٨

[٥] أخرجه الآجري في الشريعة برقم ١١٣

[٦] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٨٤٩

[٧] شرح السنة للبربهاري ٨٧

[٨] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٩٤٩

إِنِّي مَنَحْتُكَ يَا كِدَامُ نَصِيحَتِي فَاسْمَعْ لِقَوْلِ أَبٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ
أَمَّا الْمَزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعْهُمَا خُلُقَانِ لَا أَرْضَاهُمَا لِصَدِيقِ
إِنِّي بَلَوْتُهُمَا فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا لِمُجَاوِرٍ جَارًا وَلَا لِرَفِيقِ

وبَوَّبَ ابن بطة في كتابه الإبانة الكبرى:" بَابُ تَرْكِ السُّؤَالِ عَمَّا لَا يُغْنِي وَالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيرِ عَمَّا لَا يَضُرُّ جَهْلُهُ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ قَوْمٍ يَتَعَمَّقُونَ فِي الْمَسَائِلِ وَيَتَعَمَّدُونَ إِدْخَالَ الشُّكُوكِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَالَ الشَّيْخُ: " اعْلَمُوا إِخْوَانِي أَنِّي فَكَّرْتُ فِي السَّبَبِ الَّذِي أَخْرَجَ أَقْوَامًا مِنَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَاضْطَرَّهُمْ إِلَى الْبِدْعَةِ وَالشَّنَاعَةِ، وَفَتَحَ بَابَ الْبَلِيَّةِ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ وَحَجَبَ نُورَ الْحَقِّ عَنْ بَصِيرَتِهِمْ، فَوَجَدْتُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْبَحْثُ وَالتَّنْقِيرُ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ عَمَّا لَا يُغْنِي، وَلَا يَضُرُّ الْعَاقِلَ جَهْلُهُ، وَلَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنَ فَهْمُهُ. وَالْآخَرُ: مُجَالَسَةُ مَنْ لَا تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ، وَتُفْسِدُ الْقُلُوبَ صُحْبَتُهُ، وَسَأَذْكُرُ فِي هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ مَا يَكُونُ فِيهِ بَلَاغٌ لِمَنْ قَبِلَ النَّصِيحَةَ، وَكَانَ بِقَلْبِهِ أَدْنَى حَيَاءً إِنْ شَاءَ اللَّهُ "وقال: " اللَّهَ اللَّهَ إِخْوَانِي يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، وَيَا حَمَلَةَ الْحَدِيثِ لَا تَنْظُرُوا فِيمَا لَا سَبِيلَ لِعُقُولِكُمْ إِلَيْهِ، وَلَا تَسْأَلُوا عَمَّا لَمْ يَتَقَدَّمْكُمُ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ عُلَمَائِكُمْ إِلَيْهِ، وَلَا تُكَلِّفُوا أَنْفُسَكُمْ مَا لَا قُوَّةَ بِأَبْدَانِكُمُ الضَّعِيفَةِ، وَلَا تُنَقِّرُوا، وَلَا تَبْحَثُوا عَنْ مَصُونِ الْغَيْبِ، وَمَكْنُونِ الْعُلُومِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْعُقُولِ غَايَةً تَنْتَهِي إِلَيْهَا، وَنِهَايَةً تُقْصَرُ عِنْدَهَا، فَمَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ، وَجَاءَ بِهِ الْأَثَرُ فَقُولُوهُ، وَمَا أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ"[1].

المطلب الثالث: قطاع الطرق

إنَّ مما عمت به البلوى في هذا الزمان: تَصَدُّرُ علماء السلاطين طواغيت العلم أولياء الشيطان، ـ الذين سبق الحديث عنهم في مقدمة الكتاب ـ فأفسدوا الدين وأقاموا سلطان الباطل المهين وشدُّوا بنيانه حتى أقاموا صرحه المتين، ومثلهم كما روي عَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قِيلَ

[1] الابانة الكبرى ٤٢٣/١

لِسُفْيَانَ: إِنَّ ابْنَ بِنْتِهِ يَقُولُ:« **سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْلِسُ فِي مَسَاجِدِهِمْ شَيَاطِينُ يُعَلِّمُونَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ**، قَالَ سُفْيَانُ: قَدْ بَلَغَنَا ذَلِكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْلِسُ فِي مَسَاجِدِهِمْ شَيَاطِينُ كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ قَدْ أَوْثَقَهُمْ فِي الْبَحْرِ يَخْرُجُونَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ أَمْرَ دِينِهِمْ»، قَالَ سُفْيَانُ: بَقِيَتْ أُمُورٌ عِظَامٌ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ: قَالَ زُهَيْرُ بْنُ عَبَّادٍ: يَعْنِي سُفْيَانَ: يُعَلِّمُونَ النَّاسَ فَيُدْخِلُونَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ الْأَهْوَاءَ الْمُحْدَثَةَ، **فَيُحِلُّونَ لَهُمُ الْحَرَامَ** وَيُشَكِّكُونَهُمْ فِي الْفَضْلِ وَالصَّبْرِ وَالسُّنَّةِ وَيُبْطِلُونَ فَضْلَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَيَأْمُرُونَهُمْ بِالْإِقْبَالِ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَهِيَ رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ"[١]، وعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ مَكْحُولًا يَقُولُ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ مَا يُوعَدُونَ حَتَّى يَكُونَ عَالِمُهُمْ فِيهِمْ أَنْتَنَ مِنْ جِيفَةِ حِمَارٍ»[٢]، وكذلك علماء هذا الزمان إلا من رحم الله.

وفي المقابل قد تكلم في دين الله تعالى من هب ودرج ـ مع تيسر سُبل التواصل وكثرت المنابر في هذا الزمان ـ فتَصَّدَر النكرات الأغمار فأُخذ العلم عن الشرار الصغار، فاجتهدوا في توليد المسائل وتفريعها والخوض في المغاليط وشرارها، فاختلفوا وساءت أخلاقهم حتى خفت صوتهم وانفضَّ الناس من حولهم واندثروا وذهب ريحهم، بعد أن تشوهت على أيديهم صورة الدعوة الصحيحة بقبيح جهلهم و سوء أخلاقهم، واتبعوا سبيل من قبلهم فبحثوا ونقَّروا حتى تاهوا وتحيَّروا، قَالَ سَالِمِ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ:«إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ بَحَثُوا، وَنَقَّرُوا حَتَّى تَاهُوا»[٣]، وحالهم كما قال يحي بن معاذ الرازي :«وَالطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ: فَهُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الدِّينِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْعُقُولِ، وَيَحْمِلُونَ النَّاسَ

---

[١] البدع لابن الوضاح برقم ٢٣٥

[٢] أخلاق العلماء لآجري ٨٨/١

[٣] الابانة الكبرى برقم ٣٠٩

عَلَى قِيَاسِ أَفْهَامِهِمْ، قَدْ بَلَغَ مِنْ فِتْنَةِ أَحَدِهِمْ، وَتَمَكُّنِ الشَّكِّ مِنْ قَلْبِهِ، أَنَّكَ تَرَاهُ يَحْتَجُّ عَلَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَدْ خَصَمَهُ بِهَا، وَهُوَ نَفْسُهُ مِنْ تِلْكَ الْحُجَّةِ فِي شَكٍّ، لَيْسَ يَعْتَقِدُهَا، وَلَا يَجْهَلُ ضَعْفَهَا، وَلَا دِيَانَةَ لَهُ فِيهَا، إِنْ عُرِضَتْ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ حُجَّةٌ هِيَ أَلْطَفُ مِنْهَا انْتَقَلَ إِلَيْهَا فَدِينُهُ مَحْمُولٌ عَلَى سَفِينَةِ الْفِتَنِ يَسِيرُ بِهَا فِي بُحُورِ الْمَهَالِكِ يَسُوقُهَا الْخَطَرُ، وَيَسُوسُهَا الْحِيرَةُ..... فَكَفَى بِهِمْ خِزْيًا سُقُوطُهُمْ مِنْ عُيُونِ الصَّالِحِينَ، يُقْتَصَرُ فِيهِمْ عَلَى مَا قَدْ لَزِمَهُمْ فِي الْأُمَّةِ مِنْ قَالَةِ السُّوءِ، وَأُلْبِسُوا مِنْ أَثْوَابِ التُّهَمَةِ، وَاسْتَوْحَشَ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَهَى عَنْ مُجَالَسَتِهِمُ الْعُلَمَاءُ، وَكَرِهَتْهُمُ الْحُكَمَاءُ، وَاسْتَنْكَرَتْهُمُ الْأُدَبَاءُ، وَقَامَتْ مِنْهُمْ فِرَاسَةُ الْبُصَرَاءِ، شَكَّاكُونَ جَاهِلُونَ، وَوَسْوَاسُونَ مُتَحَيِّرُونَ، فَإِذَا رَأَيْتَ الْمُرِيدَ يُطِيفُ بِنَاحِيَتِهِمْ فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ، وَلَا تُجَالِسْهُ»[١].

وليس كل من تكلم في مسألة أو آثار معضلة يُلتفت إليه ويُنظر في قوله أو يُناظر عليه، بل السنة في أمثالهم أن يُعلى بجريدِ النخل والنعال على رأسه حتى يذهب الذي فيه من شبهات ووساوس وأهواء، سنة عمر ﷺ في صبيغ بن عسل[٢]، قال الخلال:" وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونُوا كُلَّمَا تَكَلَّمَ جَاهِلٌ بِجَهْلِهِ أَنْ يُجِيبُوهُ، وَيُحَاجُّوهُ، وَيُنَاظِرُوهُ، فَيُشْرِكُوهُ فِي مَأْثَمِهِ، وَيَخُوضُوا مَعَهُ فِي بَحْرِ خَطَايَاهُ، وَلَوْ شَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُنَاظِرَ صَبِيغًا،

---

[١] الابانة الكبرى برقم ٣٠٩

[٢] عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يُقَالُ لَهُ: صَبِيغُ بْنُ عَسَلٍ، قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ كُتُبٌ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ جَلَسَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ صَبِيغٌ فَقَالَ عُمَرُ: وَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ عُمَرُ، ثُمَّ أَهْوَى إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِتِلْكَ الْعَرَاجِينِ، فَمَا زَالَ يَضْرِبُهُ حَتَّى شَجَّهُ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ وَاللَّهِ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ فِي رَأْسِي قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾[الذاريات: ٢] اسْتَحَقَّ الضَّرْبَ، وَالتَّنْكِيلَ بِهِ وَالْهِجْرَةَ قِيلَ لَهُ: لَمْ يَكُنْ ضَرْبُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ بِسَبَبٍ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَلَكِنْ لَمَّا تَأَدَّى إِلَى عُمَرَ مَا كَانَ يَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرَاهُ عَلِمَ أَنَّهُ مَفْتُونٌ، قَدْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ، وَعَلِمَ أَنَّ اشْتِغَالَهُ بِطَلَبِ عِلْمِ الْوَاجِبَاتِ مِنْ عِلْمِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ أَوْلَى بِهِ ، وَتَطَلُّبُ عِلْمِ سُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْلَى بِهِ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلَى مَا لَا يَنْفَعُهُ، سَأَلَ عُمَرُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْهُ، حَتَّى يُنَكِّلَ بِهِ، وحَتَّى: يُحَذِّرُ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُ رَاعٍ يَجِبُ عَلَيْهِ تَفَقُّدُ رَعِيَّتِهِ فِي هَذَا وَفِي غَيْرِهِ، فَأَمْكَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَيَكُونُ أَقْوَامٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِمُتَشَابَهِ الْقُرْآنِ فَخُذُوهُمْ بِالسُّنَنِ، فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى" الشريعة للآجري برقم ١٥٣

وَيَجْمَعَ لَهُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يُنَاظِرُوهُ، وَيُحَاجُّوهُ، وَيَبِينُوا عَلَيْهِ لَفَعَلَ، وَلَكِنَّهُ قَمَعَ جَهْلَهُ، وَأَوْجَعَ ضَرْبَهُ، وَنَفَاهُ فِي جِلْدِهِ، وَتَرَكَهُ يَتَغَصَّصُ بِرِيقِهِ، وَيَنْقَطِعُ قَلْبُهُ حَسْرَةً بَيْنَ ظَهْرَانَيِ النَّاسِ مَطْرُودًا، مَنْفِيًّا، مُشَرَّدًا، لَا يُكَلَّمُ وَلَا يُجَالَسُ، وَلَا يُشْفَى بِالْحُجَّةِ وَالنَّظَرِ، بَلْ تَرَكَهُ يَخْتَنِقُ عَلَى حِرَّتِهِ، وَلَمْ يُبَلِّغْهُ رِيقَهُ، وَمَنَعَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِهِ وَمُجَالَسَتِهِ، فَهَكَذَا حُكْمُ كُلِّ مَنْ شَرَعَ فِي دِينِ اللَّهِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، أَنْ يُخْبِرَ أَنَّهُ عَلَى بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ، فَيُحَذِّرُ مِنْهُ وَيَنْهَى عَنْ كَلَامِهِ وَمُجَالَسَتِهِ"[١].

وروى الخلال قال: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ، فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَمَّا أَنْكَرَ عَلَى الَّذِي قَالَ: لَمْ يُجْبِرْ، وَعَلَى مَنْ رَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: كُلَّمَا ابْتَدَعَ رَجُلٌ بِدْعَةً اتَّسَعُوا فِي جَوَابِهَا، وَقَالَ: يَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ الَّذِي رَدَّ عَلَيْهِمْ بِمُحْدَثَةٍ، وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ رَدَّ بِشَيْءٍ مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهَا إِمَامٌ تَقَدَّمَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ: فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ قَدِمَ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ مِنْ عُكْبَرَا، وَمَعَهُ شِيَخَةٌ، وَكِتَابٌ مِنْ أَهْلِ عُكْبَرا، فَأَدْخَلْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هُوَ ذَا الْكِتَابُ، ادْفَعْهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ حَتَّى يُقَطِّعَهُ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَى مِنْبَرِ عُكْبَرَا وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ لِي: يَنْبَغِي أَنْ تَقْبَلُوا وَتَرْجِعُوا لَهُ"[٢].

وقد انحرف كثير من المنتسبين إلى هذه الدعوة عن هذا المنهج القويم وزلت بهم القدم إلى الريب والشكوك وكثرة التنقل، ومن أسباب ذلك اتخاذ رؤوس الجهالة ومنابع الضلالة كما ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[٣]، وفي الحديث دلالة على أنَّ الناس يؤتون من قبل الجهال إذا أفتوهم ولبَّسوا عليهم، ولا يؤتون من

---

[١] السنة للخلال ٢٢٣/١

[٢] رواه الخلال في السنة برقم ٩٢٦

[٣] رواه البخاري برقم ١٠٠ ومسلم برقم ٢٦٧٣

قبل العلماء العاملين، وسُئِلَ ابْنَ الْمُبَارَكِ: «هَلْ لِلْعُلَمَاءِ عَلامَةٌ يُعْرَفُونَ بِهَا؟ قَالَ:« عَلامَةٌ الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَاسْتَقَلَّ كَثِيرَ الْعَمَلِ مِنْ نَفْسِهِ وَرَغِبَ فِي عِلْمِ غَيْرِهِ وَقَبِلَ الْحَقَّ مِنْ كُلِّ مَنْ أَتَاهُ بِهِ وَأَخَذَ الْعِلْمَ حَيْثُ وَجَدَهُ فَهَذِهِ عَلامَةُ الْعَالِمِ وَصِفَتُهُ»[1]، فتفرقوا شذر مذر كل حزب بما لديهم فرحون كما قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾[الأنعام١٥٩]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فِي قَوْلِهِ: :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾، قَالَ: «هُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَوْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ»[2]، وعن عمرو أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيًّا قَرَأَ عِنْدَهُ رَجُلٌ الَّتِي فِي الْأَنْعَامِ: ﴿ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾، فَقَالَ عَلِيٌّ:« لَا مَا فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ فارقوا دينهم»[3]، وعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فِي قَوْلِهِ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾ قَالَ:« هُمْ أَصْحَابُ الْخُصُومَاتِ والمراء فِي دين الله»[4].

والمتقرر أن جميع ما يحتاجه المسلمون في دينهم قد بينه الله في كتابه ورسوله ﷺ في سنته، قال تعالى:﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾[الأنعام ٣٨] ، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»[5].

والذي يتعين على المسلم الاعتناء به هو ما جاء عن الله ورسوله ﷺ والاجتهاد في فهم ذلك والوقوف على معانيه والعلم والعمل به، وأما توليد

[1] طبقات الحنابلة ٢م١٥٠

[2] رواه ابن أبي حاتم برقم ٥١٨١

[3] رواه ابن أبي حاتم برقم ٥١٨٢

[4] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٧٦٧

[5] رواه مسلم في صحيحه برقه ١٣٠

المسائل الكلامية وإثارتها بين الحديثي عهد بإسلام، باب شرٍ عظيم لما فيه من كثرة الخصومات وافتراق القلوب والتحزبات، وما يترتب على ذلك من الشحناء والبغضاء وتبادل التكفير على طريقة أهل البدع والضلالة، وما يقترن بذلك من نية المغالبة وطلب العُلو ولفت الوجوه وكثرة المتابعة على منابر الضلالة، وكلها قوادح في النيات والله المستعان، قَالَ الْحَسَنُ: «شِرَارُ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ شِرَارَ الْمَسَائِلِ يُعْمُونَ بِهَا عِبَادَ اللَّه»[1]، "وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْرِمَ عَبْدَهُ بَرَكَةَ الْعِلْمِ، أَلْقَى عَلَى لِسَانِهِ الْمَغَالِيطَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ أَقَلَّ النَّاسِ عِلْمًا»، وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ: «أَدْرَكْتُ هَذِهِ الْبَلْدَةَ، وَإِنَّهُمْ لَيَكْرَهُونَ الْإِكْثَارَ الَّذِي فِيهِ النَّاسُ الْيَوْمَ. يُرِيدُ الْمَسَائِلَ. وَقَالَ أَيْضًا: سَمِعْتُ مَالِكًا وَهُوَ يَعِيبُ كَثْرَةَ الْكَلَامِ وَكَثْرَةَ الْفُتْيَا، ثُمَّ قَالَ: «يَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ مُغْتَلِمٌ يَقُولُ: هُوَ كَذَا، هُوَ كَذَا يَهْدِرُ فِي كَلَامِهِ»[2].

ويزداد الأمر شناعةً والخائضون فيه انحرافاً عن منهج السلف إذا كانت المسائل تُطرح على طريقة أهل الكلام وأصولهم وتُحَكَّمُ فيها العقول ويُحَادُ فيها عن المنقول، كما هو حال الكثير من المعرفات النكرات التي تصرف همم الناس وأنظارهم إلى مسائل عقلية كلامية، فيُنَفِّرُون عن هذه الدعوة ويصرفون الناس عنها بما أحدثوه وتنازعوا فيه، فكان كلامهم نصرةً لمقالهم وعزةً لأنفسهم وطلباً للرياسة على غيرهم، فعن عبد الله بن مبارك قال: قيل لحمدون بن أحمد: «ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا، قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق»[3].

---

[1] الابانة الكبرى برقم ٣٠٤

[2] جامع العلوم والحكم ٢٤٧/١

[3] صفة الصفوة ٣١٤/٢

والنجاة من ذلك كله ما قاله ابن بطة : "وعَلَامَةُ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، وَكَانَ مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْ مَوْلَاهُ الْكَرِيمِ عِنَايَةٌ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ بَابُ الدُّعَاءِ بِاللَّجَاءِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالسَّلَامَةِ وَالنَّجَا، وَيُهَبُ لَهُ الصَّمْتُ إِلَّا بِمَا لِلَّهِ فِيهِ رِضًى وَلِدِينِهِ فِيهِ صَلَاحٌ، وَأَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلِسَانِهِ عَارِفًا بِأَهْلِ زَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ قَدْ تَرَكَ الْخَوْضَ وَالْكَلَامَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَالْمَسْأَلَةَ وَالْإِخْبَارَ بِمَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ هَلَاكُهُ، لَا يُحِبُّ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا يُبْغِضُ إِلَّا لِلَّهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْفِتَنَ وَالْأَهْوَاءَ قَدْ فَضَحَتْ خَلْقًا كَثِيرًا وَكَشَفَتْ أَسْتَارَهُمْ عَنْ أَحْوَالٍ قَبِيحَةٍ، فَإِنَّ أَصْوَنَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَحْفَظُهُمْ لِلِسَانِهِ وَأَشْغَلُهُمْ بِدِينِهِ وَأَتْرَكُهُمْ لِمَا لَا يَعْنِيهِ"[1].

والسلامة لدين المرء المسلم عدم النظر فيما يهرفون والإعراض عما فيه يخوضون، وهجر منابرهم ومجالسهم والتحذير من بدعهم وأعيانهم، قال تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام ٦٨] ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ:« كَانَ مُحَمَّدٌ يَرَى أَنَّ أَسْرَعَ النَّاسِ رِدَّةً أَهْلُ الْأَهْوَاءِ، وَكَانَ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ فِيهِمْ :﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾»[2]، وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ: «لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا تَعْرِفُونَ»[3].

المطلب الرابع: لزوم غرز الصحابة والتابعين لهم بإحسان

واعلم هداك الله لما يحبه ويرضاه: أن النجاة في لزوم غرز الصحابة الكرام، الرعيل الأول الذين شقّوا طريق الحقّ والهداية والخيرية، فكان لهم فضل

[1] الابانة الكبرى ٢/٥٩٦

[2] روا ابن بطة في الابانة الكبرى برقم ٣٥٣ وعند الهروي بسنده :" **قَالَ «كَانَ رَأْيُ مُحَمَّدٍ يَعْنِي ابْنَ سِيرِينَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ»** ذم الكلام برقم ٧٥٩

[3] رواه ابن بطة في الابانة الكبرى برقم ٣٦٤

السبق الذي لا يداينه فضل ونالوا شرف صحبتهم رسول الله ﷺ فلا يدانيه شرف، وبذلوا نفوسهم وأرواحهم رخيصة دفاعاً عن رسول الله ﷺ ونصرةً لدينه ورغبة فيما عند الله من فسيح جنانه، قال تعالى:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[الفتح ٢٩]، وقد خصّ اللهُ تعالى الصّحابةَ رضي اللهُ عنهم بتوقُّدِ الأذهانِ وفصاحةِ اللّسانِ، فالعربيّةُ طبيعتُهم وسليقتُهم، والمعاني الصّحيحةُ مركوزةٌ في فِطَرِهم وعقولِهم، شهدوا التّنزيلَ وعرفوا التّأويلَ ووقفوا مِن أحوالِ النّبيِّ ﷺ ومرادِه من كلامِه على ما لم يقفْ عليه غيرُهم، فكانوا أبرَّ الأمّةِ قلوبًا وأعمقَهم علمًا وأقلَّهم تكلُّفًا، وقد أثنى اللهُ عليهم بقولِه سبحانَه:﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران ١١٠]، ومن النصوص الواردة في فضل الصحابة ووجوب اتباع سبيلهم:

❁ قال تعالى:﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة ١٠٠] عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: :﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ قَالَ: «هُمُ الَّذِينَ صَلُّوا الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[١]، وعَنْ عَامِرٍ : «مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ- وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠٣٠٠

سِيرِينَ: مِثْلُ ذَلِكَ»[١]، وعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: «وَمَا رَأْيِ امرِئٍ فِي أَمْرٍ بَلَغَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا اتِّبَاعُهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ فِيهِ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ **كَانُوا أَوْلَى فِيهِ بِالْحَقِّ مِنَّا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ** إِيَّاهُمْ فَقَالَ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾وَقُلْتُمْ أَنْتُمْ لَا بَلْ نَعْرِضُهَا عَلَى رَأْيِنَا فِي الْكِتَابِ فَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا صَدَّقْنَاهُ وَمَا خَالَفَهُ تَرَكْنَاهُ وَتِلْكَ غَايَةُ كُلِّ مُحْدِثٍ فِي الْإِسْلَامِ رَدُّ مَا خَالَفَ رَأْيَهُ مِنَ السُّنَّةِ»[٢].

واحتج الإمام مالك بهذه الآية على وجوب اتباع الصحابة رضوان الله عليهم[٣]، فرضيَ الله عمن اتبع السابقين الأولين إلى يوم القيامة فدل على أنَّ مُتابِعهم عَاملٌ بما يرضى الله والله لا يرضى لعباده إلا بالحق، ولا يرضى لعباده اتباع بالباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾[الزمر ٧].

وقال البغوي:" قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ﴾، الَّذِينَ هَاجَرُوا قَوْمَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ وَفَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ، ﴿وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ أَيْ: وَمِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُمُ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَآوَوْا أَصْحَابَهُ،﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾، قيل: بَقِيَّةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ سِوَى السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ.

وَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ سَلَكُوا سَبِيلَهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ أَوِ النُّصْرَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: هُمُ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ بِالتَّرَحُّمِ وَالدُّعَاءِ.

وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ حُمَيْدُ بْنُ زِيَادٍ: «أَتَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: مَا قَوْلُكَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: جَمِيعُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ مُحْسِنُهُمْ وَمُسِيئُهُمْ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَقُولُ هَذَا؟ فَقَالَ: اقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ١٠٣٠٢

[٢] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٩١١

[٣] انظر إعلام الموقعين ١٢٣/٤

تَعَالَى: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، إِلَى أَنْ قَالَ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَقَالَ: وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، **شَرَطَ فِي التَّابِعَيْنِ شَرِيطَةً وَهِيَ أَنْ يَتْبَعُوهُمْ فِي أَفْعَالِهِمُ الْحَسَنَةِ** دُونَ السَّيِّئَةِ. قَالَ أَبُو صَخْرٍ: فَكَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الآية قط»[1].

❁ **وقال تعالى:** ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة ١٣٧]، **قَالَ الزّجاج:** "مَعْنَاهُ فَإِن أَتَوا بِإِيمَان كإيمانكم، وتصديق كتصديقكم، وتوحيد كتوحيدكم، وَقَالَ أَبُو معَاذ النَّحْوِيّ: مَعْنَاهُ فَإِن آمنُوا بِكِتَابِكُمْ كَمَا آمنتم بِكِتَابِهِمْ"[2].

❁ **وقال تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال ٧٤]، **وقال تعالى:** ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح ١٨]، **وقال تعالى:** ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة ١١٧]، ونحو هذه الآيات التي فيها تسطير الرضا وأنهم كانوا على الهدى وفيها أعظم المدح والثناء، وهذا كله تنبيه للأمة على صحة مسلكهم ووضوح منهجهم والأمر باتباع آثارهم، وأن فهمهم هو الفهم الصحيح، وما سواه مما عارضه من أقوال المتأخرين هو فهم سقيم عاطل ورأي باطل، ولأن هذا المدح والثناء دليل على أن ما كانوا عليه من العقيدة والعمل هو الحق وماذا بعد الحق إلا

[1] تفسير البغوي ٢/٣٨٢

[2] تفسير السمعاني ١/١٤٦

الضلال، فمن كان على مثل ما كانوا عليه من العلم والهدى ودين الحق فقد فاز وأفلح ودخل في هذا الثناء العاطر ومن خالف فهو الشقي الخاسر .

❁ وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النِّسَاءِ:٥٩]، عَنِ الضَّحَّاكِ قَوْلَهُ: ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ قَالَ: «هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، هُمُ الدُّعَاةُ الرُّوَاةُ»[١].

❁وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ﴾[النمل٥٩]، قال ابن عباس: «هم أصحاب محمد ﷺ»[٢].

❁ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة ١١٩]، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ نَافِعِ ابن عُمَرَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ: «مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ»[٣].

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ﴾[لقمان١٥]، والصحابة مُنيبون إلى الله تعالى فيجب اتباع سبيلهم ، وأقوالهم واعتقاداتهم هو سبيلهم، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى قوله تعالى: ﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى١٣]، والصحابة أكمل الأمة هداية فلا كان ولا يكون بعدهم أحد مثلهم.

ومن محاسن الاتباع: الوقوف فيما وقف فيه الصحابة والتابعين لهم بإحسان، والامساك عما نهو عن الخوض فيه: كالقدر وأطفال المشركين وما شجر بين أصحاب النبي ﷺ كما جاءت به الآثار ومنها:

---

[١] رواه ابن أبي حاتم برقم ٥٥٣٩

[٢] تفسير ابن كثير ٣/٣٨١، فتح القدير ٤/١٤٨

[٣] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٠٠٩٧

❁ عـن أَبـي هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، يَقُـولُ: سُـئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَـنْ ذَرَارِيِّ المُشْـرِكِينَ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»[١].

❁ وعـن أَبـي رَجَـاءٍ الْعُطَـارِدِيُّ، يَقُـولُ: سَـمِعْتُ ابْـنَ عَبَّـاسٍ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهُمَـا، يَقُـولُ: قَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ: «لَا يَـزَالُ أَمْـرُ هَـذِهِ الْأُمَّـةِ مُـؤَامِرًا - أَوْ قَـالَ مُقَارِبًـا - مَـا لَـمْ يَتَكَلَّمُـوا فِي الْوِلْـدَانِ وَالْقَـدَرِ»"[٢]قَـالَ أَبُـو حَـاتِمٍ: «الْوِلْـدَانُ أَرَادَ بِـهِ أَطْفَـالَ الْمُشْرِكِينَ»[٣].

❁ وقَـالَ يَحْيَى بْـنُ آدَمَ: «قَـدْ ذَكَرْتُـهُ لِابْـنِ الْمُبَـارَكِ فَقَـالَ أَفَيَسْـكُتُ الْإِنْسَـانُ عَلَـى الْجَهْلِ قُلْتُ فَتَأْمُرُ بِالْكَلَامِ فَسَكَتَ»[٤].

❁ وَذَكَـرَ الْمَـرْوَزِيُّ قَـالَ حَـدَّثَنَا عَمْـرُو بْـنُ زُرَارَةَ قَـالَ أَخْبَرَنَـا إِسْـمَاعِيلُ عَـنِ ابْـنِ عَـوْنٍ قَـالَ كُنْـتُ عِنْـدَ الْقَاسِـمِ بْـنِ مُحَمَّـدٍ إِذْ جَـاءَهُ رَجُـلٌ فَقَـالَ مَـاذَا كَـانَ بَـيْنَ قَتَـادَةَ وَبَـيْنَ حَفْـصِ بْـنِ عُمَيْـرٍ فِي أَوْلَادِ الْمُشْـرِكِينَ قَـالَ: أو تكلـم رَبِيعَـةُ الـرَّأْيَ فِي ذَلِـكَ فَقَـالَ الْقَاسِـمُ:« إِذَا اللَّـهُ انْتَهَى عِنْـدَ شَـيْءٍ فَـانْتَهُوا وَقِفُـوا عِنْـدَهُ قَـالَ فَكَأَنَّمَـا كَانَـتْ نَارًا فَأُطْفِئَتْ»[٥].

❁ وعَـنْ مَيْمُـونِ بْـنِ مِهْـرَانَ قَـالَ: «ثَـلَاثٌ ارْفُضُـوهُنَّ: مَـا شَـجَرَ بَـيْنَ أَصْحَابِ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ وَالنُّجُومُ وَالنَّظَرُ فِي الْقَدَرِ»[٦].

---

[١] رواه البخاري برقم ١٣٨٤ ومسلم برقم ٢٦٥٩

[٢] رواه الحاكم في المستدرك برقم ٩٣ «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا نَعْلَمُ لَهُ عِلَّةً وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» قال الذهبي على شرطهما ولا علة له

[٣] صحيح ابن حبان ١١٩/١٥

[٤] التمهيد ١٣١/١٨

[٥] التمهيد ١٣٢/١٨

[٦] رواه ابن بطة في الابانة الكبرى برقم ١٢٨١

وقـال الإمـام أحمـد رحمـه اللـه:" ومـن السـنَّة ذكـرُ محاسـن أصحاب رسـول اللـه ﷺ كلِّهـم أجمعـين، والكـفّ عـن الـذي جـرى بيـنهم، فمَـن سـبَّ أصحابَ رسـول اللـه ﷺ أو وأحـداً مـنهم فهـو مبتـدعٌ رافضـيٌّ، حـبُّهم سـنَّةٌ والـدعاءُ لهـم قربـةٌ والاقتداءُ بهم وسيلةٌ والأخذُ بآثارهم فضيلةٌ"[١].

وقـال ابـن أبـي زيـد القيرواني:" وأنَّ خيرَ القـرون القـرنُ الـذين رأوا رسـولَ اللـه ﷺ وآمنـوا بـه، ثـمَّ الـذين يلـونهم، ثـمَّ الـذين يلـونهم، وأفضـل الصـحابة الخلفـاءُ الراشـدون المهـديّون: أبـو بكـر ثـم عمـر ثـم عثمـان ثـم علـيّ رضـي اللـه عـنهم أجمعـين، وأن لا يُـذكر أحـدٌ مـن صـحابة الرسـول ﷺ إلاَّ بأحسـن ذكـرٍ، والإمسـاك عمَّـا شـجر بيـنهم، وأنَّهـم أحـقُّ النـاس أن يُلـتمس لهـم أحسـن المخـارج، ويُظنَّ بهم أحسنَ المذاهب"[٢]

وقـال أبـو زرعـة الـرازي:" إذا رأيـت الرجـل ينـتقص أحـدًا مـن أصحاب رسـول اللـه ﷺ فـاعلم أنـه زنـديق، وذلـك أن الرسـول ﷺ حـق، والقـرآن الكـريم حـق، ومـا جـاء بـه حـق، وإنمـا أدى إلينـا ذلـك كلـه الصـحابة، وهـؤلاء يريـدون أن يجرحـوا شـهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة "[٣].

واعلـم أن مـن الطوائـف الضـالة: طائفـة شـذت عـن مـنهج الصـحابة رضـوان اللـه علـيهم، وحملـت معـول هـدم الـدين بـالطعن في فهـوم نقلـة هـدي النبـي الأمـين ﷺ، فخرجـت علـى أقـوالهم وهـديهم وطعنـت في وفـاقهم وإجمـاعهم، ونصَّـبت الجهلـة أئمـة دونهـم، قـال أحمـد بـن حنبـل رحمـه اللـه تعـالى: "أصـول السـنة عنـدنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم"[٤].

والطعـن في إجمـاع الصـحابة والخـروج علـى قـولهم أو عملهـم هـو سـبيل أهـل البـدع مـن الخـوارج والنظاميـة والمعتزلـة والرافضـة والجهميـة الـذين خرجـوا

[١] السنة للإمام أحمد ص/١٧، الصارم المسلول ص/٥٦٨، طبقات الحنابلة ١/ ٣٠.

[٢] الرسالة ١/ ٩

[٣] الكفاية في علم الرواية، ص ٩٧، وانظر: الإصابة، ١ / ١٠.

[٤] أصول السنة ص١٤

على فهومهم وجماعتهم وأحدثوا في دين الله مقالات وأعمال فارقوا بها جماعة المسلمين، قال ابن عباس للخوارج حين ناظرهم: «جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله»[1]، وقال السمعاني:" واجتمعت الأمة على تكفير الإمامية لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة وينكرون إجماعهم وينسبونهم إلى ما يليق بهم"[2]، وقال أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني:" ومن قول أهل السنة: أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، لأن الخوارج اجتهدوا في التأويل **فلم يعذروا إذ خرجوا بتأويلهم عن الصحابة** فسماهم عليه الصلاة والسلام مارقين من الدين، وجعل المجتهد في الأحكام مأجورا وإن أخطأ"[3].

وقال الشافعي في رسالته البغدادية التي رواها عنه الحسن بن محمد الزعفراني: "وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، أدوا إلينا سنن رسول الله ﷺ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ عاما وخاصا وعزما وإرشادا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد، وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكي لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول، **ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله**"[4]، وهذا قول جامع من الشافعي رحمه الله تعالى.

---

[1] جامع بيان العلم وفضله ٢/١٢٧

[2] الأنساب ٦/٣٦٥

[3] الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ ص، ١٢١

[4] إعلام الموقعين ١/٦٣

وقَــالَ ابــن بطــة:" وَلْــيَعْلَمِ الْمُؤْمِنُــونَ مِــنْ أَهْــلِ الْعَقْــلِ وَالْعِلْــمِ أَنَّ قَوْمًــا يُرِيــدُونَ إِبْطَــالَ الشَّــرِيعَةِ وَدُرُوسَ آثَــارِ الْعِلْــمِ وَالسُّــنَّةِ، فَهُــمْ يُمَوِّهُــونَ عَلَــى مَــنْ قَــلَّ عِلْمُــهُ وَضَــعُفَ قَلْبُــهُ بِــأَنَّهُمْ يَــدْعُونَ إِلَى كِتَــابِ اللَّــهِ وَيَعْمَلُــونَ بِــهِ، وَهُــمْ مِــنْ كِتَــابِ اللَّــهِ يَهْرُبُــونَ وَعَنْــهُ يُــدْبِرُونَ، وَلَــهُ يُخَــالِفُونَ وَذَلِــكَ أَنَّهُــمْ إِذَا سَــمِعُوا سُــنَّةً رُوِيَــتْ عَــنْ رَسُــولِ اللَّــهِ ﷺ رَوَاهَــا الْأَكَــابِرُ عَــنِ الْأَكَــابِرِ وَنَقَلَهَــا أَهْــلُ الْعَدَالَــةِ وَالْأَمَانَــةِ، وَمَــنْ كَــانَ مَوْضِــعَ الْقُــدْوَةِ وَالْأَمَانَــةِ وَأَجْمَــعَ أَئِمَّــةُ الْمُسْــلِمِينَ عَلَــى صِــحَّتِهَا أَوْ حَكَــمَ فُقَهَــاؤُهُمْ بِهَــا، عَارَضُــوا تِلْــكَ السُّــنَّةَ بِــالْخِلَافِ عَلَيْهَــا وَتَلَقَّوْهَــا بِــالرَّدِّ لَهَــا، وَقَــالُوا لِمَــنْ رَوَاهَــا عِنْــدَهُمْ: تَجِــدُ هَــذَا فِي كِتَــابِ اللَّــهِ؟ وَهَــلْ نَــزَلَ هَــذَا فِي الْقُــرْآنِ؟ وَأْتُــونِي بِآيَــةٍ مِــنْ كِتَــابِ اللَّــهِ حَتَّــى أُصَــدِّقَ بِهَــذَا، فَــاعْلَمُوا رَحِمَكُــمُ اللَّــهُ أَنَّ قَائِــلَ هَــذِهِ الْمَقَالَــةِ إِنَّمَــا تَرَقَّــقَ عَــنْ صَــبُوحٍ وَيُسْــرٍ خَبِيئًــا فِي إِرْبِغَــاءَ يَتَحَلَّــى بِحِلْيَــةِ الْمُسْــلِمِينَ **وَيُضْــمِرُ عَلَــى طَوِيَّــةِ الْمُلْحِــدِينَ، يُظْهِــرُ الْإِسْــلَامَ بِــدَعْوَاهُ وَيَجْحَــدُهُ بِسِــرِّهِ وَهَــوَاهُ**، فَسَــبِيلُ الْعَاقِــلِ الْعَــالِمِ إِذَا سَــمِعَ قَائِــلَ هَــذِهِ الْمَقَالَــةِ أَنْ يَقُــولَ لَــهُ: يَــا جَــاهِلًا فِي الْحَــقِّ، خَبِيثًا فِي الْبَاطِنِ، يَا مَنْ خُطِّئَ بِهِ طَرِيقُ الرَّشَادِ وَسَبِيلُ أَهْلِ السَّدَادِ"[١].



[١] الابانة الكبرى ١م٢٢٤

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس ٥٨]، قال هلال بن يساف:« بالإسلام الذي هداكم، وبالقرآن الذي علّمكم»[١]، وكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَأْتِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمٍ فَيَقُولُ:« يَا إِبْرَاهِيمُ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَقْبِضَنَا عَلَى التَّوْحِيدِ»[٢]، وعن أحمد بن الحواري قال:« سمعت شعيب بن حرب يقول لرجل: إن دخلت القبر ومعك الإسلام فأبشر»[٣] ... إنها البشرى العظيمة، إنها النجاة من سُبل الشيطان وسبيل المجرمين وطرق الغواية، النجاة من نار حرها شديد وقعرها بعيد، إنها النجاة لمن تحقق بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر ١٧]، وحقيقٌ أن يقال للناجي اليوم: ويحه كيف نجا!!.

لقد عاد الإسلام غريبا كما بدأ، وإنه اليوم لأشد غربة في هذه الجاهلية التي طمست على الناس بصائرهم وختمت على قلوبهم فهم لا يفقهون ولا يعقلون ولا يسمعون كما قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[الفرقان ٤٤]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا، وَمَنَعَتِ الشَّأْمُ مُدْيَهَا وَدِينَارَهَا، وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ» شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ لَحْمُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَدَمُهُ»[٤]، وعَنْ

[١] رواه الطبري في تفسيره برقم ١٧٦٦٩

[٢] الثبات عند الممات لابن الجوزي ٨٠/١

[٣] صفة الصفوة ٥/٢

[٤] رواه مسلم برقم ٢٨٩٦

عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ»[1]، وتالله إنه لهذا الزمان.

إنَّ من شرح الله صدره بالتوحيد واستنار قلبه بالإيمان ثم نظر من علو الإسلام إلى الظلام البهيم والجاهلية النكراء، علم قدر النعمة التي أنعم الله عليه بها، ومن تقررت عنده المسائل على أصولها الصحيحة من الكتاب والسنة وفهم كلام الله على مراد الله واستنار بفهم صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، وفتح الله عليه في هذا الباب العظيم الذي زلت فيه أقدام وزاغت عنه أفهام وحادت عنه أقوام ... من استمسك بالنصوص المحكمات والآيات البينات تساقطت حوله الشبهات وبان له عوارها وانكشف عنه زيفها، فمن عرف الإسلام وحدَّه والجاهلية ووصفها عرف أهلهما، ومن عرف منهج القرآن والسنة في هذه القضية العظيمة المتعلقة بأسماء الدين وأحكامه، أيقن أن الدور التي أظهرت واستعلنت بالكفر وصروح الشرك ومشاهد المحادَّة لله عز وجل في الحكم والطاعة والعبادة، هي دور كفر أهلها كفار والعينُ منهم تُلحق بدين قومها إلا من أظهر المخالفة فيما أظهروه من الكفر والشرك وهو الظاهر المعتبر في هذه الدور... عرف كل ذلك بالأدلة تساقطت عنده الشبهات وظهرت له المسائل واضحة في صفاء لا يقوم غبش الشبهة في دفع اليقين ولا تعكير صفو الحق المبين، ثم نظر في واقع الناس اليوم فيتعجب في استغراب كيف لأقوام يصححون دين هذه الدور الممتنعة بهذه الشعوب عن دين الله، هذه الشعوب الغارقة في صنوف الكفر والشرك والجهل بلا إله إلا الله والإعراض عن تعلم الإسلام بحده الصحيح، الشعوب التي هي طوائفٌ ممتنعة عن دين الله بموجب قانون النصرة والخدمة الوطنية: الواجب المقدس عندهم، فرجالهم جنود احتياط لنصرة

---

[1] خلق أفعال العباد ٦٧/١

الطاغوت، الشعوب التي في زهوها تُنَكِّت بالاستهزاء بآيات الله وفي غضبها تَنتفض بسب ذات الله، هؤلاء العبيد للعبيد المتجنسين بدين الديمقراطية الخاضعين لملَّة العلمانية المنقادين لشريعة الطاغوت، هذه الشعوب التي أعلنت الكفر البواح: كالاستحلال والتَّشريع والتحاكم والانتخاب والولاء والنصرة للطواغيت، والاستهزاء بشعائر الإسلام كالجهاد والسبي ووصفها بالإرهاب والتَّخلف والرَّجعية، الشعوب التي فشا فيها التَّجهم وتعطيل الصِّفات وحصر الكفر بالمعرفة والاعتقاد ونفي العلو لله الواحد القهار، وتعطيل البراءة والتكفير، وانتشار الشرك بأنواعه وصوره، وتعظيم الطواغيت والأوثان ونصب التماثيل والأصنام وتحيَّة العلم وتعظيمه والقتال دونه، وكفر المجالِس كشهود أماكن الشِّرك في المظاهرات والأخبار والقنوات والإذاعات والمدارِس والجامعات والأعياد الكُفريَّة والأندية والملاعِب والرِّياضات، وما هذا إلَّا غيضٌ من فيضٍ وحبَّةٌ من فَلاةٍ ... حسبنا الله ونعم الوكيل.

ويزداد العجب حين تُدفَع النصوص المحكمات والآيات البينات وتحكَّم عليها المتشابهات، فكيف تصحح الشعائر إسلام المشركين في العبادة والحاكمية والطاعة والاتباع؟! .... ولكنها الضلالة والعماية كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾، فكيف السبيل إلى قلوبٍ تُجادل في المُسلَمات، وتدفع الحق دفعاً ليصفوا لها العيش صفواً وتهنأ بفُتَاتِ موائد الموسسات، وتَجْهَدُ في ترقيع الخرق الذي أفنى الثوب البالي وأنهاه، كالذي يستعير ثوب زور ليستر به سوءة العاهرات ... قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[الأنعام ٣٦]، إنهم المجادلون عن المشركين، المصححون لدين الكافرين، الطاعنون في أولياء الله الموحدين، قال تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ

ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[طه١٣٥]، وعن عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ، وَقَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ قُتِلَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، لَحَشَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ يُرَى أَنَّهُ كَانَ عَلَى هُدًى»[1].

قَالَ ابن بطة: "فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَاقِلًا أَمْعَنَ النَّظَرَ الْيَوْمَ فِي الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ لَعَلِمَ أَنَّ أُمُورَ النَّاسِ تَمْضِي كُلُّهَا عَلَى سُنَنِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ وَطَرِيقَتِهِمْ وَعَلَى سُنَّةِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَعَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَمَا طَبَقَةٌ مِنَ النَّاسِ وَمَا صِنْفٌ مِنْهُمْ إِلَّا وَهُمْ فِي سَائِرِ أُمُورِهِمْ مُخَالِفُونَ لِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ مُضَاهُونَ فِيمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ وَالْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَهُمْ"[2]، وقال البربهاري: "واحذر ثم احذر أهل زمانك خاصة، وانظر من تجالس، وممن تسمع، ومن تصحب، **فإن الخلق كأنهم في ردة**، إلا من عصمه الله منهم"[3]، فهذا وصف أهل زمانهم، فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهي التي لم تخطر ببالهم، ولم تَدُر في خيالهم؟! فالناس اليوم قد دخلوا في دين الديمقراطية عن بكرة أبيهم ـ إلا من رحم الله ـ وأظهروا الموافقة والاتباع لأوضاعه والانقياد لقوانينه وأحكامه والتحقوا بمدارسه وجامعاته وتوظفوا في مؤسساته وقطاعاته واعتنقوا دين الوطن فلهم حقوق المواطنة وعليهم واجباتها، ومنها الدفاع عن الوطن والإعداد لذلك بالخدمة الإلزامية والمشاركة في العملية السياسية وإقامة أركان الطاغوت في الأرض ويسمونها بناء الوطن فهم عبيد لهذا الوثن ... ثم يأتي بعد ذلك من يقول أنَّ هذا كفر دون كفر!! وأن هؤلاء أهل القبلة!!، ويحتج على تصحيح مثل هذا الواقع المنسلخ ويرقع لأهل الديانة الوضعية بآثار في وقائع مباينة تماما لما فيه الناس اليوم، كأنه لا يعلم أن ما وقع فيه الناس اليوم هو أشد وأشنع مما وقع فيه اليهود والنصارى، فحسبنا الله ونعم الوكيل في أهل الأهواء الذين يحرفون الدين على غير

---

[1] رواه الدارمي في سننه برقم ٣١٨

[2] الإبانة الكبرى لابن بطة٢/٥٧١

[3] شرح السنة ١٢٢

تنزيله، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه:« أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَ الْقُرْآنَ على غير تَأْوِيله»[1].

إن تحقيق ملة إبراهيم في هذ الزمان يكون كما أمر الله تعالى في كتابه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة ٤]، فمن حقق البراءة من قومه ومما يعبدون من دون الله وكفَّرهم وعاداهم وأبغضهم، وآمن بالله واستسلم لله بتوحيده - كما بينا في هذا الكتاب -، ولم يشرك بالله شيئاً في العبادة والحكم والطاعة والمحبة، واجتنب عبادة الطاغوت، واتَّبع ما أنزل الله وكان عبداً لله في التلقي والطاعة والاتباع لا عبداً للطواغيت أو ولياً للكافرين كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام١٠٦] وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة٢٥٧] فمن آتى بذلك فقد حقق ملة إبراهيم واستمسك بالعروة الوثقى والكلمة الباقية.

ولا تكن يا عبد الله ممن أصم آذانه واتبع شيوخه وخلانه، وتولى بعد ظهور الحق وبيانه، وعاند بعد قيام الحجة عليه فاستوجب عذابه، وكان ممن قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾[الكهف١٠١]، قال قتادة« كانوا عميًا عَنِ الحق فلا يبصرونه صمًا عنه فلا

[1] رواه الروي في ذم الكلام برقم ٨٤ روى نَحوه الْبَزَّار فِي مُسْنده ٢٨٦ / ١ / ٤٠٧ فِي آخر أثر طَوِيل من طَرِيق غير هَذَا

يسمعونه»[1]، وتب إلى الله عز وجل قبل فوات الأوان ، قال يحي بن سلام: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[الزمر٥٣]، بِالشِّرْكِ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ"[2].

نسأل الله أن يقيمنا على الملة الغراء ويثبتنا على المحجة البيضاء حتى نلقاه، اللهم أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، اللهم أحينا علماء عاملين ما كانت الحياة خيراً لنا، واختم لنا بالشهادة في سبيلك دفعاً عن دينك تحت رايةٍ لا غبش فيها ولا كدر، فلا طابت حياة العبيد في دور الشرك والتنديد، فإن حال المسلمين فيها كما روي جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: « يأتي زمان على الناس يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فيكم اليوم»[3]، وإن كان ابن بطة يقول في زمانه: "فَإِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَلَّ مَنْ يَسْلَمُ لَهُ فِيهِ دِينُهُ، وَالنَّجَاةُ فِيهِ مُتَعَذِّرَةٌ مُسْتَصْعَبَةٌ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ، وَأَحْيَاهُ بِالْعِلْمِ"[4]، فماذا نقول نحن وما عسانا أن نقول إلا أن نقول: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[آل عمران٨]

هذا جهد المقل ونصيحة المشفق وصيحة النذير، وقد سلكت فيها مسلك الاختصار لضعف همم الناس عن البسط والاطناب، واجتهدت في البناء على كتاب الله واقتفاء الآثار عن رسول الله والاستنارة بفهوم الصحب الأخيار والأئمة الأبرار، وما نقلت عن المتأخرين من كلامهم فهو مما وافق الحق من أقوالهم حيث لم أجد للسلف قولاً فيما لم يعترضوا له مما أحدثه المتأخرون

[1] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٢٩٩٤

[2] تفسير يحي بن سلام ١/ ٤٩٠

[3] أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ٢٣٨ وابن عدي في الكامل في الضعفاء ١٨٩/٧ وهو غير محفوظ

[4] الإبانة الكبرى ١/ ٣٦٦

من مقالات، قال الدارمي :" **فَإِنْ طَلَبْتُمْ مِنَّا فِيهِ آثَارًا مَأْثُورَةً مُسْنَدَةً مَنْصُوصَةً فِيهِ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ فقد أخبرناكم أَنَّهُ كُفْرٌ لَمْ يَحْدُثْ فِي عَصْرِهِمْ، فَيُرْوَى عَنْهُمْ فِيهِ**"[١]، وما ذلك إلا ليستأنس القارئ بالعزو ولا يُنسب للكاتب فهماً لم يُسبق إليه، فليس في قول أحد من الرجال حجة في دين الله إلا ما كان من كتاب الله أو السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ أو إجماع صحابة رسول الله ﷺ"[٢]، وإن كنا قد نقلنا في هذا الكتاب من إجماعات لغير الصحابة على أن " أهل العلم مالوا إلى معرفة الإجماع ليعظموا خلاف من خالفه ويزجروه عن خلافه فقط، وكذلك مالوا إلى معرفة اختلاف الناس لتكذيب من لا يبالي بادعاء الإجماع جرأة على الكذب حيث الاختلاف موجود فيردعونه بإيراده عن اللجاج في كذبه فقط"[٣].

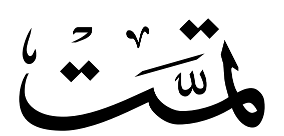
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين.

---

[١] نقض الإمام أبي سعيد ١/٥٤٤

[٢] انظر كتاب: "**الإقناع بمنزلة الآثار من المرفوع والموقوف وحجية الإجماع**" لصاحب الكتاب

[٣] الإحكام في أصول الأحكام ٤/١٤٤





ملحق

نونية الغريب

محمد بن سعيد الأندلسي

ختم الله له بالشهادة

الحَمْدُ للهِ العَظيمِ شَأْنَهُ ... ثُمَّ الصَلاَةُ علَى النَّبي العَدنَانِ
والآلِ والصَّحْبِ الكِرامِ كُلِّهِم ... والسَّالِكينَ لِدَربِهِمْ بِبيَانِ
وبَعْدُ ذِي نُونِيَةٌ حَرَّرْتُهَا ... أبيَاتُهَا فِي عَقْدِنَا مِتَانِ
أو قَدْ يَزِيدُ فَوْقَ ذَا العَدِّ لَهَا ... فِي نَهْجِنَا والقَولِ ذِي الفُرْقَانِ
وأَستَعِينُ اللهَ فِي نَظْمِي لَهَا ... قَوَلاً يُزِيلُ اللَبْسَ للحَيرَانِ
يَا رَبِّ بَارِكْ بِذْرَةً فِي أَصْلِهَا ... نَفْعاً يَفِيضُ مُثْمِرَ الأَفْنَانِ
يَا سَائِلِي عَنْ مَنْهَجِي وعَقِيدَتِي ... تَرْجُوا النَّجَاة وتَبْتَغِي الرِّضْوانِ
إنَّ النَّجَاةَ اليَومَ عَزَّ مَنَالُها ... وقَلَّ مَنْ يَنْجُوا مِنَ الثَّقَلانِ
فِي هَذِه الأَرضِ التِي قَدْ أَظْلَمَت ... مِنْ نُورِ دِينِ الوَاحِدِ الدَيَّانِ
فَضَاقَ فِي الأُفُقِ الوَسِيع مَعَاشُهَا ... بَينَ البَهَائِمِ زُمْرَةِ الشَيْطَانِ
قَد استَحالَت جُمْلَةً عَنْ دِينِها ... كالأَنْدَلُسْ فِي غَابِرِ الأَزمَانِ
وتَآكَلَت فِي نُفُوسِها الفِطَرُ التِي ... فُطِرتْ عَليها سَائِرُ الوِلدَانِ
فَغَدَت إلى الشِركِ الصَّرِيحِ أَصَالةً ... وَرِثُوهُ دِيناً فِي ثَرى الأَبَوانِ
فَالجِيلُ يَنشئُ في المَدارِسِ نَشأَةً ... علَى غَيرِ دِينِ المَنْهَجِ الرَبَّانِ
رَضِعُوا مِنَ الثَّدي الخَبيثِ ثَمَالَةً ... يَشتَدُّ عُودٌ فِي ثَرَى الكُفران
عُودٌ يُقاتِلُ في سَبِيلِ وَطْنِهِ ... كَي يَحيَ فِيه مُنعَّماً بِأَمانِ
يَذُودُ عَن دَارِ البَوارِ شَجَاعةً ... كَي يَبقى مُلْكاً شَامِخَ البُنيانِ
الدارُ تُرفَعُ فِي ثَراها رَايَةٌ ... وَثَنٌ يُعظَّمُ فِيها كالصُلبانِ
ومَعالِمُ الطُغيَانِ فِي جَنبَاتِها ... وصُروحُ شِركٍ تَبْدُوا للأَعيَانِ
قَد قَامَها الشَّعبُ الذي في دِينِهِ ... الحُكْمُ لِلجمهُور حُكْماً دَانِ
وشَرائِعُ الكُفْرَان هُم مَن صَاغَها ... فِي البَرلَمانِ شُعبَةَ الطُغيَانِ
فَتنوبُ شَعباً كَامِلاً فِي سَنِّها ... حَتى يَكُونَ الحُكمُ للأَوثَانِ
والشَّعبُ طَوعاً يَنْتَخِبْ في مَحْفَلٍ ... فَالقولُ قَولُ الشَّعبِ لا قَولانِ
لِيُنَّصِبَ الطَّاغُوتَ في مُلكٍ لَهُ ... يَقضِي بِشِرْعَةِ شُعبَةِ الخُذلانِ
حَتَّى إذا حادَ المُلوكُ في حُكْمِهِمْ ... عَن نَهْجِهِمْ فالقَولُ قَولٌ ثانِ
فَتسيرُ جَمْهَرةُ الشُّعوبُ في ثَورةٍ ... فِي خَلْعِ حَاكِمِهَا الذي هُو جانِ
فَيُنَصِّبُوا مَن يَرتَضِيهِ غُثَاؤُهم ... ويُزِيلُوا مُلْكاً رَاسِخَ الأَرْكانِ
فَهُم الذينَ يُقَررُونَ أَصَالةً ... دِينَ المُلوكِ وحَاكِمَ الأعيَّانِ

شَعْبُ النَّذَالَةِ يَنْسَلِخْ عَنْ فِطْرَةٍ ... يَحْظى بِمَا قَدْ خُصَّهُ الرَحْمَانِ
فِي دِينِ دِيمُقْرَاطَ هَذا سَبِيلُهُ ... حُكْمُ الغُثَاءِ فِي سَائِرِ الأَوْطَانِ
دَينُ النَصْارَى قَدْ حَذْوُا فِي حَذْوِهِ ... تَقْلِيدُهُم فِي حُكْمِ ذَا السُلْطانِ
فَاتَّخَذُوا الأَرْبَابَ فَي تَشْرِيعِهِمْ ... مَنْعاً وَفَرْضاً سُنَّةَ الرُهْبَانِ
ورَذَائِلُ الخَلْقِ هُمُ، حُكَّامُهَا ... سُفَهَاءُ قَوْمٍ زُمْرَةَ النِّسْوانِ
قَدْ بَدَّلُو دِينَ النَّبِيّ مُحَمَدٍ ... وَخَيْرِ هَدْيِ المُصْطَفَى العَدْنَانِ
بِزُبَالَةِ الآرَاءِ وَالأَذْوَاقِ فِي ... لَذَاتِ حَاذِقِ تِرْكَةِ اليُونَانِ
تَجْرِي عَلى أَعْرَاضِهِم ودِمَائِهِم ... قَد عُبِّدُوا لِلخَلْقِ وَالشَيطَانِ
تَجْرِي عَلى أَمْوالِهِم وعُقُودِهِم ... أَوضَاعُها تَسْرِي بِلا نُكْرانِ
وَمحَاكِمُ الطَاغوتِ عَالِي بِنَاؤُهَا ... وَوُفُودُهَا تَمْضِي بِلا نُقصَانِ
وَمِيزَانُهَا بَخْسٌ عَلى رُوَّادِهَا ... قَانُونُهَا حَيفٌ عَلى الإِنْسَانِ
عَجَبًا لَهُم كَيفَ رَضُوُا لِحَيَاتِهِم ... تَسُوُسُهَا أَهْوَاءُ ذِي الخُذْلانِ
فَدَانُوا لِلمَخْلُوقِ طَوعاً مِنْهُم ... وَتَنكَّرُوا مِن شِرْعَةِ الدَيَّانِ
قَد أَسْلَمُوا لِعَبِيدِ سُوءٍ مِثلُهُم ... وَانْقَادُوا لِطَّاغُوتِ دُونَ سِنَانِ
قَدْ أُدْخَلَت فِي دِينِهِ أَفْوَاجُهُم ... فَالدِّينُ حُكْمُ الُملْكِ والسُّلْطانِ
وطَاعَةٌ لِنِظَامِ حُكُمٍ وَضْعُهُ ... أَرْبَابُهُمْ لا خَالِقَ الأَكْوَانِ
فَهُوَ اتِبَاعُ الأَمْرِ وَالنَّهيِ لِمَنْ ... دَانَتْ لَهُ بِالقَهْرِ ذِي القِطْعَانِ
فَمَنِ اسْتَقَامَ خُضْوُعهُ فِي دَارِهِم ... وَانْقَادَ مُتَّبِعاً هُمَا مِثْلانِ
فَهُمَا فِي دِينٍ غَيرِ دِينِ اللهِ مَا ... دَخَلُوهُ أَصْلاً إِلا فِي الأَذْهَانِ
فِي ذِهْنِ جَهْمٍ قَدْ صَفَا إِسلاَمُهُم ... أَحْبَارُ سُوءٍ نَعْلَ ذَا السُّلْطَانِ
فَفِي دِينِهِ لا يَكْفُرُوا بِخُضُوعِهِم ... قَدْ أَخْرَجُوا العَمَلَ مِنَ الإِيمانِ
طَوَاغِيتُ عِلْمٍ يُقْتَفِى آثَارَهُم ... فَتَنُوا الأَنَامَ فِي آخِرِ الأَزْمَانِ
قَدْ حَرَّفُوه جُمْلَةً وَتَزَيَّنُوا ... بِبَهْرَجِ الأَقْوَالِ وِالأَلحَانِ
خَاطُوُه دِيناً تَرْتَضِيهِ مُلوكُهُم ... قَدْ خَانُوا عَهْدَ الوَاحِدِ الدَيَّانِ
قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَنْ الهُدَاةِ جَهْرَةً ... سَارُوا بِهِم فِي مَسَالِكِ الحَيْرَانِ
تَاهُوا وَقَد حَسِبُوا النَّجَاةَ في غَرْزِهِمْ ... طَوعاً لِقَولِهِم، بِلا برهانِ
إنْ قُلْتَ قَالَ شَيخُنا أَنْعِمْ بِهِ ... قَالَ إِمَامُ العَصرِ كَالعُمَرَانِ

إنْ قَالَ لا تَسأَلْ لهُ عَنْ أَصلِهِ   تَسلِيمُنَا مِنْ أَفضَلِ القُربَانِ
قَدْ نَصَّبُوهُ إلآهَهُم لو يَعلَمُوا   لَكِنَّهُم قَد أُطْمِسُوا البَصَرانِ
قَد غَشَّهُم فِي أَصلِ دِينِ الأَنْبِيَاء   فَدَانُوا غَيرَ مِلَةِ الخِلانِ
لا يُعْذَرُوْنَ بِجهلِهِم وضَلالِهِم   فَالعُذْرُ مُمتَنِعٌ لِذِي الأَديَانِ
كذَاكَ مَن قَدْ أَسلَمَ أجنَاسَهُم   مَا حَقَقَ الإسلاَمَ والإِيمَانِ
فَصرِيحُ دِينِ الأَنبِيَاءِ بَرَاءَةٌ   مِنْ شِرْكِ عَابِدِهِم مَعَ كُفْرَانِ
وتَلازُمٌ بَينَ البَراءةِ مِنهُم   وَبَراءةٌ مِنْ شِرْكِهِم سَيَّانِ
لا يَستَقِيمُ الدِينُ إلا بِأَصلِها   مَا قَامَ حَتَّى قَامَتِ القُطبِانِ
هَذا الذِي قَد أخرَجُوهُ دُعَاتُنَا   مِن أَصلِ دِينِ فَاطِرِ الأكوَانِ
فَأَسلَمُوا الأَقوَامَ فِي دَارِ الخَنَا   وَصَحَحُوهُ لِسَاكِنِ العُمَرَانِ
إخوانُهُم عُبَّادُ مَن وَسِدَ الثَرَى   العَاكِفِينَ عَلَيهَا طُولَ زَمَانِ
الرَاقِصِينَ بِآلِيَّاتِ نِسَائِهِم   والطَائِفِينَ عَلى قَفَا الجُدْرَانِ
الخَاشِعِينَ فِي حَضرَةِ أَموَاتِهِم   العَائِذِينَ بِهِم مِنَ الأَحزَانِ
الوَارِثِينَ لِنِحلَةِ أَسلافِهِم   المُقْتَفِينَ آثَارَهُمْ بِبَيَانِ
مَنْ عَمرُوا فَوقَ القُبُورِ مَسَاجِداً   شِرَارُ خَلْقٍ وِصْفَةَ العَدنَانِ
شِركُ القُبُورِ والقُصُورِ بَينَهُم   أَشَدُ مِن شِرْكِ بَنِي نَصْرَانِ
لمْ يَترُكُوا بَاباً مِنَ الكُفْرِ ولاَ   جُمَلاً مِنَ الفِسْقِ ولاَ العِصيَانِ
بَلْ أحدَثُوا مِنْ هَذه الأَوضَاعِ مِنْ   مَا لَمْ يَكُنْ فِي سَالِفِ الأَزمَانِ
فَأَدْخَلُوا الكُفْرَ فِي جُلِ عُقُودِهِم   وأَلْزَمُوا ذَاكَ فِي كُلِ مَكَانِ
يَا وَحْشَ مَن قَدْ وَحْدَ المَولَى وَمَنْ   قَدْ حَقَقَ الكُفْرَ بِذِي الأَوثَانِ
لا يَسْلَمُ الدِينُ لَهُ إلا إذَا   قَدْ فَاصَلَ الأَقْوَامَ والعُمْرَانِ
شَغَفُ الجِبَالِ يَكُونُ ذَاكَ مِلاَذُهُ   يَفِرُ مِنْ سُفَهَاءُ ذِي البُلْدَانِ
يَرْقَى لِذَاكَ السَفْحِ يَخْلُوا بِطَاعَةٍ   حَتَّى يُلاَقِيِ رَبَهُ المَنَّانِ
مَنْ لَم يُفَارِقْ قَومَهُ فَليَحْذَرِ   مِنْ خُلْطَةِ الكُفَّارِ وَالبُطلاَنِ
يَضِيعُ دِينٌ فِي مَودَةِ مُشْرِكٍ   يَذُوبُ صَلْبٌ فِي خُطَا الشَيطَانِ
طَاغُوتُ ذَا العَصرِ هُوَ أَقوَامُنَا   فَاجْتَنِبُوهُ إخْوَةَ الإِيمَانِ
يُنَازِعُونَ الرَبَ فَي مَا اختَصَهُ   وَتَفَرَدُوا بِالحُكْمِ والسُلطَانِ
فَالحُكْمُ إلا لِلشُعُوب مَقَالُهُم   يُضَاهِئُونَ بِهِ بَنِي نَصْرَانِ

فَالحُكْمُ لِلمَولَى الإلَهِ كُلِهِ   وإنْ جَحَدْ ذَاكَ بَنِي عَلْمَانِ
وَبَرَاءَةٌ مِنْ قَومِنَا تَوحِيدُنَا   فَاعْضُضْ عَليهِ يَا أخَا العِرفَانِ
مُتَرددٌ في ذَاكَ أو مُتَوَقِفٌ   يُلْحَقْ بِذَاكَ القَومِ فِي كُفْرَانِ
وكُلُ فَرْدٍ مِنْهم، يُلْحَقْ بِهِم   فَاحْكُمْ بِهَذا الحُكْمِ دُونَ تَوَانِ
غَيرَ الذِي قَدْ أظهَرا إسْلاَمَهُ   وبَرَاءَةٌ مِنْ قَومِهِ بِبَيَّانِ
فَهُوَ الحَنِيفُ المُقْتَدِي بِإمَامِهِ   المُهْتَدِي والمُسْلِمُ الحَقَّانِ
أَهْلُ الوِلاَيَةِ نُصْرَةً ومَحَبَةً   أَهلُ الإِخَاءِ وشِيعَةَ الإِحْسَانِ
هَذا كِتَابُ اللِه يَنْطِقُ بَينَنَا   بِأَفْصَحِ التِبيَّانِ والبُرْهَانِ
فكُلُ مَا قَدْ قَصَّهُ فُرْقَانُنَا   عَنْ مِثلِ أَقوامٍ لَنا صِنْوَانِ
لا فَرْقَ بَينَ قَومِنَا أو قَوْمِهِم   إلا بِدَعوَى دُونَ ذَا بُرهَانِ
إنَّ الدَعَاوَى لا تُصَحِحُ دَعوَةً   إلا بِعِلْمٍ جَازِمِ التِبيَّانِ
فَأَصلُ دِينِ الأَنبِيَاءِ بَراءَةٌ   يَتَمَايَزُ فِي إثْرِهَا الدِينَانِ
مَا كَانَ فِي ذَاكَ الزَمَانِ دِينُهُم   فَبِهِ النَّجَاةُ فِي آخِرِ الأَزْمَانِ
يَا غَرْبَةً فِي الدِينِ بَينَ قَومِنَا   فَالْخُلْفُ في تَعرِيفِ ذَا الإِيمَانِ
نَدْعُوهُم، لصَحِيحِ دِينِ الأنبِيَاء   يَدْعُونَنَا حُدَثَاءَ ذَا الأَسْنَانِ
فَخَوارِجٌ لَسْنَا نَقُولُ بِقَولِهِم   أَهلُ الكَبَائِرِ هُم ذَو، عِصيانِ
أَمَا الصَّحَابَةُ هُمْ تِيجَانُ رُؤُوسِنَا   فِي إثْرِهِم نَقْفُوا إلى الرِضْوَانِ
قَدْ كَفَّرَ الصَّحْبُ الكِرَامُ دِيَّارَ مَنْ   المَانِعِينَ شَرِيعَةَ المَنَّانِ
فَكيفَ مَنْ قّدْ بّدَلَ الدِينَ وَدَانَ   بِنِحْلَةِ قَومِ بَنِي عَلْمَانِ
فَخَوارِجٌ مِنْ دِينِ قَومٍ بَدَلُوا   لَسْنَا بِدَاخِلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ
فَغيرُ دِينِ المُصطَفَى لا نَبتَغِي   نَرجُو النَّجَاةَ وحُورَ ذَا الأَعَيَّانِ
يَا طَالِبَ الحَقِ مُرِيداً لِلهُدَى   اسْمَعْ بِفَهمٍ حَاضِرٍ يَقْظَانِ
اِخْلَعْ قُيُودَ أَسْرِهِم وَهَوَانِهِم   كَسْراً لِذِي الأَصنَّامِ والأَوْثَانِ
وَتَعَلَّمِ الدِينَ الصَّحِيحَ بِحَدِهِ   واحْكُم بِهِ وَضْعاً عَلى المِيزَانِ
وارفَع بِرأسِكَ نَاظِراً فِي قَومِنَا   هَلْ هَؤُلاءِ عُصبَةُ الإِيمَانِ؟
واقرأ كِتَاباً خَطُهُ بِأَنَامِلِي   فِيهِ البَيَّانُ الشَّافِي والبُرهَانِ
عَنْوَنْتُهُ بِهِدَايَةِ الأَنَامِ   لِحَقِيقَةِ الإِسلاَمِ والإِيمَانِ
فَاعضُضْ عَلَيهَا بِالنَّواجِذِ مُمْسِكاً   واحْذَرْ تَزُولُ تَبُوءُ بِالخُسْرَانِ

فهرس